المؤلف الحائز على
جائزة نوبل للآداب
2014

باتريك موديانو

دفتر العائلة

رواية

@ketab_n
Follow Me
7.5.2017

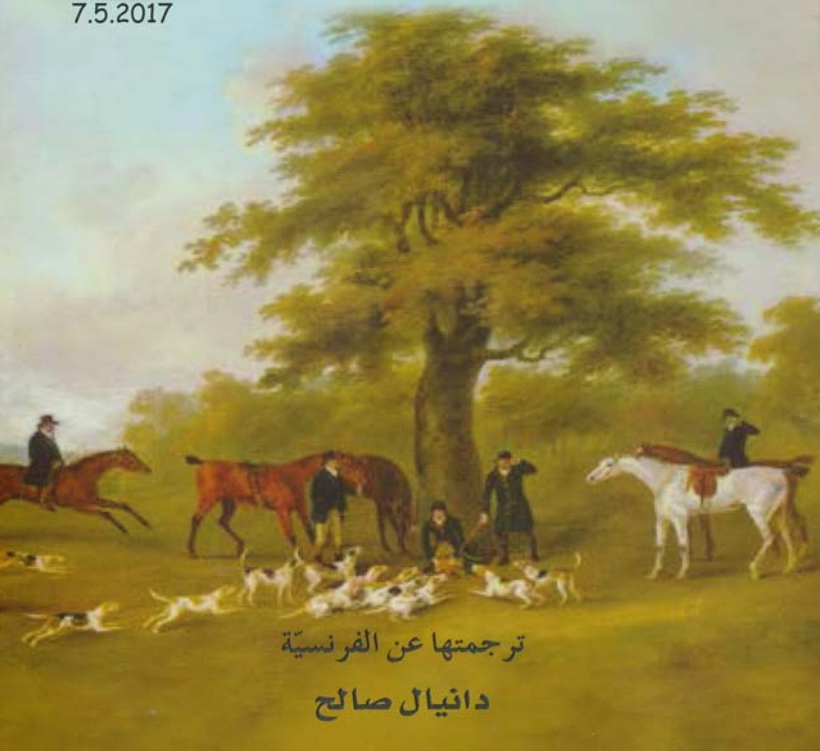

ترجمتها عن الفرنسيّة

دانيال صالح

باتريك موديانو

دفتر العائلة

رواية

ترجمتها عن الفرنسيّة
دانيال صالح

مراجعة
كاظم جهاد

Twitter: @ketab_n

© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة – مشروع «كلمة»
بيانات الفهرسة أثناء النشر

PQ2673.O3 L512 2016

Modiano, Patrick, 1945-

[Livret de famille]

دفتر العائلة : رواية / تأليف باتريك موديانو ؛ ترجمة دانيال صالح ؛ مراجعة كاظم جهاد. ـ ط. 1. ـ أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2016.

297 ص. ؛ 11 × 18 سم.

ترجمة كتاب: Livret de famille

تدمك: 978–9948–13–664–4

1– القصص الفرنسية– القرن 20.

أ– صالح، دانيال. ب– جهاد، كاظم. ج– العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي:

Patrick Modiano

Livret de famille

© Editions GALLIMARD, Paris, 1977

لوحة الغلاف: «نهاية الصّيد بالكلاب السلوقيّة»، لجون نوست سارتوريوس، (1813)

Couverture : John Nost Sartorius, La fin de la chasse à courre (1813)

كلمة KALIMA

www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

عام القراءة 2016

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة

ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

إن هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة – مشروع «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن رأي الهيئة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لـ مشروع «كلمة»

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأي وسيلة نشر أخرى بما فيه حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

Twitter: @ketab_n

دفتر العائلة

Twitter: @ketab_n

ديباجة

لطالما عالج باتريك موديانو Patrick Modiano في أعماله السرديّة فترة الاحتلال الألمانيّ لفرنسا، التي تجد امتدادها في سنوات حرب الجزائر. فترة دأب على تصويرها كما عاشها هو من خلال مخاوف أفراد جيل أبويه وذكرياتهم عنها، هو الذي ولد في السنة الأخيرة للحرب العالمية الثانية. حرب أو حروب لم يعشها مباشرةً ولكنّه عاشها أو تكبّد آثارها عبر إهمال أبويه له ولشقيقه الصّغير، وعبر ما كان يسمعه أو يتخيّله عن هذه الشخصيات الغامضة، الملتبسة أحياناً، التي كان أبواه يعهدان بهما إليها. عبر ما كان يلحظه عليها، وعلى مُحايليه، من تخبّط وحيرة وإبهام وانكسار واضح على الجميع ولكنْ تخفى دوافعه.

فاز موديانو، كما هو معلوم، بجائزة نوبل للآداب في

Twitter: @ketab_n

2014، ويقدّم مشروع «كلمة» ستّاً من رواياته بترجمة دانيال صالح. بدأ نشر عمله الأدبيّ في 1968، يوم كان في سنّ الثالثة والعشرين، ومنذ البداية دأب على السّير بعكس اتّجاه التاريخ الفرنسيّ الرسميّ أو المعلن. فتراه، كما تذكّر به آلييت آرميل في مقالتها عن موديانو في الموسوعة العالميّة «إنسكلوبيديا يونيفيرساليس»، يكشف عن «كتّاب معادين للساميّة ويهود متعاونين مع المحتلّ الألمانيّ، وعن سوق سوداء وغراميّات مريبة أثناء الحرب؛ أي عن كلّ ما كانت فرنسا تريد أن تسدل عليه ستار النسيان». وفي تلك الفترة التي جعل منها موديانو أحد أهمّ محاور عمله الأدبيّ، «كان الانتقال، تضيف كاتبة المقالة، من عالم الغستابو (الشّرطة السريّة للنظام النازيّ) إلى شبكات المقاومة الفرنسيّة أكثر تواتراً ممّا يراد الإيهام به. وكان ذلك الانتقال محكوماً أحياناً بالصدفة أكثر ممّا بالقناعة». هذا ما فضحه موديانو في رواياته، وفي سيناريو «لوسيان لاكومب» *Lucien Lacombe* الذي كتبه بالاشتراك مع المخرج الفرنسيّ لوي مال Louis Malle، الذي أخرجه فيلماً أثار سجالات كبرى في 1973.

Twitter: @ketab_n

يظلّ بُعد السيرة الذّاتيّة دائم الحضور في أعمال الكاتب، ولكن في كتابة تتعرّض فيها السّيرة إلى تدخّلات من الخيال الإبداعيّ تموّهها لتزيدها عمقاً وكثافة. لا يتوخّى موديانو الكتابة الشعريّة ولا يحبّذ لغة المجازات. إلّا أنّ طريقته في كتابة الذّات تصبّ في خاتمة المطاف في مسعىً شعريّ عرّفه هو نفسه في نظرنا خير تعريف عندما صرّح لمجلّة «اقرأ» *Lire* الفرنسية في 2003 بالقول: «لا يتمثّل مسعاي في أن أكتب لأعرف نفسي، ولا لممارسة الاستبطان أو الغوص في أغوار النّفْس. بل في العمل، من خلال عناصر بسيطة مرتبطة بالصّدفة، كالأبوين اللّذين كانا لي، وولادتي بُعيد الحرب، على إيجاد شيء من الجاذبية في هذه العناصر التي لا تتمتّع في حدّ ذاتها بأهميّة، وعلى تجزئتها عبر موشورِ نوعٍ من المخيال. لطالما رأيتُ في مشروع السّيرة الذاتيّة ضرباً من الخديعة، ما لم يتوفّر على بُعدٍ شعريّ، كما لدى نابوكوف Nabokov في «ضفاف أخرى» *Autres rivages*. إنّ في النبرة السيرية–الذاتيّة شيئاً ما سطحيّاً، لأنّها تستتبع على الدّوام نوعاً من المَسْرَحة. أمّا لديّ فهي على الدّوام مشروع أدبيّ، ومعالجة فنيّة لعناصر هشّة».

Twitter: @ketab_n

وكما أشرنا إليه من قبلُ في مقدّمات هذه السلسلة، كان والداه دائمَي الغياب، أمّا شقيقه الوحيد رودي فقد فارق الحياة في سنّ العاشرة، ضحيّة إصابته باللّوكيميا أو سرطان الدّم. غياب الأبوين المتواتر هذا، والغياب النهائيّ لشقيقه أشعراه على الدّوام بفقدانٍ أساسيّ، بشيءٍ من الإحساس بالعار من التباس أبيه أثناء الحرب، إحساس تجاوزَه هو بأن جعل منه موضوع كتاباته، وبشعور بالذنب لبقائه بعد وفاة شقيقه المبكّرة.

الأمر ذاته في هذه الرّواية المؤلّفة من خمسة عشر فصلاً وجيزاً يمكن قراءتها كما لو كانت قصصاً قصيرة مترابطة. هي خمس عشرة لحظة أو خمسة عشر وجهاً أساسيّاً تشكّل موجز سيرة ذاتيّة كتبها مراهناً على الكثافة، وعلى الإيحاء، مثلما فعل في «سلالة»، التي سبق أن تُرجمت في هذه السلسلة، والتي تعاملَ فيها مع لحظاتٍ ووجوهٍ أخرى. على هذه الوجوه والأحداث والمفارقات ما فتئ الكاتب يلقي بصمات خياله الروائيّ، مموِّهاً هنا، ومضيفاً أو مُنقصاً هناك، سعيَ مزيدٍ من الإضاءة. إضاءة يظلّ التعتيم، كما في الفنّ السينمائيّ الذي مارسه هو نفسه كاتبَ سيناريوهات، يشكّل إحدى آليّاتها الأساسيّة وأحد أهمّ

Twitter: @ketab_n

عناصر كتابة السّرد عنده. فضيلة هذه الكتابة على التناول التاريخيّ (على أهميّته) تكمن في كونها تقدّم الحدث وآثار الحدث على النفوس، أي أنّها تعنى بتاريخانيّته من جهة وببطانته الشعوريّة من جهة أخرى. تتجلّى هذه البطانة في أقوالٍ وإيماءاتٍ شبه غير ملموحة، ومخاوف تكاد تتعذّر على القول وليس يمكن إضاءتها إلّا بصورة جانبيّة، عبر ضربٍ من الاستقصاء والرّصد والقبول بحصّة من الغموض والصّمت لا تكتمل بدونها اللّوحة ولا يمنح الزمن التاريخيّ والشعوريّ أيّاً من أسراره. بهذا المعنى تكلّم النقّاد بخصوص عمل موديانو الروائيّ عن «ملحمة»، ملحمة لم يسمح له انحيازه إلى الحداثة القائلة بالوجازة والتقطّع والتشظية والإلماح بأن يجعلها متّصلة، فكتبها في آثار متلاحقة يكمّل بعضها البعض، لا بل ينسخه، أي يستعيده محوِّلاً إيّاه ومنوّعاً عليه.

ما يتجلّى هنا هو تاريخ حقبة شكّلت بوتقة تجربة الكاتب الإبداعية أو مصهرها، هو الذي قال عن الحرب العالمية الثانية في إحدى محاوراته: «إنّها هي التّربة أو كومة السّماد التي طلعتُ منها».

لن يكون من فائدة في استحضار جميع الوجوه التي

Twitter: @ketab_n

يعالجها في هذا العمل، لا بل سيكون في ذلك إفساد لمتعة القراءة. يكفي أن نشير إلى كون أغلب شخصيّات هذا «الدفتر»، إن لم نقل كلّها، تفصح عن لعنة الغياب ذاتها التي يعاني منها السّارد، هذا الفتى الباحث في صباه ومقتبل شبابه عن ركائز وجوديّة ممكنة. من أبيه الممعن في الهرب، الهرب من العائلة ومن ذاته، والذي يتلقّط السّارد أخباراً عنه من أحد أصدقائه القدامى، إلى أمّه التي تبدأ مسارها في التمثيل السينمائيّ في ظلّ الحرب، فيختلط تصوير مَشاهد الفيلم بضرورات الهرب على عجلٍ تحت القصف. ومن عمّه الباحث عبثاً عن مكان مثاليٍّ يمضي فيه آخرَ سنيّ حياته، إلى الملك فاروق، ملك مصر الأخير، الذي يعيش في إيطاليا أعوامه الأخيرة مثقلاً بسمنته المفرطة وذكرياته التي يعرضها على السّارد (وقد عرفه الكاتب نفسه) في فيلم يصوّره مطلّاً على الجماهير من على متن سفينة في أحد الاستعراضات البحريّة. ومن ظرافة الممثّلين في فيلم «قبطان بحار الجنوب» الذي يشارك السّارد في وضع سيناريو له (ذكريات موديانو عن مساهماته السينمائيّة) إلى حبّه لدونيز دريسّيل، فتاة أحبّها وما كانت عرفت أباها ولا رأته إلّا لماماً، وسعى السّارد،

Twitter: @ketab_n

صاحب المحاولات الروائية (شأنه شأن موديانو في تلك السنّ) إلى أن يضع لها سيرة لوالدها. سيرة راح يتخيّلها انطلاقاً من بعض المعلومات المبتورة أو المتناقضة، جاهداً في أن يجعلها أجمل سيرة ممكنة، عاكساً في ثناياها لا حبّه للفتاة فحسب بل كذلك سعيه اليائس هو نفسه لإعادة تركيب «البازل» أو لعبة «المجمّعة» التي تتشكّل منها سيرة والديه والسيرة الجماعيّة لجيله ومحيطه الاجتماعيّ كلّه في ذلك العهد المأزوم الذي سكن ذاكرته ودمغ أحاسيسه بميسمه إلى الأبد. شخصيّات يتناهبها جميعاً التخبّط بين المنفى أو الحصار، يعيشونه على أرضهم ذاتها، والحاجة القاهرة إلى إدراك الملكوت –وطنهم الممكن.

تتألّف فصول هذا العمل من «نوادر» بالمعنى الفنّيّ للكلمة. أي كما كان الأدب العربيّ القديم، عند الجاحظ وابن قتيبة وسواهما، يقوم على تجميع عيّنات دالّة على التجربة الإنسانية وصياغتها في أسلوب رفيع. وكما تشكّل النوادر الفريدة (وقد سُميّت نوادرَ لندرتها) باجتماعها في هذا الأدب نسقاً سرديّاً متلاحماً، فإنّ «نوادر» موديانو تنجح في رسم صبا الكاتب بكامله بالتركيز على أحداث وشخصيّات كان لها في حياته حضور لافت وأثر باقٍ. يبدأ

Twitter: @ketab_n

السّارد الكتاب بذكر ابنته الحديثة الولادة وذهابه بصحبة صديق قديم لوالده لتسجيلها في «دفتر العائلة» عند دائرة الأحوال المدنيّة، وما يرافق ذلك من مفارقات تكشف هي أيضاً بعض ملابسات تاريخه العائليّ. وهو ينهي الكتاب بذِكر ابنته أيضاً، منوّهاً بكونها «لم تكن تملك ذاكرة بعد»، وما أبلغها من إشارة إلى محوريّة الذاكرة في مسعى الكاتب، بما تختزنه من تجارب صادمة تبعث فيه أغلب الأحايين حاجة قاهرة إلى النّسيان!

في هذا الكتاب، كما في أغلب كتب موديانو، حضور كبير لباريس. فهي تتقاسم وشخوصَ عمله مكان الصّدارة وتُزاحم «أبطاله» على أماكنهم. هي باريس شخصيّة، أي باريس موديانو قبل أيّ شيء آخر، تحمل مثل باقي عناصر أعماله آثار الواقع وتتضمّخ في الأوان ذاته بما يسكبه عليها خياله من ألوان. هو نفسه صرّح مرّةً بالقول: «يخامرني الانطباع بأنّ باريس كتبي هي باريس جوّانيّة تماماً أو خياليّة. فالأماكن الباقية اليوم فارغة تماماً ممّا أعيرها إيّاه في رواياتي. لقد صارت أماكن مرتبطة بأشياء ملموسة في فكري فحسب».

إنّها رواية نشأة، رواية تعلّمٍ وعبورٍ تلقينيّ موسوم

Twitter: @ketab_n

بالفراغ الكثيف. إذ للفراغ وزن وفداحة، وهو نفسه يذكّر باندراج ذلك في تجربته، كما عندما يكتب على لسان السّارد في هذا الكتاب: «انتابني إحساس بالفراغ، إحساس ألفتُه منذ طفولتي، منذ أدركت أنّ الناس والأشياء تفارقنا أو تتوارى في يوم من الأيّام». وما يقاومه الكاتب لا يتمثّل في مغادرة الذوات والأشياء فحسب، بل في امّحاء صوَرها أيضاً، ارتساماتها في الذاكرة واللّغة، ما يجعل من فنّ الرواية بعامّة، ومن روايات بروست وموديانو وأمثالهما، أنصاباً للذاكرة وأرشيفات للزمن الفارّ. بيد أنّ استعادة الروائيّ للزمن الضائع، أو أقلّه للوجوه والأحاسيس المهدّدة بالتلاشي والامّحاء، ليست مضمونة دوماً، بل هي غالباً ما تأتي عبر صور هاربة، غير مكتملة، تتمنّع وتحتجب، مصرّةً على الحفاظ على لغزها الكبير. كما تتمتّع الذكريات المستعادة بوزنها الطاغي من الإيلام، وتنتصب في تزاحمها حاجزاً بين السّارد وصيرورته الخاصّة. من هنا لا غرابة في أن يشكّل له النّسيان مصدراً للخطر، وفي الأوان ذاته ضرباً من الأمل. تقرأ في هذا الكتاب: «كنت أحاول أن أقاوم تلك الجاذبيّة التي تشدّني إلى الخلف، وأحلم بالتحرّر من ذاكرة مسمومة. كنت سأعطي كلّ

Twitter: @ketab_n

ما لديّ من أجل أن أفقد الذاكرة». ويضيف: «خطر لي أن ألجأ إلى جزيرة مهجورة تائهة في المحيط الهندي، حيث ستبدو لي ذكرياتي عن أوروبا العجوز سخيفة. فيها سيحلّ النسيان سريعاً. وسأشفى».

يطوّع الكاتب أثر الذكريات بتسجيلها في الكتابة كما هي، أو بتزييفها وإعادة معالجتها. ومن عرف مصادر الكاتب ومجمل عدّته الأسلوبية أمكنه أن يتسلّى بالكشف عن تناسلاتها المفاجئة أحياناً. في الفصل الخامس من هذا الكتاب مثلاً يرافق السّارد والده في رحلة إلى سولونيا، منطقة الغابات والصّيد في وسط فرنسا. غاية الوالد هي نيل توقيع بعض معارفه على صفقة غامضة كالعادة. ويستبقي هؤلاء الابن للمشاركة في حملة للصيد بالكلاب السلوقيّة. الجزء الأوّل من الحكاية يشبه سلوك أبيه المعتاد ويمكن أن يكون حدث بالفعل. أمّا الجزء الثاني المتعلّق بالصّيد بالكلاب فهو على الأرجح من خيال الكاتب. لكنّ عبارة «الصّيد بالكلاب السلوقيّة» *La chasse à courre* هي أيضاً عنوان كتاب في السيرة الذاتية للكاتب الفرنسيّ موريس زاكس Maurice Sachs المعروف بكونه تعاون مع المحتلّين الألمان، ثمّ لقي مصرعه على أيديهم في 1945. في أعمال

Twitter: @ketab_n

أخرى يشير موديانو إلى أنّ والده كان يحبّ هذا الكتاب. كما كان موديانو يجد نوعاً من الشّبه بين سيرة الوالد وسيرة زاكس. هكذا تشكّل حملة الصّيد، التي ارتأينا إبرازها في الغلاف عبر لوحة للرسّام الإنجليزي جون نوست سارتوريوس، كاشفاً أساسيّاً عن إحدى الأفكار المتسلّطة على الروائيّ، عبّر عنها باستخدامه الكناية والتلميح على نحوٍ لافتٍ: رحلة قنصٍ متخيّلة تحيل على عنوان كتابٍ، وعلى مرحلة مفصليّة من تاريخ أبيه وتاريخ فرنسا.

ومراراً نلاحظ تعاطفاً شديداً وغير استعراضيّ مع بعض الشخوص. مع الموظّف الجوّال لشركة إيجار أجهزة التسجيل مثلاً، الذي يجدونه ميتاً على كرسيّه في أحد المقاهي. يتساءل السّارد عمّا إذا كان الزبون الأخير أحسنَ استقباله، أي في النهاية إن لم يكن تعرّضَ إلى إساءة أودت بحياته. موديانو نفسه عرف تجربة البائع المتجوّل في صباه، إذ اشتغل سمساراً للمكتبات يعرض الكتب والموسوعات على الناس في بيوتهم، منتقلاً بها من باب إلى باب.

المُراجِع

كاظم جهاد

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

إلى رودي،
إلى جوزيه وهنري بوزو

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

«أن نحيا هو أن نصرّ بعنادٍ على إكمال ذكرى».

رينيه شار

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

1

كنت أتأمّل ابنتي من خلال الحاجز الزجاجيّ. كانت نائمة، متّكئة على خدّها الأيسر، وفمها مفتوح قليلاً. لم يكد يمرّ على ولادتها يومان، ولم يكن من الممكن تمييز حركاتها وهي تتنفّس.

كنت ألصق جبيني بالزجاج. بضعة سنتيمترات فقط تفصلني عن المهد، ولَما كنت فوجئت لو أخذ يطفو ويترنّح في الجوّ، مفلتاً من أيّ جاذبيّة. كان غصن شجرة دلبٍ يداعب النافذة برتابةِ مرْوحة. ترقد ابنتي وحيدة في تلك الغرفة البيضاء والزرقاء السماويّة التي تحمل اسم «حضانة كارولاين هيريك». كانت الممرّضة دفعَت المهد ووضعته أمام الإطار الزجاجيّ حتّى أتمكّن من رؤيتها.

كانت ساكنة بلا حراك. وجهها الصغير يشعّ غبطة.

Twitter: @ketab_n

واصل الغصن مترنّحاً في صمت. كنت أضغط أنفي على الزجاج، فيُحدث بقعة من الغشاوة.

حين ظهرَت الممرّضة من جديد، انتصبت بقامتي على الفور. الساعة تقارب الخامسة عصراً، ولم يكن بوسعي أن أهدر دقيقة واحدة إن أنا أردتُ الوصول إلى البلديّة قبل موعد إغلاق قسم الأحوال المدنيّة.

نزلتُ أدراج المستشفى وأنا أقلّب صفحات دفتر صغير ذي غلاف جلديّ أحمر، «دفتر العائلة». ذلك الاسم كان يثير فيّ اهتماماً وقوراً، شبيهاً بما أشعر به حيال جميع الأوراق الرسميّة، من شهادات مدرسيّة وسندات مصدّقة وأشجار نسب وسجلّات عقاريّة ومخطوطات وإفادات عن الأصل... الورقتان الأوليان كانتا تتضمّنان شهادة زواجي، مع اسمي وكنيتي، واسم زوجتي وكنيتها. بقي السطران المخصّصان لـ «الوالد» و«الوالدة» فارغين، تفادياً للدخول في تعقيدات أحوالي المدنيّة. فالواقع أنّني أجهل أين ولدت وما كان اسما والديّ تحديداً عند ولادتي. كانت ورقة كحليّة مطويّة طيّتين معلّقة بمَشْبكٍ إلى دفتر العائلة ذاك: وثيقة زواج والديّ. أُدرج والدي فيها باسم

Twitter: @ketab_n

مستعار لأنّ الزواج تمّ أثناء الاحتلال. وكُتب عليها:

الدولة الفرنسيّة
مقاطعة سافوا العليا
بلديّة ميجيف
في 24 فبراير ألف وتسعمائة وأربعة وأربعين، في الساعة
الخامسة والنصف مساءً
مثَل علناً أمامنا في قصر البلديّة:
غي جاسبار دو جونغ
وماريا لويزا ك.
وأعلن الزوجان المقبلان الواحد تلو الآخر رغبتهما في
الاقتران
وأعلنّا باسم القانون زواجهما.

ماذا كان والدي ووالدتي يفعلان في فبراير 1944 في ميجيف؟ سوف أعرف ذلك قريباً، هذا ما قلته لنفسي. وكنية «دو جونغ» تلك التي أرفقها والدي بأوّل اسم مستعار اتّخذه؟ دو جونغ. تلك كانت حقّاً فكرة تليق به.

Twitter: @ketab_n

لمحْتُ سيّارة كورومنديه مركونة على حافّة الجادّة، على مسافة حوالى عشرة أمتار من بوّابة الخروج من المستشفى. كان جالساً خلف المقود، مستغرقاً في قراءة مجلّة. رفع رأسه وابتسم لي.

لاقيته في الليلة السابقة في مطعم ديكوره باسكيّ-بيارنيّ[1] يقع قرب بوّابة باغاتيل، واحد من تلك الأماكن التي ينتهي بنا الأمر فيها حين يطرأ علينا حدثٌ مهمّ، ولا نقصدها على الإطلاق في الظروف الطبيعيّة. كانت ابنتي ولدت في الساعة التاسعة مساء، رأيتها قبل أن يحملونها إلى الحضانة، وقبّلت والدتها التي كانت تغفو. في الخارج، مشيت بدون وجهة، على طول جادّات نويّي المقفرة، تحت مطر خريفيّ. منتصف الليل. كنت آخر شخص يتناول العشاء في ذلك المطعم، حيث كان رجل لا أميّز منه سوى ظهره متّكئاً إلى البار. رنّ الهاتف ورفع نادل البار السمّاعة. ثمّ التفت نحو الرجل:

- اتّصال لك، سيّد كورومنديه.

(1) نسبة إلى منطقة بيارن في البيرينيس الفرنسيّة وبلاد الباسك. (جميع الحواشي وضعتها المترجمة).

Twitter: @ketab_n

كورومنديه... اسم أحد أصدقاء والدي أيّام شبابه، كان يزورنا مراراً في المنزل حين كنت طفلاً. فيما كان يتكلّم على الهاتف، تعرّفت على ذلك الصوت الخفيض العذب، وطريقته تلك في التشديد على حرف الراء. أغلق الخطّ، فنهضت وتوجّهت صوبه.

- جان كورومنديه؟

- نعم.

كان يحدّق بي بدهشة. عرّفته بنفسي، فأطلق صيحة تعجّب. ثمّ قال وعلى وجهه ابتسامة أسى:

- أنت الآن شابّ...

- أجل، أجبته كمن يعتذر، حانياً ظهري.

أعلنت له أنّني صرت أباً منذ بضع ساعات. غمره التأثّر وقدّم لي كأساً للاحتفال بتلك الولادة.

- أمر رائع أن تكون أباً، أليس كذلك؟

- نعم.

خرجنا معاً من المطعم. كان اسمه «ليسبيريا».

عرض عليّ كورومنديه أن يقلّني إلى منزلي في سيّارته، وفتح لي باب سيّارة ريجنس قديمة سوداء. تحدّثنا أثناء

Twitter: @ketab_n

الرحلة عن والدي. لم يكن التقى به منذ عشرين عاماً. أنا نفسي لم تردني أخبار عنه منذ عشر سنوات. كنّا نجهل كلانا ما حلّ به. استذكَر ذات مساء من العام 1942، حين تناول العشاء برفقة والدي في مطعم «ليسبيريا» بالذات... وهنا، في هذا المطعم نفسه، وبعد مضيّ ثلاثين عاماً، علم هذا المساء بولادة «هذه الطفلة الصغيرة»...

- كم أنّ الوقت يمضي بسرعة...

أدمعت عيناه لتلك الخاطرة.

- وهذه الطفلة الصغيرة، هل يمكنني رؤيتها؟

عرضت عليه عندها أن يرافقني في اليوم التالي إلى البلديّة لتسجيل ابنتي في دائرة الأحوال المدنيّة. فرح بهذه الفكرة وتواعدنا على أن نلتقي في تمام الساعة الخامسة عصراً أمام المستشفى.

بدت سيّارته في نور النهار أكثر ترهّلاً من الأمس. حشر المجلّة التي كان يقرأها في أحد جيوب سترته وفتح لي الباب. كان يضع نظّارتين بإطار ضخم، عدستاهما تميلان إلى الزرقة.

- ليس لدينا الكثير من الوقت، بادرتُه بالقول. دائرة

Twitter: @ketab_n

الأحوال المدنيّة تغلق في الخامسة والنصف.

ألقى نظرة إلى ساعته:

- لا تقلق.

كان يقود ببطء وسلاسة.

- هل تجد أنّني تغيّرت كثيراً في عشرين عاماً؟

أغمضت عينيّ لأستعيد الصورة التي كنت أحتفظ بها عنه في تلك الفترة: رجل أشقر متّقد، يمسّد شاربيه باستمرار بسبابته، ويتكلّم بجمل صغيرة متقطّعة، ويضحك كثيراً. كان يرتدي على الدوام بذلات فاتحة اللون. هكذا كان يطفو في ذكريات طفولتي.

- تقدّمت في السنّ، أليس كذلك؟

كان هذا صحيحاً. فوجهه ضمرَ وبشرته اتّخذت صبغة رماديّة. وفقد شعره الأشقر الرائع.

- ليس كثيراً، أجبت.

كان يحرّك مبدّل السرعة ويلفّ المقود بحركات مستفيضة متكاسلة. وإذ انعطف لسلوك جادّة تتقاطع عموديّاً مع شارع المستشفى، دخل المنعطف موسّعاً دائرته، فاصطدمت سيّارته الريجنس القديمة بحافّة

Twitter: @ketab_n

الرصيف. هزّ كتفيه.

– ووالدك؟ أتساءل إن كان لا يزال يشبه ريت باتلر... أتعلم... «ذهب مع الريح»[1]...

– أنا أيضاً يراودني السؤال ذاته.

– أنا أقْدَم أصدقائه... تعارفنا حين كنّا في العاشرة، في حيّ هوتفيل...

كان يقود في وسط الجادّة وكاد يلامس شاحنة. ثمّ شغّل المذياع في حركة تلقائيّة، دون أن يفكّر في الأمر. كان المذيع يتحدّث عن تدهور الوضع الاقتصاديّ الذي يتفاقم برأيه، داعياً إلى القلق. كان يتوقّع أزمة بخطورة أزمة 1929. حملتني أفكاري إلى غرفة النوم البيضاء والزرقاء التي ترقد ابنتي فيها، وإلى غصن شجرة الدلب المترنّح، مداعباً النافذة.

توقّف كورومنديه عند إشارة حمراء. كان ساهماً. تبدّل لون الإشارة ثلاث مرّات على التوالي من غير أن ينطلق

---

(1) *Gone with the wind* أو حسب نسخته الفرنسيّة *Autant en emporte le vent* واحد من أشهر الأفلام الأميركيّة من إخراج فيكتور فليمنغ عام 1939 ومن بطولة فيفيان لي في دور سكارليت أوهارا وكلارك غيبل في دور شخصية ريت باتلر.

Twitter: @ketab_n

بالسيّارة. لم يكن وجهه يعكس أيّ تعبير خلف نظّارتيه ذاتَي العدستين الملوّنتين. سألني أخيراً:

– وابنتك؟ هل تشبهه؟

ماذا عساني أن أجيب؟ لكن ربّما كان هو على علم بما كان والدي ووالدتي يفعلان في ميجيف في فبراير 1944، وكيف جرى زواجهما العجيب. لم أشأ طرح السؤال عليه على الفور، خشية أن أشتّت انتباهه أكثر، فأتسبّب بحادثِ سير.

كنّا نتبع جادّة إينكرمان، متقدّمَين ببطءِ موكب. أشار لي على يميننا إلى مبنًى بلون رمليّ، نوافذه على شكل كوّات، وشرفاته الفسيحة نصف دائريّة.

– هنا سكن والدك شهراً... في الطابق الأخير...

حتّى أنّه احتفل فيه بعيد ميلاده الخامس والعشرين، غير أنّ كورومنديه لم يكن واثقاً تماماً من ذلك. فكلّ المباني التي سكنها والدي كانت واجهاتها متشابهة، على ما قال. تلك كانت الحال. هو لم ينسَ عصر ذلك اليوم من صيف 1937، والسطيحة التي كانت أشعّة الشمس الأخيرة تصبغها بنورها الورديّ الضارب إلى البرتقاليّ. كان

Twitter: @ketab_n

والدي -على ما يبدو- يستقبل زوّاره عارياً تحت مبذل. وضعَ في وسط السطيحة أريكة قديمة وكراسي حديقة.

- وأنا كنت أقدّم المشروب.

تجاوز إشارة حمراء وهو يعبر جادّة بينو، متجنّباً في اللحظة الأخيرة سيّارة كاد يصطدم بها، غير أنّه لم يُبدِ أيّ انفعال. انعطف يساراً، وسلك شارع بورغيس. أين عساه يقود، شارع بورغيس ذاك؟ ألقيت نظرة إلى ساعتي. إنّها الساعة الرابعة وإحدى وخمسون دقيقة من العصر. دائرة الأحوال المدنيّة على وشك الإغلاق. دبّ الذعر في نفسي. ماذا لو رفضوا تسجيل ابنتي في ملفّات البلديّة؟ فتحتُ درج السيّارة، ظنّاً منّي أنّني سأجد فيه خارطة لباريس وضاحيتها.

- هل أنت واثق من أنّك تسير في الاتّجاه الصحيح؟ سألْت كورومينيديه.

- لا أعتقد ذلك.

كا يستعدّ للاستدارة والعودة أدراجه، لكن لا، من الأفضل المضيّ في خطّ مستقيم. انعطفنا في جادّة فيكتور هوغو، ثمّ سلكنا من جديد جادّة إنكرمان. كان

Twitter: @ketab_n

كورومنديه يضغط بأقصى ما أمكنه على دوّاسة البنزين. راحت قطرات من العرق تسيل على صدغيه. كان هو أيضاً يلقي نظرات إلى ساعته. همس لي بصوت سويّ خالٍ من أيّ تعابير:

- أقسم لك يا صديقي أنّنا سنصل في الوقت المناسب.

تجاوز إشارة حمراء جديدة وأغمضت عينيّ. أخذ يقود بسرعة أكبر، مطلقاً بوق السيّارة بضربات متقطّعة خاطفة. كانت سيّارة الريجنس القديمة ترتجّ. وصلنا إلى جادّة رول. وتعطّلت السيّارة أمام الكنيسة.

تركنا الريجنس ومشينا مسرعين في اتّجاه البلديّة، على مسافة مائتي متر على الجادّة. كان كورومنديه يعرج قليلًا، وكنت أتقدّمه. أخذت أجري، وحذا كورومينيديه حذوي، لكنّه كان يجرّ ساقه اليسرى، وسرعان ما تقدّمته بشوط طويل. التفتّ إلى الخلف، فرأيته يلوّح لي مستغيثاً، لكنّني كنت أركض بسرعة متزايدة. أبطأ كورومنديه فاقداً الأمل. وأخذ يمسح جبينه وصدغيه بمحرمة كحليّة. لوّحت إليه بذراعيّ وأنا أتسلّق أدراج البلديّة. تمكّن من اللحاق بي وكان يلهث حتّى أنّه لم يعد بوسعه إصدار

Twitter: @ketab_n

أدنى صوت. أمسكته بمعصمه وعبرنا الردهة حيث كانت لافتة تشير إلى «مكتب الأحوال المدنيّة – الطابق الأوّل، الباب الأيسر». كان كورومنديه شاحباً. ظننت أنّه سيصاب بوعكة قلبيّة وسَندتُه ونحن نصعد الأدراج. دفعت بكتفي باب قسم الأحوال المدنيّة، وأنا أمسك كورومنديه بيديّ لمساعدته على البقاء واقفاً. تعثّر وجرّني معه بكلّ ثقله، فانزلقنا وسقطنا أرضاً على ظهرينا في وسط القاعة. كان موظّفو الأحوال المدنيّة يتأمّلوننا مشدوهين من خلف شبّاك المكتب.

بادرت إلى النهوض وتوجّهت إلى شبّاك الاستقبال وأنا أتنحنح. انهار كورومنديه على مقعد، في عمق القاعة.

كانوا ثلاثة موظّفين. امرأتان ترتديان قميصاً بياقة، خمسينيّتان صارمتا المظهر عصبيّتان، شعرهما رماديّ مقصوص قصيراً، تتشابهان وكأنّهما توأمان، ورجل طويل القامة، له شاربان كثّان لمّاعان.

– نعم؟ سألَت إحدى المرأتين.

كانت تتكلّم بنبرة جفلة وهجوميّة في آن.

– إنّها مسألة تسجيل في الأحوال مدنيّة.

Twitter: @ketab_n

- كان يجدر بك الحضور في وقت أبكر، أجابت المرأة الأخرى بفظاظة.

كان الرجل يحدّق بي مغضّناً عينيه. دخولنا عليهم بهذه الطريقة المباغتة ترك انطباعاً سيّئاً للغاية.

- قل لهم إنّنا نأسف بصدق كثير على هذا التأخير، همس كورومنديه لاهثاً من عمق القاعة.

كان ذلك «الصدق الكثير» يكشف عن أنّ الفرنسيّة لم تكن لغته الأمّ. انضمّ إليّ وهو يعرج. دسّت لنا إحدى المرأتين ورقة من تحت شبّاك المكتب وقالت بلؤم:

- املأ الاستمارة.

نقّبت في جيوبي بحثاً عن قلم حبرٍ، ثمّ التفتّ صوب كورومنديه الذي مدّ لي قلم رصاص.

- لا تستخدم قلم الرصاص، همسّ الرجل ذو الشاربين.

كان الثلاثة واقفين خلف الشبّاك، يراقبوننا بصمت.

- هل لديكم لو سمحتم... قلم حبر؟ سألتهم.

بدا الرجل ذو الشاربين مذهولاً. أمّا التوأمان فكتفتا ذراعيهما فوق صدرهما.

Twitter: @ketab_n

– قلم حبر، أرجوكم، ردّد كورومنديه بصوت ضعيف متشكّ.

مرّر الموظّف ذو الشاربين قلم حبر جافّ أخضر عبر الشبّاك، فشكره كورومنديه. بقيت التوأمان مكتوفتي اليدين، في علامة استهجان.

مدّ لي كورومنديه قلم الحبر وبدأت بملء الاستمارة، مستعيناً بتعليمات «دفتر العائلة». أردت أن أسمّي ابنتي زيناييد، ربّما تكريماً لذكرى امرأة تدعى زيناييد راشفسكي، امرأة رائعة أبهرت طفولتي. كان كورومنديه نهض في تلك الأثناء، وكان يلقي نظرة من فوق كتفي لمراقبة ما أكتب.

حين انتهيت، أخذ كورومنديه الورقة وقرأها، عاقداً حاجبيه. ثمّ مدّها لإحدى التوأمين.

– هذا غير موجود في الجدول الفرنسي، قالت وهي تشير بسبابتها إلى اسم «زيناييد» الذي دوّنته بأحرف عريضة.

– وما المشكل سيّدتي؟ سأل كورومنديه وقد تبدّل صوته بفعل الوجل.

– لا يمكنكما إطلاق هذا الاسم.

Twitter: @ketab_n

قرّبت التوأم الأخرى رأسها من رأس شقيقتها إلى أن تلامس جبيناهما. كنت منهاراً تماماً.

- إذَن ما العمل سيّدتي؟ سأل كورومنديه.

رفعَت سمّاعة الهاتف وطلبت رقمين.

سألَتْ إن كان اسم «زيناييد» مدرجاً على «القائمة». فكان الردّ بالنّفي.

- لا يمكنك إطلاق هذا الاسم.

ترنّحت فاقداً توازني، وقد انعقد حلقي.

اقترب الموظف ذو الشاربين بدوره وتناول الاستمارة.

- بلى آنستي، همس كورومنديه، وكأنّه يكشف سرّاً. يمكننا إطلاق هذا الاسم.

رفع يده ببطء شديد، وكأنّه يعطي مباركته.

- كان ذلك اسم عرّابته.

انحنى الموظف ذو الشاربين وأسند جبينه الأشبه بجبينِ كبشٍ على شبّاك المكتب.

- في هذه الحال أيّها السيّدان، إنّها مسألة خاصّة، والأمر مختلف تماماً.

كان صوته عذباً ناعماً، لا يتناسب إطلاقاً ومظهره.

Twitter: @ketab_n

- بعض الأسماء تنتقل في العائلات، ومهما تكن غريبة، فليس لدينا أيّ مأخذ. على الإطلاق.

كان يتأنّى في لفظ جمله، وكلّ كلمة تخرج من فمه منزلقة كما على الزيت.

- فليكن اسم زيناييد!

- شكراً سيّدي، شكراً!

قام بإشارة استياء موجّهة إلى التوأمين، واستدار ملتفّاً على قدم واحدة بخفّة راقص، قبل أن يتوارى. سمعنا أحدهم يضرب على الآلة الكاتبة في الغرفة الخلفيّة. لم ندرِ تماماً أنا وكورومنديه إن كان يتوجّب علينا الانتظار. راحت التوأمان تفرزان كدسة من الأوراق وهما تتحادثان بصوت منخفض جدّاً.

- الكثير من الولادات سيّدتَيّ اليوم؟ هل كلّ شيء على ما يرام؟ سأل كورومنديه وكأنّه يريد أن يذكّرهما بوجودنا.

لم تجيبا. أشعلْتُ سيجارة، وقدّمت العلبة لكورومنديه، ثمّ للمرأتين.

- سيجارة، سيّدتَيّ؟

Twitter: @ketab_n

لكنّهما تظاهرتا بعدم سماعي.

مدّ الموظّف ذو الشاربين رأسه أخيراً من فتحة باب جانبيّ وقال لنا:

- من هنا أيّها السيّدان.

انتقلنا إلى الجانب الآخر من الشبّاك، حيث يقوم التوأمان والموظّف ذو الشاربين بمهامّهم. أشار لنا بالدخول إلى القاعة الخلفيّة. في هذه الأثناء، واصلت التوأمان توضيب كدسات الأوراق بحركات آليّة.

كانت غرفة صغيرة على شكل زاوية، فيها نافذتان تطلّان على شارع. جدران عارية مطليّة بلون أمغر داكن. ومكتب من الخشب القاتم له أدراج كثيرة، وعلى وسط سطحه سجلّ مفتوح.

- تفضّلوا أيّها السيّدان، أرجو منكما إعادة القراءة والتوقيع.

كان النصّ المطبوع على الآلة الكاتبة خالياً من دون أيّ خطأ مطبعيّ، يوضّح أنّ طفلة تدعى زينايد ولدت في الساعة التاسعة مساء، في 22 أكتوبر من تلك السنة... حوالى عشرة سطور خصّصت لها صفحة كاملة من

Twitter: @ketab_n

السجلّ. وعلى الصفحة التالية، المعلومات ذاتها.

– النسخة أيّها السيّدان.

مدّ لي هذه المرّة قلم حبر ضخماً غطاؤه ذهبيّ.

– هل أعدتما القراءة؟ لم تجدا أخطاء؟ سأل.

– لا أخطاء، أجبته.

– لا أخطاء، ردّد كورومنديه بَعدي.

تناولت قلم الحبر وبخطّ عريض متقطّع، دوّنت ببطء اسمي ولقبي عند أسفل الصفحتين.

ثمّ جاء دور كورومنديه. نزع نظّارتيه الملوّنتي العدستين. كان شريط لاصق يبقي جفن عينه اليمنى مفتوحاً، ويجعله يبدو أشبه بملاكم تائه. وقّع بخطّ يرتجف أكثر من خطّي: جان كورومنديه.

– هل أنت صديق للعائلة؟ سأل الموظّف ذو الشاربين.

– صديق للجدّ.

في يوم من الأيّام، بعد عشرين عاماً، إن دفعَ زيناييدَ الفضولُ لاستشارة هذا السجلّ – لكن ما الذي يمكن أن يبعث فيها مثل هذا الفضول؟ –، فسوف تتساءل عند رؤية هذا التوقيع، مَن يكون جان كورومنديه ذاك.

Twitter: @ketab_n

– انتهينا، كلّ شيء تمام، قال الموظّف ذو الشاربين بدماثة.

كان يحدّق بي بنظرة رقيقة للغاية، شبْه أبويّة. بدا لي حتّى أنّ عينيه كانتا تدمعان قليلاً. مدّ لنا يداً خجولة، فصافحناه الواحد تلو الآخر. أدركت عندها لماذا كان له هذان الشاربان. لولاهما لانهارت ملامحه ولكان فقدَ حتماً كلّ السطوة التي يحتاج إليها موظّفو الأحوال المدنيّة.

فتح باباً وقال لنا بنبرة متواطئة وكأنّه يكشف لنا ممرّاً سرّيّاً: «بوسعكما النزول من هذه السلالم. إلى اللقاء، أيّها السيّدان، وبالتوفيق. بالتوفيق..».

راودنا إحساس غريب ونحن على أدراج مدخل البلديّة. ها أنّنا أنجزنا معاملة مهمّة، وجرى الأمر بكلّ بساطة. بدأ المساء يهبط. صار يلزم إعادة تشغيل سيّارة الريجنس. قصدنا ميكانيكيّاً وجد أنّ السيّارة بحاجة إلى عمليّة إصلاح جديّة، على أن يأتي كورومنديه في اليوم التالي لاستعادتها. قرّرنا العودة إلى باريس مشياً.

كنّا نسير على طول جادّة رول. لم يعد كورومنديه يجرّ ساقه، بل كان يمشي بخطى نشطة. لم يكن ذلك السجلّ

Twitter: @ketab_n

الضخم المفتوح على المكتب يفارق ذهني. هكذا هو إذن سجلّ الأحوال المدنيّة. كان الخاطر ذاته يراودنا كلينا، إذ قال لي كورومنديه:

- أرأيت؟ كم هو غريب، سجلّ الأحوال المدنيّة. أليس كذلك؟

وهو؟ هل تمّ تسجيله في أيّ دائرة للأحوال المدنيّة؟ ما هي جنسيّته الأصل؟ أهو بلجيكيّ؟ ألمانيّ؟ من البلطيق؟ هو بالأحرى روسيّ، على ما أعتقد. ووالدي، قبل أن يدعى «جاسبار» وأن يضيف كنية «دو جونغ» إلى ذلك الاسم؟ ووالدتي؟ وجميع الآخرين؟ وأنا؟ لا بدّ أنّ ثمّة في مكان ما سجلّات اصفرّت أوراقها، فيها أسماؤنا وألقابنا وتواريخ ولادتنا، وأسماء أهلنا وألقابهم، مدوّنة بالريشة، بخطّ تتداخل دوائره وتتشابك. لكن أين عساها تكون تلك السجلّات؟

كان كورومنديه بجانبي يصفّر، خليّ البال. كان جيب معطفه منتفخاً بسبب المجلّة التي كان يقرأها في سيّارته، والتي كان بوسعي رؤية عنوانها، مكتوباً بأحرف حمراء: «مكبّر الصّوت». وددت مرّة جديدة أن أسأله عمّا كان

Twitter: @ketab_n

والدي ووالدتي يفعلانه في ميجيف، في فبراير 1944. لكن هل كان يدري؟ الذكريات، بعد ثلاثين عاماً... وصلنا إلى نهاية جادّة رول. كان الوقت ليلاً، وأوراق الأشجاء اليابسة المبلّلة بالوحل بسبب المطر تلتصق بكعوب الأحذية. بين الحين والآخر، كان كورومنديه يحفّ نعل حذاءيه على طرف الرصيف. كنت أترقّب السيّارات العابرة، بحثاً عن سيّارة أجرة فارغة. لكن لا، من الأفضل في نهاية الأمر إكمال الطريق مشياً.

انعطفنا في جادّة «بورت ديه تيرن»، في ذلك الحيّ الذي شقّوه لإقامة الطريق المحيطيّ. منطقة تقع بين بوّابتي مايّو وشامبيرّيه، انقلبت رأساً على عقب إلى حدّ لم يعد من الممكن معه التعرّف عليها، كأنّما بعد عمليّة قصف.

- جئت إلى هنا ذات يوم مع والدك، قال كورومنديه.

- حقّاً؟

أجل، أقلّه والدي في الماضي إلى هنا في السيّارة. كان يبحث عن ميكانيكيّ يمكن أن يؤمّن له قطعة غيار لسيّارته الفورد. لم يكن يذكر العنوان تماماً، وبقيا لوقت طويل يطوفان في هذا الحيّ الذي بات اليوم مدمّراً بالكامل.

Twitter: @ketab_n

شوارع محفوفة بأشجار تتشابك أغصانها لتشكّل قناطر. ومن الجانبين، مرائب سيّارات وعنابر تبدو مهجورة. ورائحة البنزين النفّاذة. توقّفا أخيراً أمام محلّ يبيع «معدّات أميركيّة». كانت جادّة بورت دو فيلييه بصفوفها الأربعة من أشجار الدلب، أشبه بشارع للمشاة في بلدة صغيرة من الجنوب الغربيّ. جلسا على مقعد في انتظار أن ينجز الميكانيكيّ إصلاح السيّارة. كان كلب حراسة ممدّداً على حافّة الرصيف، نائماً. وكان أطفال يركضون ويطاردون بعضهم البعض الآخر في وسط الجادّة المقفرة، بين بقع الشمس. كان ذلك في ما بعد ظهيرة يوم سبت من شهر أغسطس، بعد الحرب مباشرة. كانا صامتين. كان والدي –على ما يبدو– في مزاج كئيب. أمّا كورومنديه، فكان هو يدرك أنّ شبابهما انتهى.

وصلنا إلى جادّة تيرن، وعاد كورومنديه يعرج. فأمسكت بذراعه. كانت المصابيح تضاء على جادّ غوفيون سان سير. كان ذلك وقت طوابير السيّارات الطويلة، والحشود، والتدافع، لكنّ شيئاً من تلك الجلبة لم يكن ينفذ إلى الحضانة. عاودتني صورة الغصن يتأرجح بسكون،

Twitter: @ketab_n

ملامساً الزجاج.

الواقع أنّنا شاركنا للتوّ في بداية أمرٍ ما. تلك الطفلة الصغيرة سوف تكون إلى حدّ ما مندوبتنا إلى المستقبل. وهي حصلت منذ البداية على ذلك الكنز الغامض الذي لطالما تمنّع على كلينا: سجلّ أحوال مدنيّة.

Twitter: @ketab_n

2

في أيّ فترة عرفْتُ هنري مارينيان؟ آه، لم أكن بلغت العشرين بعد. غالباً ما أفكّر به. يبدو لي أحياناً حتّى أنّه كان واحدة من الشخصيّات العديدة التي تقمّصها والدي. أجهل ما حلّ به. لقاؤنا الأوّل؟ حصل في عمق حانة ضيّقة حمراء مرجانيّة على جادّة كابوسين: حانة «لو ترو دون لو مور»[1]. كنّا آخر زبونين فيها. طلب مارينيان الجالس إلى طاولة بجوار طاولتي، كأساً من «خمر الأرزّ»، وبعدما ذاق منه جرعة، قال للساقي:

– ليس له الطعم ذاته كما في الصين.

سألته عندها بلهفة:

– هل تعرف الصين سيّدي؟

بقينا نتحدّث حتّى الساعة الرابعة من الفجر. عن

(1) *Le Trou Dans le Mur* معناها حرفيّاً: الثقب في الجدار.

Twitter: @ketab_n

الصين بالطبع، حيث أقام مارينيان قبل الحرب. كان لا يزال بوسعه رسم خريطة مفصّلة لشنغهاي على مفرش مائدة، وهو ما فعله في ذلك المساء من أجلي. أردت أن أستفهم إن كان لدى شخص غربيّ في أيّامنا هذه أدنى فرصة لدخول تلك البلاد الأشبه بلغز واستكشافها بحريّة تامّة. تردّد قليلاً قبل أن يقول بصوت وقور:

- أعتقد أنّ هذا ممكن.

كان يتفرّس فيّ.

- هل تقبل أن نجرّب حظّنا معاً؟

- بالتأكيد، أجبته.

ابتداءً من تلك اللحظة، صرنا نلتقي يوميّاً.

كان مارينيان تخطّى الستّين، لكنّه يبدو أصغر سنّاً بعشرين عاماً. كان طويل القامة، مربوع الكتفين، شعره مقصوص قصيراً ومنتصب على رأسه. ملامح وجهه لا يظهر عليها أيّ ترهّل. لفتني الاتّساق في خطوط قوسي حاجبيه وأنفه وذقنه. أمّا عيناه الزرقاوان، فتعصف بهما بين الحين والآخر هبّات اضطراب جزِع. كان يرتدي على الدوام بذلات لها سترات متقاطعة الصدر، ويظهر ميلاً

Twitter: @ketab_n

جليّاً إلى الأحذية ذاتِ نعلِ «الكريب» الشديد اللّيونة، الذي يعطيه مشيةً مطّاطة.

عرفت بعد وقت مع أيّ شخص كنت أتعامل. لم يأتِ ذلك عن طريقه هو، لأنّه لم يكن يتكلّم عن ماضيه إلّا حين أطرح عليه أسئلة.

وعليه، ففي سنّ السادسة عشرة، أرسلته وكالة صحافة إلى شنغهاي. هناك أسّس صحيفة تصدر بطبعتين، واحدة فرنسيّة والأخرى صينيّة. استعانوا به بصفته مستشاراً في وزارة الاتّصالات في حكومة تشانغ كاي تشك، وسرت شائعات مفادها أنّ السيّدة تشانغ كاي تشك فُتِنت بهنري مارينيان. فبقي في الصين سبع سنوات.

لدى عودته إلى فرنسا، أصدر كتاب مذكّرات بعنوان «شنغهاي الضائعة»، يمكنني أن أتلو منه صفحات كاملة. وصف فيه صين الثلاثينيّات، بالجنرالات الحقيقيّين والزائفين التي كانت تغصّ بهم، بصيرفيّيها، ومواكبها الجنائزيّة التي تعبر الشوارع عازفةً «تعالي فتاتي»[1]،

(1) *Viens Poupoule* أغنية للمغنّي الفرنسي فيليكس مايول Félix Mayol تعود إلى العام 1826 بنى عليها شهرته وثروته. وتمّ تحوير هذه الأغنية لإنشادها في الصين.

Twitter: @ketab_n

ومغنيّاتها فتيات الثالثة عشرة بأصواتهنّ الحادّة الزاعقة وجواربهنّ الورديّة المزيّنة بأشرطة صفراء عريضة معقودة، بروائح الأفيون والعفن المنتشرة فيها، وليلها الرطب الذي يكسو الأحذية والملابس بالفطر. يؤدّي في ذلك الكتاب تكريماً مؤثّراً ملؤه الحنين لشانغهاي، مدينة شبابه. في السنوات التي تلت، مدفوعاً بميله إلى المكائد والمؤامرات، خالط «الألوية الدوليّة»[1] وأعضاء في «المنظّمة السريّة للعمل الثوريّ الوطنيّ»[2] في آن.

بين 1940 و1945، قام بـ «مهمّات» محاطة بالسريّة بين باريس وفيشي ولشبونة. ثمّ في أبريل 1945، اختفى بنظر الأحوال المدنيّة في برلين. ذلك كان هنري مارينيان.

كنت أذهب لاصطحابه من جادّة نيويورك، الرقم 52

---

(1) «الألوية الدوليّة» Brigades internationals هي وحدات عسكريّة من المتطوّعين الأجانب قاتلت في الحرب الأهليّة الإسبانيّة (1936–1939) إلى جانب الجمهوريّين ضدّ المتمرّدين القوميّين الفرانكيين.

(2) La Cagoule أو «القناع» هو الاسم الذي أطلقته الصحافة على «المنظّمة السريّة للعمل الثوري الوطني» Organisation secrète d'action révolutionnaire nationale وهي مجموعة من اليمين المتطرف نشطت في الثلاثينيّات في فرنسا معتمدة أساليب الإرهاب. كانت ذات توجّه فاشيّ وقد ساندت الجنرال فرانكو في إسبانيا.

Twitter: @ketab_n

على ما أعتقد، في واحد من المباني الأخيرة قبل حدائق التروكاديرو. كانت تلك شقّة سيّدة تدعى «جنفييف كاتلان»، امرأة شقراء، في غاية الرقيّ والرهافة، في عينيها بريق الزمرّد. جالسة معه على أريكة الصالون، كانت تقول له حين أدخل:

– ها هو السيّد موديانو، شريك مغامراتك.

طلب منّي مرّات عديدة أن أوافيه في جادّة نيويورك قرابة العاشرة مساء. وفي كلّ مرّة، كنت أجد الصالون يغصّ بالزوّار، كأنّ ثمّة سهرة أو حفل كوكتيل. كانت جنفييف كاتلان تجول بين المجموعات، فيما مارينيان يبقى على حدة. وما إن يراني، حتّى يتوجّه صوبي، بصدره المنتصب المتشنّج ومشيته المتوثّبة، ويقول لي: «تعال نخرج في نزهة».

كنّا نهيم عبر باريس على غيرِ هدىً. ذات مساء، عرّفني على الحيّ الصيني في منطقة محطّة غار دو ليون، قرب جادّة دومينيل. حلّ العرب محلّ الصينيّين، لكن بقي هناك عند ممرّ غاتبوا فندق تعلوه لافتة «التنّين الأحمر». وطابقه الأرضيّ يحتلّه مطعم «صينيّ». صعدنا إلى الطابق الأوّل.

Twitter: @ketab_n

قاعة شاسعة جدرانها مكسوّة بمخمل أحمر بلون العقيق مبطّن، يتدلّى خرقاً ممزّقة في بعض الأماكن. كان مصباح يضي النوافذ الثلاث ذات الزجاج القذر والأرضيّة المائلة إلى الرماديّ والتي تنقصها بعض الألواح الخشبيّة. في إحدى الزوايا، كومة من الكراسي المكدّسة الواحدة فوق الأخرى، وحقيبة سفر، وصوان قديم. كانت القاعة تستخدم لتخزين المهملات.

- هذا المكان يتداعى، قال مارينيان متنهّداً.

شرح لي أنّه خلال الاحتلال، كان ذلك الموقع الوحيد في باريس لتعاطي الأفيون. قصده ذات مساء مع الممثّلة لويزا فيريدا.

أحياناً كنّا نقوم بجولة وصولاً إلى سينما «لا باغود»[1] في شارع بابيلون، أو نتوقّف أمام تلك الدارة الصينيّة الكبيرة في شارع كورسيل، حيث تشير لوحة إلى أنّ سيّداً يدعى فرنان بلوك شيّدها عام 1928 [2]. كنّا نجول في صالات

(1) La Pagode هو اسم مسرح وصالة سينما للأفلام المستقلّة، في مبنى مشيّد على طراز باغودا أو معبد بوذيّ في الدائرة السابعة من باريس.

(2) «دارة لو» La Maison Loo أو «الباغودا» La Pagode أسّسها تاجر تحف صينيّ يدعى تشينغ تساي لو، قدم إلى باريس وحقّق ثروته فيها، =

Twitter: @ketab_n

متحفَي غيميه وسيرنوشي[1]، ونذهب حتّى في نزهة في غابة بولونيا[2]، في حدائق السيّد ألبير كان الآسيويّة[3]. كان مارينيان سارحاً في أفكاره.

كنت أرافقه بعد ذلك في طريق العودة إلى جادّة نيويورك، وأنا أحاول كشف الصلة التي تربطه بجنفييف كاتلان تلك الغامضة.

- قصة حبّ قديمة جدّاً جدّاً، أسرّ لي ذات مساء. تعود إلى زمن كان لا يزال لديّ سجلّ أحوال مدنيّة، ولم أكن تحوّلت بعد إلى طيف، كما أنا عليه اليوم. أنت تعرف أنّني توفّيت في العام 1945، أليس كذلك؟»

كيف تدبّر أمرة حتّى يستمرّ من غير أن يتمّ التعرّف

= من تصميم المهندس فرنان بلوك، وهي لا تزال حتى اليوم متحفاً خاصّاً يشكّل، طبقاً لرغبة مؤسّس المبنى، همزة وصل بين الصين وفرنسا.

(1) على التوالي متحف غيميه Musée Guimet أو المتحف الوطني الفرنسي للفنون الآسيويّة، ومتحف سيرنوشي Musée Cernuschi وهو متحف باريسيّ مخصّص للفنون الآسيويّة.

(2) Boulogne أو Boulogne-Billancourt منطقة في ضاحية باريس الغربيّة.

(3) متحف وحدائق أسّسها ألبير كان الذي جمع نماذج حدائق من أصقاع العالم منها حديقة على الطراز الياباني، وحديقة على الطراز الإنكليزي، وحديقة ورود، وبستان فاكهة... على صورة عالم متناغم كان يحلم به.

Twitter: @ketab_n

إليه؟ شرح لي أنّ ملامح الوجه تتغيّر اعتباراً من سنّ الأربعين، وأنّه كسب بعض المال من كتابة قصص للأطفال باسم مستعار هو «العمّ روني». كان يؤلّف القصص بالإنكليزيّة، وكانت سلسلة «قصص العمّ روني» تباع في بريطانيا وحتّى في الولايات المتحدة. ثمّ إنّه كان يقوم ببعض أعمال السمسرة بالتحف الفنيّة.

لكنّ مشروع الرحيل إلى الصين كان يشغل فكره. فيسألني فجأة في وسط الشارع:

- هل تعتقد أنّك ستحتمل المناخ؟

أو:

- هل أنت على استعداد لقضاء سنة كاملة هناك؟

أو: أيضاً

- باتريك، هل أنّك ملقّح ضدّ الخانوق؟

كشف لي أخيراً خطّته. فهو كان يجمع منذ عدّة سنوات قصاصات صحف ومجلّات، صوراً للوزير تشو إن لاي[1] والمحيطين به، بمناسبة مآدب دبلوماسية

(1) تشو إن لاي Chou En-Lai أوّل رئيس وزراء لجمهوريّة الصين الشعبيّة اعتباراً من 1945 وحتّى وفاته عام 1976 إبّان حكم ماو تسي تونغ. كما تولّى حقيبة الخارجيّة بين 1949 و1958.

Twitter: @ketab_n

أو مراسم استقبال شخصيّات أجنبيّة. حتّى أنّه شاهد مراراً وتكراراً أشرطة إخباريّة صُوّرت أثناء زيارة رئيس الولايات المتحدة للصين. كان الرجل نفسه يظهر على الدوام إلى يسار تشو إن لاي، واقفاً مبتسماً بقربه حتّى أنّه يكاد يلامسه بكتفه. كان مارينيان واثقاً من أنّه عرف ذلك الرجل في ما مضى في شنغهاي.

كان يتكلّم بنبر متسارع، سارحاً بنظره، وكأنّه يحاول استعادة مشهد عالم مندثر. في منطقة الامتياز الفرنسي بشنغهاي، كان هناك مطعم يدعى مطعم كاتشنكو على جادّة جوفر. طاولاته مفروشة بشراشف زرقاء سماويّة، وفوق كلّ منها مصباح صغير يعلوه غطاء أخضر. غالباً ما كان يقصده قنصل فرنسا. وكذلك كينيث كامينز، أثرى صيارفة شنغهاي. ينزل الواحد بضع درجات فيصل إلى ميدان الرقص. الفرقة الموسيقيّة تعزف أثناء العشاء موسيقى عذبة. الموسيقيّون جميعهم أوروبيّون، باستثناء عازف البيانو، فهو صينيّ لا توحي ملامحه بأنّه تخطّى الثامنة عشرة. هو تحديداً الذي يظهر إلى جانب تشو إن لاي، كان مارينيان سيُقسم على ذلك. في ذلك الزمن، كان

Twitter: @ketab_n

يدعى روجيه فو سينغ. وكان يتكلّم الفرنسيّة بطلاقة، إذ درس في مدرسة الآباء اليسوعيّين. كان مارينيان يعتبره أقرب أصدقائه. كان روجيه فو يعمل في الصحيفة، حيث يكتب مقالات باللغة الصينيّة أو يقوم بمهامّ مترجم. وكان يعزف في فرقة كاتشنكو حتّى منتصف الليل، فيأتي مارينيان ويصطحبه كلّ مساء. كان فو في الخامسة والعشرين من العمر، وكان شابّاً شديد الدّماثة. كان يحبّ التسكّع والسهر. ليالي فندق كازانوفا في جادّة إدوارد السابع وفندق الريتز في شارع تشو باو سان، بين الراقصات الصينيّات اللواتي يجالسن الروّاد وروسيّات «هارْبين»[1] من معارضي الثورة البولشفيّة... وفي كلّ مرّة، كان فو سينغ يجلس في نهاية المطاف أمام البيانو ويبدأ بعزف لحن لكول بورتر. كان فو تجسيداً لشانغهاي في ذلك الزمن.

كان لا بدّ من معاودة الاتّصال به مهما كلّف الأمر،

(1) إحدى مدن الصين الرئيسيّة تقع في منشوريا شمال البلاد. كان لروسيا نفوذ فيها وكانت تضمّ جالية من معارضي الثورة الروسية (كانوا يُدعون «الروس البيض») قبل أن يُحكم جيش التحرير الشعبيّ الصينيّ سيطرته عليها عام 1946.

Twitter: @ketab_n

بعدما بات مقرّباً من تشو إن لاي. كانت الفكرة تراود مارينيان منذ سنوات، لكنّ صعوبة المشروع تجعله في كلّ مرّة يتخلّى عنه سريعاً. كان سعيداً بلقائه «شابّاً» من نوعي يمكن أن يحفّزه. الواقع أنّني اعتدت الاستماع إلى الناس، مشاطرتهم أحلامهم وتشجيعهم في مشاريعهم الطموحة.

انقضت بضعة أسابيع، واصل مارينيان خلالها إجراء اتّصالات هاتفيّة من المقاهي التي كنّا نلتقي فيها. لم يكن يقول لي شيئاً، وحين أتجرّأ على طرح سؤال عليه، يردّد في كلّ مرّة الجواب ذاته: «سوف نجد الرّابط».

وفي عصر أحد الأيّام، طلب منّي أن أحضر إلى رصيف نيويورك. فتح لي بنفسه باب الشقّة وقادني إلى الصالون. كنّا وحيدين في وسط القاعة البيضاء الفسيحة بواجهاتها الزجاجيّة الأربع المطلّة على نهر السين. كانت آنية الأزهار منتشرة أكثر من العادة. باقات من السحلبيّة والورود والسوسن، وفي عمق الدار، شجرة برتقال صغيرة.

مدّ لي إحدى السجائر الذهبيّة الطرف التي كانت جنفييف كاتلان تدخّنها، وعرض لي الوضع. لم يكن هناك بحسب قوله سوى وسيط واحد يمكن أن يعيد التواصل

Twitter: @ketab_n

مع روجيه فو سينغ، ألا وهو سفارة الصين الشعبيّة في باريس. يكفي أن يلتقي بأحد أعضاء السفارة، مهما يكن متدنّي المرتبة، وأن يكشف له عن مشروعه بصراحة تامّة. كان مارينيان يعتقد أنّ معرفته المقبولة نوعاً ما للغة الصينيّة سوف تخدم قضيّتنا. لكن الواقع أنّه كان من الصعب للغاية الدخول في تواصل مع الطاقم الدبلوماسي في جادّة جورج الخامس. كان هناك بالتأكيد صلات قائمة بين فرنسا والصين، ومجموعات رسمية، ورابطة فرنسيّة صينيّة. لكن كيف السبيل لاختراق هذه الأوساط؟ عندها خطر له جورج وو-هو، فتى رهيف الذكاء يتكيّف مع المواقف، كان يعمل في شبابها في مصرفي شنغهاي كوميرشل وسيفينغ بنك، ومكّنه من الحصول على موارد من عدّة مموّلين من أجل تأسيس صحيفته. انتقل وو-هو منذ ثلاثين عاماً للإقامة في باريس حيث كان يعمل في تجارة الألماس.

كنّا في انتظاره.

انزلق صوبنا، وكأنّه يتزحلق على زلّاجات خفيّة. قدّمه لي مارينيان، وبادرني وو-هو بابتسامة عريضة شقّت وجهه حتّى الصدغين. وبالرغم من أنّه كان قصير

Twitter: @ketab_n

القامة جسيماً، فهو كان يبدو في غاية الرشاقة. كان وجهه مستديراً عريضاً، وشعره الفضيّ مسرّحاً إلى الخلف. وكان يرتدي بذلة رماديّة داكنة مخطّطة من صنع فاخر. جلس على الأريكة وهو يفرك يديه المقلّمتي الأظافر.

- إذن توتو؟ باشر الحديث مخاطباً مارينيان.

تنحنح الأخير.

- ما أخبارك توتو؟ قال بصوت رخيم.

أخبره مارينيان بدون مقدّمات أنّنا كنّا نخطّط لرحلة إلى الصين وأنّ من الضروريّ أن ندخل بأسرع ما يمكن في اتّصال مع سفارة الصين الشعبيّة. فهل لديه «قنوات»؟

قهقه بالضحك حتّى أنّ طرفَي فمه كادا يلامسان جبينه.

- ألهذا السبب استدعيتني؟

أخرج سيجارة من علبة جلديّة عاد وأغلقها بحركة عصبيّة. ثمّ استراح في عمق الأريكة. جالساً هناك قبالتنا، نضراً وسميناً، بدا وكأنّه خارج للتوّ من حمّام معطّر. ولتكتمل الصورة، كان يفوح منه عطر بنهاليغون[1].

اتّخذ فجأة نبرة رصينة، عاقداً حاجبيه.

---

(1) Penhaligon's دار عطور بريطانيّة فاخرة موجّهة بصورة خاصّة للرجال.

Twitter: @ketab_n

- حسناً توتو، أجل لديّ معارف في سفارة الصين الشعبية. لكن... لكن... - وكان يترك جملته معلّقة، كأنّما لتشويقنا - لكن سيكون من الصعب أن أكلّمهم عنك...

وجدت من المدهش ألّا يأتي مارينيان إطلاقاً على ذكر روجيه فو سينغ، لكن لا بدّ أنّه كان له أسبابه.

- يكفي أن أقابل أيّ مساعد سكرتير صغير، قال مارينيان.

لم يكن وو-هو يبتلع دخان سيجارته، بل ينفثه دفعة واحدة. وعند كلّ نفثة، كانت سحابة كثيفة تحجب وجهه.

- بالطبع، قال. لكن المسألة هي أنّ الصين الشعبيّة لا تمتّ بصلة إلى الصين التي عرفناها. هل تفهم ذلك توتو صديقي؟

- أجل... أجاب مارينيان.

- إنّني على ارتباط بملحق تجاريّ، قال وو-هو، محوّلاً نظره صوب النوافذ وعمق الغرفة، وكأنّه يتابع فراشة تطير. لكن ما الذي يجعلك تريد العودة إلى هناك؟

Twitter: @ketab_n

لم يجب مارينيان.

- لن تجد شيئاً ممّا عرفتَه، توتو صديقي.

كانت العتمة تتسلّل شيئاً فشيئاً إلى القاعة من غير أن يشعل مارينيان الأضواء. صمت كلاهما. كان جورج وو-هو مغمض العينين. وكانت تجعيدة تعترض خدّ مارينيان الأيمن. صوت باب ينغلق. ثمّ خيال فاتح اللون. جنفييف كاتلان.

- لماذا أنتم جالسون في العتمة؟ سألَت.

انتفض وو-هو واقفاً وقبّل يدها.

- جورج وو... يا لها من مفاجأة سارّة...

رافقْنا وو إلى محطّة لسيّارات الأجرة على جادّة بينا.

- سوف أتّصل بكما، قال. تسلّحا بالصبر. الكثير من الصبر.

كان يتملكّنا، أنا ومارينيان، الانطباع بأنّنا قد قمنا بخطوة حاسمة.

*

كنّا ننتظر اتّصالات جورج وو-هو في الشقّة على جادّة

Twitter: @ketab_n

نيويورك، في غرفة مارينيان. نصل إلى الغرفة بعد تسلّق سلالم قصيرة تنطلق من ردهة الشقّة. على المنضدة الليليّة، صورة لجنفييف كاتلان في العشرين، وجهها نضر أملس ونظرتها أكثر إشراقاً من العادة. كانت تعتمر خوذة طيّار تنسدل منها خصلة شعر شقراء. شرح لي مارينيان أنّها في ما مضى حطّمت أرقاماً قياسيّة عالميّة في «طائرات مترهّلة قديمة عصيّة على القيادة». كنت مغرماً بها.

كان جورج وو-هو يتّصل قرابة المساء، لكنّ ذلك يمكن أن يحصل في السابعة كما في العاشرة. وللتمويه على لهفتنا وتوتّرنا، كان مارينيان يملي عليّ ملاحظات، وهو يتصفّح دليلاً قديماً للهاتف من شنغهاي.

س. ت. وانغ، 90 شارع الأميرال كوربيه، 09 12 14

كنيس «بيت إيل»، 24 شارع فوتشو

د. هارديفيليز، 2 شارع بابلينغ ويل، 07 09 01

فينوس، 3 شارع سيتشوين، 10 41 62

دوكسيون دو روفيه، 10 شارع تشنغ وو تسينغ، 01 41 28

مؤسّسة ساسون، سوتشو كريك، 78 20 11

متاجر سانسير الكبرى، شارع نانكينغ، 40 33 17

Twitter: @ketab_n

رنين هزيل. لم نكن نردّ قبل أن نتثبّت من أنّه فعلاً رنين الهاتف. فكان مارينيان يرفع السمّاعة، وأنا أتناول قطعة الأذن. وفي كلّ مرّة، يتبادلان الحوار ذاته:

– آلو، جورج وو؟ يسأل مارينيان بصوتٍ خالٍ من أيّ تعبير.

– كيف حالك هنري؟

– بخير، وأنت؟

– ممتاز.

بضع ثوانٍ من الصمت.

– هل من جديد وو؟ يسأل مارينيان مفتعلاً نبرة مرحة.

– إنّني بصدد إجراء اتّصالات.

– والنتيجة؟

– القضيّة تتبع مجراها، توتو صديقي. قليلاً من الصبر.

– إلى متى جورج؟

– سوف أعاود الاتّصال بك. إلى اللقاء هنري.

– إلى اللقاء، وو.

ويغلق السمّاعة. وفي كلّ مرّة تكون خيبتنا كبيرة.

من الصالون الفسيح تردنا همهمة أحاديث. كان هناك

Twitter: @ketab_n

زوّار كالعادة. تومئ جنفييف كاتلان لنا، فنتقدّم صوبها عبر مجموعات الضيوف الصغيرة من غير أن نكلّم أحداً. ثمّ ترافقنا إلى الباب.

- أراك لاحقاً هنري، تقول لمارينيان. لا تتأخّر كثيراً في العودة.

واقفة عند عتبة الباب، بشعرها الأشقر، كانت تبعث كهرباء غامضة تجد وقعاً في نفسي.

كان الليل لا يزال في أوّله. غالباً ما كنّا نلاقي جورج وو-هو، فنذهب لتناول العشاء معاً في «لا كالافادوس»، مطعم مفعم بالحنين على جادّة بيار بروميبه دو سيربي، حيث نبقى برفقته حتّى الساعة الثانية صباحاً. كان ذلك اختباراً لأعصابنا، نخرج منه في حالة من التوتّر. الواقع أنّه لم يكن هناك جدوى من طرح سؤال مباشر عليه حول الاتّصالات التي أجراها أو لم يُجرها من أجلنا في السفارة. فهو كان يتفادى الإجابة، محوّلاً الحديث أو مدلياً بتعليقات تبقى في إطار العموميّات، من نوع «السفارات أشبه بالأرانب البريّة. لا بدّ من الاقتراب منها ببطء لعدم إثارة هلعها، أليس كذلك يا توتو؟» وترتسم على وجهه

Twitter: @ketab_n

ابتسامته العريضة. لم يفاتحه مارينيان مرّة بشكل مباشر، بل كان يعمد إلى تلميحات طفيفة وجمل اعتراضيّة مبطّنة. وكان جورج وو-هو يتملّص منها الواحدة تلو الأخرى. وفي نهاية المطاف، يسأله مارينيان وقد عيل صبره : «هل تعتقد أنّه سيكون بوسعنا رغم كلّ شيء مقابلة أحد رجال السفارة؟»، فيردّ وو-هو في كلّ مرّة: «تعرف جيّداً عزيزي توتو أنّ الصين تلزم بصبر طويل، وأنّه ينبغي للواحد أن يستحقّها». ويأخذ بعدها مجّة من سيجارته ينفثها على الفور، فيتوارى وجهه خلف حجاب من الدخان.

وقبل أن يفارقنا، يقول:

- سوف أتّصل بكما غداً. ربّما يكون لديّ جديد. إلى اللّقاء.

بعد ذلك، كنّا نشرب أنا ومارينيان كأساً أخيرة في صالة «لا كالافادوس» التي باتت مقفرة، علّها تعيد لنا بعض الأمل والشجاعة. ما ستكون ردّ فعل روجيه فو سينغ حين يعلم أنّ صديقه القديم هنري من «صحيفة شنغهاي» يريد أن يراه من جديد؟ لا يمكن أن يكون نسي. هذا مستحيل.

Twitter: @ketab_n

قريباً سوف يقوم رابط بين فرنسا والصين عبر الكيلومترات والسنين. لكن لا بدّ أنّ وو-هو كان على حقّ، من الأفضل عدم التسرّع. قفد ينقطع عندها ذلك الخيط الرقيق.

بعد العودة إلى جادّة نيويورك، كان مارينيان يصافحني أمام بوّابة المبنى.

- لا تتلفّظ بكلمة حول قصّة الصين هذه أمام جنفييف، اتّفقنا يا صديقي؟ إنّني أعتمد عليك. أراك غداً. ولا تخف، فالهدف بات قريباً.

كنت أعود إلى غرفتي الصغيرة في ساحة غريزيفودان. وأتّكئ إلى النافذة. ما الذي يجعل مارينيان يرغب في الرحيل إلى الصين؟ ربّما على أمل استعادة شبابه هناك، أقول لنفسي. وأنا؟ كان ذلك الطرف الآخر من العالم. كنت أُقنع نفسي بأنّني سأجد هناك جذوري، وبيتي، وأرضي، وكلّ هذه الأمور التي أفتقر إليها.

كان الهاتف يرنّ، وخلافاً لوعد وسيطنا، لم يكن هناك قطّ أيّ جديد. صرنا نقضي أيّامنا ننتظر في أحد المقاهي على جادّة نيويورك، بالقرب من المبنى. كان جورج وو-

Twitter: @ketab_n

هو يلاقينا هناك.

كان مارينيان يتناول أقداحاً من المشروب الحلو الواحد تلو الآخر، وانجررت إلى تقليده في ذلك. كان يبدو بالرغم من سنواته الستّين أكثر صموداً منّي بكثير. كانت جذوره تعود بنصفها إلى بريْ وبنصفها الآخر إلى بوس[1]، واحتفظ مظهره بشيء من البلادة والمتانة اللتين يتّسم بهما الفلّاحون. باستثناء نظرته بالطبع، التي كانت تكشف عن ترهّل داخليّ.

كان يكلّمني عن حقول أزهار اللوتس في سوتشو. سوف نبحر في الصباح الباكر في مركب عبر البحيرة ونشاهد أزهار اللوتس تتفتّح مع طلوع الشمس.

كانت الأيّام تتعاقب وتنقضي. لم نعد نغادر ذلك المقهى. وكنّا نستسلم لشعور بالقهر. كنّا لا نزال نعيش لحظات من الأمل والجذل، يعترينا فيها اليقين بأنّنا سوف نرحل. لكنّ الفصول كانت تتبدّل. وبعد فترة قصيرة، لم يعد حولنا هناك سوى ضباب طريّ، يعبره خيال جورج وو، خيال يزداد غشاوة.

(1) بري Brie منطقة إلى شرق باريس تعرف بالزراعة وتربية المواشي. وبوس Beauce منطقة زراعيّة إلى جنوب غرب باريس.

Twitter: @ketab_n

3

يشكّل شارع ليون فودواييه مع بعض الشوارع الأخرى الضيّقة المشابهة كلّها له، جيباً غير واضح المعالم بين دائرتين من باريس. إلى اليمين تبدأ الدائرة السابعة الأرستقراطيّة، وإلى اليسار هناك حيّ غرونيل، والمدرسة العسكريّة، وفي ما مضى جلبة حانات الجنود على جادّة لا موت بيكيه.

سكنت جدّتي شارع ليون فودواييه ذاك. في أيّ فترة؟ خلال الثلاثينيّات على ما أعتقد. في أيّ رقم؟ لا أدري، غير أنّ جميع المباني في شارع ليون فودواييه شُيّدت على الطراز ذاته قرابة العام 1900، بحيث أنّ المداخل ذاتها، والنوافذ ذاتها، والطوابق المدعّمة الناتئة ذاتها، ترتصف على جانبيه لتشكّل واجهة واحدة رتيبة من أوّل الشارع

Twitter: @ketab_n

حتّى آخره. وفي فسحة الأفق في نهاية الشارع، يلوح برج إيفل. على أوّل مبنى إلى اليمين علّقت لوحة كتب عليها: «أملاك أثرياء المستقبل». ربّما كانت تقطن هناك. لا أكاد أعرف عنها شيئاً. لا أعرف وجهها، لأنّ كلّ الصور، على افتراض أنّه كان هناك صور، اختفت. كانت ابنة نجّاد من فيلادلفيا. أمّا جدّي، فقضى طفولته وقسماً من شبابه في الإسكندريّة، قبل أن يرحل إلى فنزويلا. بأيّ صدفة التقيا في باريس، وكيف انتهت بها الظروف في أواخر حياتها في شارع ليون فودواييه؟

تبعْتُ بدوري الطريق الذي كانت تسلكه حتماً للعودة إلى منزلها. كان ذلك في ما بعد ظهيرة يوم مشمس من شهر أكتوبر. ذرعت كلّ شوارع الجوار: شارع سيزار فرانك، شارع ألبير دو لاباران، شارع جوزيه ماريا دي إيريديا... في أيّ محلّات كانت تتبضّع عادة؟ ثمّة محلّ بقالة في شارع سيزار فرانك. هل كان قائماً في ذلك الحين؟ وفي شارع فالنتان هوْي، ثمّة مطعم قديم ما زالت واجهته الزجاجيّة تحمل عبارة «نبيذ وكحول» مكتوبة على شكل قوس. هل اصطحبها ابناها إليه ذات مساء؟

Twitter: @ketab_n

سلكْتُ شارع ليون فودواييه، قادماً أوّلاً من جادّة ساكس، ثمّ من شارع بيرينيون، فتوقّفت أمام مدخل كلّ من المباني. في مطلع الأدراج، مصاعد كلّها متشابهة، أحدها هو المصعد الذي كانت تستقلّه. عرفَتْ أوقاتاً هادئة مثل ذلك العصر، حين كانت تعود إلى منزلها تحت الشمس ذاتها، وعلى طول الرصيف ذاته. وكان الناس غافلين عن الحرب القادمة.

عند زاوية جادّة ساكس، ألقيت نظرة أخيرة إلى شارع ليون فودواييه. شارع بدون أيّ رونق خاصّ، بدون أشجار، شبيه بعشرات الشوارع الأخرى عند أطراف أحياء باريس البورجوازيّة. على مقربة، على جادّة ساكس، دخلْتُ مكتبة قديمة. هل كانت تقصدها أحياناً لشراء رواية؟ قطعاً لا، فقد قالت لي صاحبة المكتبة إنّها هناك منذ خمسة عشر عاماً فقط، وإنّ صانعة قبّعات كانت تشغل المحلّ من قبل. فالمحلّات يتبدّل أصحابها. تلك هي حال التجارة. وفي نهاية الأمر، لا نعود نعرف تماماً المواقع التي كانت تحتلّها الأشياء في ما مضى. هكذا، في العام 1917، حين كانت المدافع الألمانيّة الضخمة تهدّد

Twitter: @ketab_n

باريس، اقتادت جدّتي أولادها إلى ناحية إنغان، عند قريب لها يدعى جيمس ليفي. حضروا ذات يوم لاقتياده، ولم يره أحد بعد ذلك. بعثت جدّتي رسائل إلى جهاز الأمن وإلى وزارة القوّات المسلّحة، بلا جدوى. فاستنتجت أنّهم أعدموا جيمس ليفي رمياً بالرصاص من باب الخطأ، ظنّاً أنّه جاسوس ألمانيّ.

أردت أنا أيضاً أن أعرف المزيد، لكنّني لم أجد حتّى اليوم أيّ أثر، أيّ إثبات على أنّ جيمس ليفي مرّ بهذا العالم. حتّى أنّني راجعت محفوظات في بلديّة إنغان. لكن أكان ذلك فعلاً في ناحية إنغان؟

Twitter: @ketab_n

4

كانت والدتي في الثامنة عشرة من العمر حين بدأت العمل في المجال السينمائيّ في مسقط رأسها أنتفيربن[1]. كانت حتّى ذلك الحين تعمل في شركة الغاز، وتابعت دروساً في الإلقاء، لكن حين شُيِّد استديو في شارع بيكيسترات بمبادرة من شخص يدعى يان فاندرهايدن، تقدّمت إلى هناك وتمّ توظيفها.

وسرعان ما تشكّل فريق حول فاندرهايدن الذي استخدم على الدوام الممثّلين والفنيّين ذاتهم بلا تغيير. كان يهتمّ بالإنتاج والإخراج في آن، ويصوّر أفلامه في مهلة قياسيّة. كان أستديو شارع بيكيسترات أشبه بخليّة نحل

(1) Antwerpen أو Anvers بالفرنسيّة، مدينة في المنطقة الفلاماندية من بلجيكا.

Twitter: @ketab_n

حقيقيّة، حتّى أنّ الصحافيّين أطلقوا عليه لقب «هوليوود أنتفيربن».

كانت والدتي البطلة الشابّة لأربعة من أفلام فاندرهايدن. الفيلمان الأوّلان، «ذلك الرجل ملاك» و«يانسنس ضدّ بيترز»، صوّرهما خلال العام 1939. أمّا الفيلمان الآخران، «مصالحة يانسنس وبيترز» و«بالتوفيق، مونيك»، ففي العام 1941. ثلاثة من هذه الأفلام كانت أفلاماً كوميديّة شعبيّة محليّة من وحي أنتفيربن، جعلت من فاندرهايدن «بانيول[1] ضفاف نهر ليسكو[2]»، بحسب ما كتب أحد النقّاد في تلك الفترة. والفيلم الرابع، «بالتوفيق، مونيك»، كان كوميديا موسيقيّة.

في تلك الأثناء، باتت شركة الإنتاج التي أسّسها فاندرهايدن تحت سيطرة ألمانيّة، وأُرسِلت والدتي لبضعة أسابيع إلى برلين، حيث لعبت دوراً صغيراً في فيلم «بيل

---

(1) Marcel Pagnol (1895–1974) كاتب ومسرحيّ ومخرج فرنسيّ عرف بتصويره منطقة بروفانس جنوب شرق فرنسا، بطبيعتها ونمط عيشها وسكّانها.

(2) L'Escaut نهر أوروبيّ يعبر ثلاث دول هي فرنسا وبلجيكا وهولندا ويصبّ في بحر الشمال.

Twitter: @ketab_n

أمي» لفيلي فورست[1].

في تلك السنة 1939 ذاتها، وقّعَتْ كذلك عقداً مع مسرح «إمباير» في أنتفيربن، فعملت هناك راقصة في المسرحيّات الغنائيّة أحياناً، و«عارضة» أحياناً أخرى. وبين يونيو وديسمبر، عُرض اقتباس لمسرحيّة «نو، نو، نانيت»[2] في مسرح إمباير، ظهرت فيه والدتي. ثمّ اعتباراً من يناير 1940، لعبت في عرض مسرحيّ مبنيّ على أحداث الساعة، بعنوان «غداً يكون كلّ شيء على ما يرام». فكانت تظهر في وسط المشهد الختاميّ. وفيما الراقصات يؤدّين رقصتهنّ وهنّ يحملن مظلّات «شامبرلان»[3]، نرى والدتي ترتفع في سلّة منطاد، ورأسها محاط بشعاع ذهبيّ. ترتقي، ترتقي، فيتوقّف المطر، وتُغلق المظلّات. كانت تصوّر الشمس

(1) فيلي فورست Willi Forst (1903–1980) مخرج وممثّل ومغنّ نمساوي. من أفلامه «بيل أمي» Bel Ami أو الصديق الجميل وهو فيلم مقتبس بكثير من التصرّف عن رواية بالعنوان ذاته (الآتي من لقب بطلها) للكاتب الفرنسي غي دو موباسّان Guy de Maupassant .

(2) *No, no, Nanette* مسرحيّة غنائيّة شهيرة قدّمت للمرّة الأولى عام 1924، واقتُبست لاحقاً إلى عدّة لغات وإنتاجات محليّة.

(3) نيفيل شامبرلين Neville Chamberlain (1868–1940) سياسي ورئيس وزراء بريطاني محافظ، كان يحمل على الدوام مظلّة باتت ملازمة لصورته وتعرف حتّى باسمه.

Twitter: @ketab_n

التي تشرق وتبدّد بنورها ظلمات العام 1940. تحيّي والدتي الجمهور من أعلى سلّتها، فيما الفرقة الموسيقيّة تعزف مزيجاً من الأنغام. وفي كلّ مرّة، يدبّر لها عمّال المسرح مقلباً، فيتركونها في سلّتها، معلّقة في الأعلى وسط الظلمة.

كانت تسكن في الطابق الأوّل من منزل صغير قريب من رصيف فان ديك. وكانت إحدى نوافذه تطلّ على نهر ليسكو وعلى المسار الممتدّ بمحاذاته للمتنزّهين، وعند طرفه المقهى الكبير. مسرح إمباير، حيث كانت تتبرّج كلّ مساء في مقصورتها. مبنى الجمارك. حيّ المرفأ والأحواض. أراها تعبر الجادّة فيما يمرّ ترامواي مترجرجاً، قبل أن يتوارى ضوؤه الأصفر في الضباب. الوقت ليل. ونسمع نداءات البواخر.

كان مسؤول الملابس في مسرح إمباير يحنو على والدتي وأراد أن يتولّى إدارة أعمالها. كان رجلاً ممتلئ الخدّين، يضع نظّارتين ضخمتين إطارهما عظميّ، ويتكلّم بصوت بليد جدّاً. لكنّه في الليل، يقدّم عرضاً غنائيّاً في حانة للبحّارة في الحيّ اليونانيّ، متنكّراً بشخصيّة «مدام باترفلاي»[1].

(1) Madame Butterfly هي الشخصيّة الرئيسيّة في أوبرا تحمل الاسم ذاته لجاكومو بوتشيني.

Twitter: @ketab_n

كان يرى أنّ أفلام فاندرهايدن، على سحرها وغزارتها، لا يمكن أن تضمن مساراً فنيّاً ناجحاً لممثّلة. لا بدّ من التطلّع إلى أعلى من ذلك، يا صغيرتي. وهو بالمناسبة يعرف منتجَين مهمَّين هما على وشك البدء بتصوير فيلم، غير أنّهما ما زالا يبحثان عن فتاة للدور الثانويّ. فقدّم لهما والدتي.

كان سيّداً يدعى فيليكس أوبنفيلد، ووالده المعروف باسم أوبنفيلد سينيور. كان الأب سمسار أحجار كريمة في برلين، انتقل إلى أنتفيربن بعدما وصل هتلر إلى السلطة في ألمانيا، وبدأ تهديد يحوم حول الشركات اليهوديّة. أمّا الابن، فكان في بادئ الأمر مديراً للإنتاج في شركة «تيرّا فيلم» الألمانيّة للأفلام، ثمّ انتقل للعمل في الولايات المتّحدة.

أعجبتهما والدتي. فلم يطلبا منها حتّى القيام باختبار صغير، بل أرادا منها أن تؤدّي مشهداً من السيناريو مباشرة أمامهما. كان فيلماً بعنوان «سبّاحون ورجال مَباحث»، كُتب خصّيصاً لبطلة السباحة الأولمبيّة الهولنديّة فيلي دن أودن التي كانت تريد الانطلاق في السينما. كانت الحبكة البوليسيّة الضعيفة، على ما روت لي والدتي، مجرّد

Twitter: @ketab_n

حجّة لإداء غطسات ورقصات باليه في الماء. كانت والدتي تلعب دور الصديقة الحميمة لفيلي دن أودن.

عثرْتُ على العقد الذي وقّعَتْه لهذه المناسبة. صفحتان من ورق أزرق سماويّ، سميك جدّاً ومنقّش، وفي رأسه اسم شركة «أوبنفيلد فيلمز». كان الحرف الأوّل من اسم «أوبنفيلد» Openfeld ضخماً ومكتوباً بخطّ أنيق، مع زخارف وخطوط وكتَل. وداخل دائرة الحرف O، رسم مصغّر لبوّابة براندينبورغ، منقوش برهافة. أتصوّر أنّها رُسمت لتذكّر بأصول المنتجَين البرلينيّة.

تمّ التفاهم على أن تتقاضى والدتي المقبلة مبلغاً مقطوعاً قدره 75 ألف فرنك بلجيكيّ، يدفع لها على أقساط عند بداية كلّ أسبوع من التصوير. واتّفق الفريقان على أنّ هذا الأجر لا يمكن أن يطرأ عليه أيّ تغيير سواء لزيادته أو لتخفيضه، حتّى انتهاء العقد أو تمديده إن حصل. ونصّ العقد بصراحة على أنّ الوقت المخصّص للمكياج والملابس يعتبر وقتَ تحضير، وليس وقتَ عمل.

عند أسفل الصفحة، توقيع والدتي المتأنّي. وتوقيع فيليكس أوبنفيلد الشديد العصبيّة. ثمّ التوقيع الثالث،

Twitter: @ketab_n

أكثر تسرّعاً وتقطيعاً، وقد طُبع تحته على الآلة الكاتبة: السيّد أوبنفيلد سينيور.

يحمل العقد تاريخ 21 أبريل 1940.

في تلك الليلة، دعوا والدتي إلى العشاء. كان مسؤول الملابس مدعوّاً أيضاً، وكذلك كاتب السيناريو، هنري بوتمان، الذي لا تُعرف جنسيّته بالتمام: بلجيكيّ؟ إنكليزيّ؟ ألمانيّ؟ كان من المفترض أن تحضر فيلي دن أودن للتعرّف على والدتي، لكنّ أمراً ما طرأ عليها في اللحظة الأخيرة. كان عشاءً ممتعاً للغاية. كان أوبنفيلد الأب والابن، وخصوصاً فيليكس، يتميّزان بتلك اللباقة المتشنّجة والمرحة في آن، اللباقة الخاصّة بأهل برلين. كان فيليكس أوبنفيلد متفائلاً بشأن الفيلم، وقد أبدت شركة أميركيّة منذ ذلك الحين اهتمامها به. فهو يحاول منذ وقت طويل إقناعهم بإطلاق أفلام كوميديا بوليسيّة «رياضيّة»... التقطوا صورة أثناء العشاء، موضوعة أمامي، هنا على مكتبي. الرجل ذو الشعر الأسود اللمّاع المسرّح إلى الخلف والشاربين الرقيقين للغاية واليدين الجميلتين هو فيليكس أوبنفيلد. الرجلان السمينان

Twitter: @ketab_n

الواقفان على حدة بعض الشيء هما بوتمان ومسؤول الملابس. الرجل المسنّ ذو رأس النمس غير أنّ عينيه مشقوقتان رائعتان هو أوبنفيلد سينيور. وأخيراً، الفتاة التي تشبه فيفيان ليه[1]، تلك هي والدتي.

كانت تلعب مقطعاً وحدها في بداية الفيلم. توضّب غرفتها وهي تغنّي، وتردّ على الهاتف. قرّر فيليكس أوبنفيلد الذي كان يتولّى الإخراج، أن يتبع التسلسل الزمنيّ للقصّة.

حُدّد أوّل يوم من التصوير الجمعة في 10 مايو 1940، في استديوهات «سونور» في بروكسل. كان من المفترض أن تحضر ولدتي إلى هناك في الساعة العاشرة والنصف صباحاً. وبما أنّها كانت تسكن أنتفيربن، كان عليها أن تستقلّ القطار في وقت باكر جدّاً.

كانت قد تقاضت في اليوم السابق دفعةً مقدّمة عن أجرها، اشترت بها حقيبة سفر جلديّة صغيرة جميلة ومساحيق تجميل إليزابيت آردن. عادت إلى منزلها عند

(1) Vivien Leigh (1913–1967) ممثّلة صنفها «معهد الفيلم الأميركي» بين أفضل نجمات السينما في كلّ الأزمنة. من أشهر أدوارها دور البطولة في فيلم «ذهب مع الريح» *Gone with the wind*.

Twitter: @ketab_n

العصر، تمرّنت قليلاً على دورها من جديد، ثمّ تناولت العشاء وأخلدت إلى النوم.

قرابة الساعة الرابعة صباحاً، أيقظها دويّ ظنّت في بادئ الأمر أنّه قصف رعد. لكنّ الضجيج كان أقوى حتّى من الرعد، زمجرة غامضة مديدة. كانت سيّارات إسعاف تعبر على رصيف فان ديك. أطلّ البعض من نوافذهم. ودوّت صفّارات إنذار في كلّ أرجاء المدينة. شرحَت لها جارتها في الطابق ذاته وهي ترتجف أنّ الطيران الألماني كان يقصف المرفأ. ثمّ حلّ الهدوء، وعادت والدتي إلى النوم. في الساعة السابعة، رنّ المنبّه. فتوجّهت من غير أن تهدر الوقت إلى الساحة الصغيرة لانتظار الترامواي، حاملة حقيبتها الصغيرة بيدها. لكنّ الترامواي تأخّر. وكان الناس يمشون في جماعات صغيرة، وهم يتكلّمون خافضين أصواتهم.

عثرت في نهاية الأمر على سيّارة أجرة، وطوال الطريق إلى المحطّة، كان السائق يردّد مثل لازمة: «قُضي علينا... قُضي علينا... قُضي علينا..».

كانت ردهة المحطّة مكتظّة، فشقّت والدتي طريقها

Twitter: @ketab_n

بصعوبة حتّى الرصيف الذي ينطلق منه القطار إلى بروكسل. كان المسافرون يتحلّقون حول المفتّش، يستفهمون منه: «لا، القطار ليس على وشك الانطلاق. إنّه ينتظر تعليمات». والجملة نفسها تعود على لسان الجميع: «الألمان عبروا الحدود... الألمان عبروا الحدود..».

على الإذاعة، بدأ مقدّم الأخبار نشرة الساعة السادسة والنصف معلناً أنّ القوات الألمانيّة اجتاحت للتوّ بلجيكا وهولندا ولوكسمبورغ.

أحسّت والدتي بأحدهم يلامس ذراعها. التفتت، فوجدت أوبنفيلد سينيور، معتمراً قبّعة فيدورا سوداء. كان ذقنه محلوقاً بشكل رديء، ووجهه الشبيه بوجه النمس ضامراً إلى نصف ما كان عليه، وعيناه مشرّعتين محملقتين. عينان زرقاوان شاسعتان وسط رأس دقيق، شبيه بتلك الرؤوس التي يجمعها الهنود الخيباروس[1]. جرّها إلى خارج المحطّة.

- يجب الالتحاق بفيليكس في الأستديوهات... في

(1) الهنود الخيباروس هم قبيلة محاربة من جبال الأنديز. من تقاليدهم المعروفة أنّهم كانوا يقطعون رؤوس أعدائهم المهزومين ويقلّصونها حتّى يمنعوهم من العودة إلى الحياة، بحسب معتقداتهم.

Twitter: @ketab_n

بروكسل... أن نستقلّ سيّارة أجرة... بسرعة... سيّارة... أجرة...

كان يبتلع نصف الكلمات.

لم يقبل السائقون بالقيام برحلة طويلة كهذه، خوفاً من عمليّات القصف. نجح أوبنفيلد سينيور في إقناع واحد منهم، لقاء ورقة مائة فرنك. في السيّارة، قال أوبنفيلد سينيور لوالدتي:

- سوف نتقاسم ثمن الرحلة.

قالت له والدتي إنّها لم تحمل معها سوى عشرين فرنكاً.

- لا يهمّ. سوف نسوّي أمورنا في الأستديو.

لم يتكلّم كثيراً خلال الرحلة. وبين الحين والآخر، كان يستشير مفكّرة عناوين، ويفتّش بعصبيّة في جيوب معطفه وسترته.

- أهذا كلّ المتاع الذي تحملينه؟ سأل والدتي، مشيراً إلى الحقيبة الجلديّة الصغيرة التي كانت تضعها على ركبتيها.

- المتاع؟

- عذراً... عذراً... صحيح... أنت تبقين هنا...

Twitter: @ketab_n

راح يتمتم جملاً غير مسموعة. ثمّ التفت نحو والدتي:

- ما كان سيخطر لي يوماً أنّهم قد لا يحترمون الحياد البلجيكي...

قال ذلك مشدّداً على ألفاظ «الـ-حيـ-ـــاد البلجيكي». هاتان الكلمتان جسّدتا بالتأكيد بنظره حتّى ذلك اليوم أملاً مبهماً، ولا بدّ أنّه ردّدهما مراراً، دون أن يؤمن بهما، لكن بكثير من الإرادة الطيّبة. وها هي الأحداث تجرفهما اليوم مع كلّ ما تبقّى. الحياد البلجيكي.

دخلت سيّارة الأجرة بروكسل، وتبعت جادّة تيرفورن، حيث كانت النيران تنتهي من التهام عدد من المباني. وفرق الإطفاء تنقّب بين الركام. سأل السائقُ عمّا حدث. فقد تعرّض المكان للقصف قرابة الساعة الثامنة.

في فناء استديو سونور، كانت شاحنة صغيرة وسيّارة كبيرة مكشوفة محمّلة بالأمتعة تنتظران. حين دخل أوبنفيلد سينيور ووالدتي إلى موقع التصوير ب، كان فيليكس أوبنفيلد يعطي تعليمات لبضعة فنيّين يعملون على توضيب الكاميرات والكشّافات.

- إنّنا راحلان إلى أميركا، قال فيليكس أوبنفيلد لوالدتي بنبرة حازمة.

Twitter: @ketab_n

جلسَت على مقعد خفيض ومدّ لها أوبنفيلد سينيور علبة سجائر جلديّة.

- ألا تريدين الرحيل معنا؟ سنحاول تصوير الفيلم هناك.

- أنتِ لا تواجهين أيّ صعوبة لعبور الحدود، قال فيليكس أوبنفيلد. لديك جواز سفر.

كانا يعتزمان الذهاب إلى لشبونة في أسرع وقت ممكن عبر إسبانيا. كان فيليكس أوبنفيلد حصل على أوراق من قنصل البرتغال الذي كان صديقاً حميماً له، على حدّ قوله.

- سيكون الألمان غداً في باريس، وبعد خمسة عشر يوماً في لندن، أعلن أوبنفيلد سينيور هازّاً رأسه.

حمّلا معدّات التصوير في الشاحنة الصغيرة. كان أوبنفيلد الأب والابن منهمكين في نقلها مع غرونباوم، وهو مصوّر سابق في شركة توبيس[1]، كان بالرغم من يهوديّته شبيهَ فيلهلم الثاني[2]. كانت والدتي تعرفه لأنّه أراد

(1) Tobis Film شركة ألمانية لإنتاج الأفلام وتوزيعها.

(2) Wilhelm II آخر قياصرة الامبراطوريّة الألمانيّة وملك بروسيا من 1888 إلى 1918، اضطرّ إلى التنازل عن العرش بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالميّة الأولى.

Twitter: @ketab_n

في الأسبوع السابق القيام بتجربة للإضاءة في اللقطات القريبة. جلس غرونباوم خلف مقود الشاحنة الصغيرة.

- اتبعني مارك، قال له فيليكس أوبنفيلد.

صعد في السيّارة المكشوفة، وجلست والدتي وأوبنفيلد سينيور محشورين على المقعد الأمامي بجانبه. وعلى المقعد الخلفي كانت تتكدّس حقائب وصندوق سفر.

تمنّى لهم فنّيّو الأستديو رحلة موفّقة. كان فيليكس أوبنفيلد يقود بسرعة كبيرة. والشاحنة الصغيرة تتبع سيّارتهم.

راح أوبنفيلد سينيور يردّد:

- سنحاول أن نصوّر الفيلم في أميركا.

لم تجب والدتي. كانت مشوّشة البال قليلاً بفعل كلّ تلك الأحداث.

عندما وصلوا إلى ساحة بروكير، ركن فيليكس أوبنفيلد السيّارة أمام فندق متروبول. فتوقّفت الشاحنة الصغيرة بدورها.

- انتظروني... سوف أعود في الحال...

دخل الفندق وهو يركض. وبعد بضع دقائق، عاد

Twitter: @ketab_n

حاملاً زجاجتين من المياه المعدنيّة وكيساً كبيراً.

– جئت ببعض الشطائر للرحلة.

كان على وشك الانطلاق مجدّداً حين خرجت والدتي على عجل من السيّارة.

– أنا... عليّ أن... أبقى، قالت.

نظرا إليها وعلى وجهيهما ابتسامة حائرة. لم يتفوّه أيّ منهما بكلمة لاستبقائها. لا بدّ أنّهما ظنّا أنّها لا تواجه أيّ مخاطر. الواقع أنّه لم يكن هناك ما يدفعها إلى الرحيل. فأهلها في انتظارها في أنتفيربن. انطلقت الشاحنة الصغيرة قبل السّيارة. لوّح لها أوبنفيلد الأب والابن مودّعَين. لوّحت والدتي أيضاً بذراعها. ثمّ انطلق فيليكس أوبنفيلد مندفعاً فجأة بالسيّارة. أو ربّما كانت تلك عصفة ريح؟ طارت القبّعة من على رأس أوبنفيلد سينيور وتدحرجت على الرصيف. لم يأبه لها. فلم يكن بوسعهما إهدار ثانية واحدة.

التقطت والدتي القبّعة وأخذت تمشي من غير أن تدري تماماً أين تسير.

أمام مبنى المصرف البريديّ، كان رجال ونساء يقفون

Twitter: @ketab_n

في طابور ممتدّ إلى ما لا نهاية، ينتظرون لسحب أموالهم. تبعَت جادة آفنو دو نور، وصولاً إلى المحطّة. وجدَت هناك الضوضاء نفسها، الحشود نفسها المذهولة كما في محطّة أنتفيربن. قال لها حمّال إنّ قطاراً سينطلق قرابة الساعة الثالثة عصراً إلى أنتفيربن، لكنّه قد لا يصل إلى وجهته سوى في ساعة متأخّرة من الليل.

جلست في إحدى زوايا المقهى. كانت حشود تأتي وتذهب، وتدخل وتخرج في حركة متواصلة، وقد بدأ يظهر رجال ببذلات عسكرية. سمعَت الناس حولها يردّدون أنّ التعبئة العامّة أُعلنت حوالى الساعة التاسعة. في عمق الصالة، كان مذياع يبثّ نشرات إخباريّة. مرفأ أنتفيربن تعرّض للقصف مجدّداً. والقوّات الفرنسيّة عبرت الحدود للتوّ. والألمان باتوا يحتلّون روتردام. مقرفصة بجانبها، كانت امرأة تربط شريط حذاء صبيّ صغير. وكان مسافرون يتشاجرون من أجل فنجان قهوة، وآخرون يتدافعون، فيما آخرون أيضاً يجرّون حقائب لاهثين.

كان عليها أن تنتظر القطار حتّى الساعة الثالثة عصراً.

Twitter: @ketab_n

بدأت تشعر بصداع طفيف. تنبّهت فجأة إلى أنّها فقدت الحقيبة الصغيرة حيث وضّبت مساحيق أليزابيت آردن والسيناريو. ربّما تركتها في استديو سونور، أو في السيّارة. ما احتفظت به بيدها حتّى ذلك الحين من غير أن تلاحظ كان قبّعة أوبنفيلد سينيور السوداء المفتولة الحافّة.

Twitter: @ketab_n

5

كنت في الخامسة عشرة من عمري في ذلك الشتاء، حين صعدت مع والدي في قطار الساعة السابعة والربع مساء في محطّة ليون. كنّا قضينا العصر كاملاً في شراء أغراض مختلفة. معطف واقٍ من المطر وحذاء ذو نعل من المطّاط له، ولي أنا سروال وخوذة لركوب الخيل.

لم يكن هناك ركّاب غيرنا في مقصورتنا، وحين انطلق القطار، أحسست بثقل على صدري. كنت أتأمّل من النافذة مشهد السكك الحديد، أبراج المراقبة والمقطورات المتوقّفة. ثمّ محطّة البضائع، وبعدها محطّة الجمارك ببرج جرسها والمباني الصغيرة الكئيبة في شارع كوريوليس حيث تراءى خيالان قاتمان في ضوء نافذة. وها نحن غادرنا باريس.

Twitter: @ketab_n

استغرق والدي في قراءة مجلّة، بعدما وضع نظّارتيه الثنائيّتي البؤرة. أمّا أنا، فبقيت جالساً، ملصقاً جبيني بالزجاج. عبرَ القطار مسرعاً محطّات الضواحي. وبعدما اجتزنا بلدة ميزون ألفور، لم يعد بوسعي قراءة أسماء المحطّات على اللوحات المضيئة. انطلاقاً من هناك، بدأ الريف. كان الليل هبط، لكنّ ذلك لم يمنع والدي من مواصلة قراءة مجلّته، وهو يمصّ أقراصاً صغيرة على شكل كرات خضراء.

كان مطر رقيق إلى حدّ أنّني لم ألاحظه على الفور، يخدش الزجاج الأسود. ولمبة المقصورة تنطفئ بين الحين والآخر، غير أنّها تعود وتشتعل على الفور. ضعف التيّار الكهربائيّ واتّخذ النور الذي كان يغلّفنا لوناً أصفر ترابيّاً.

كان يجدر بنا أن نتكلّم، لكنّه لم يكن لدينا ما نقوله أحدنا للآخر. كان والدي يفتح فمه أحياناً ويلتقط قرصاً يلقيه في الجوّ بنقرة من سبابته. نهض وتناول محفظته السوداء القديمة وأخرج منها ملفّاً أخذ يقلّب صفحاته ببطء، وهو يضع خطوطاً بالقلم تحت بعض السطور.

– من المؤسف أنّنا لم نعثر على جزمتين بمقاس قدميك،

Twitter: @ketab_n

قال والدي مطرقاً وهو يرفع رأسه عن ملفّه.

- ...

- لكن رينولد سوف يعيرك زوجاً.

- ...

- وسروال الفروسيّة؟ هل تعتقد أنّه سيناسبك؟

- أجل أبي.

لم تكن تلك المحفظة السوداء القديمة الموضوعة على عرضها فوق ركبتيه لتفارقه لحظة، ولا شكّ أنّ الملفّ الذي كان منكبّاً على دراسته، حمله معه ليعرضه على رينولد. ما كانت الأواصر التي تربطه برينولد تحديداً؟ حضرت العديد من لقاءاتهما في ردهة فندق كلاريدج. كانا يتبادلان ملفّات أو يعرض أحدهما على الآخر وثائق منسوخة يوقّعانها بالأحرف الأولى من اسميهما بعد مناقشات مطوّلة. كان رينولد على ما يبدو داهية، وكان والدي يرتاب منه. كان والدي يزوره أحياناً في منزله، قصر صغير في شارع كريستوف كولومب، قرب الشانزيليزيه. كنت أنتظره وأنا أذرع جادّة مارسو صعوداً ونزولاً. وحين يعود، يكون مزاجه عكراً. في المرّة الأخيرة،

Twitter: @ketab_n

ربّت على كتفي وهو يقول جملة غامضة:

- من الآن فصاعداً، سأوقع برينولد شرّ وقعة. سوف أرغمه على الالتزام بتعهّداته.

كان يفتح ملفّاً في وسط الشارع، يعدّ الصفحات واحدة واحدة، ويتثبّت من التواقيع.

نهض والدي، وأعاد محفظته السوداء إلى شبكة مقصورة الحقائب. توقّفنا بضع دقائق في محطّة أورليان. مرّ موظّف عارضاً صندوقاً من الشطائر والمرطّبات، فاخترنا زجاجتَي عصير «أورنجينا». ثمّ انطلق القطار من جديد. كان المطر يلفح النافذة زخّات زخّات، وخفت أن يتحطّم الزجاج. أطبق الخوف عليّ شيئاً فشيئاً. والقطار يجري بسرعة جهنّميّة. إلى متى؟ حاولت جاهداً الحفاظ على هدوئي. كنّا جالسين الواحد قبالة الآخر، كلّ منّا يشرب عصيره بقشّة. وكأنّنا على شاطئ في الصيف.

أمّا أنا، فكنت أقول لنفسي إنّه في هذه الأثناء، كان بوسعنا التسكّع على طول الجادّات الكبرى، والجلوس على رصيف مقهى فيال... كنّا سنتأمّل المارّة أو ندخل في صالة سينما، بدل أن نتوغّل في عمق مناطق مجهولة تحت المطر.

Twitter: @ketab_n

كلّ ذلك كان بسببي. غالباً ما كان رينولد يرتدي سترة خيّال واقية من المطر، تلك التي يطلق عليها البريطانيّون اسم «معطف ركوب الخيل». سألته في عصر أحد الأيّام إن كان يمارس الفروسيّة... فانطلق على الفور في الكلام عن الموضوع بإسهاب وشغف، واضطررت إلى الإقرار بأنّني كنت ملمّاً ببعض المبادئ الأساسيّة في هذا المجال، إذ كنت في سنّ الحادية عشرة أرتاد ميداناً للتدريب على الفروسيّة. التفت رينولد إلى والدي واقترح علينا أن نأتي لقضاء «عطة نهاية أسبوع» في أراضيه في سولونيه. هناك نركب الخيل قدر ما نشاء. ستكون تلك فرصة جيّدة لي لأركب الخيل من جديد.

- شكراً سيّد رينولد.

شرح لي والدي حين عدنا أنّه لا بدّ لنا أن يدعونا رينولد إلى سولونيه، مهما كان الثمن. ربّما يوافق هناك على توقيع بعض «الأشياء الهامّة». فكان يترتّب عليّ في أوّل فرصة تسنح أن أوجّه الحديث مرّة جديدة إلى الفروسيّة، وأقنع رينولد بأنّ الخيول هي كلّ ما أحلم به.

كانت الساعة تقارب التاسعة، وقد غادرنا أوزوار

Twitter: @ketab_n

لوفيكونت للتوّ. بحسب تعليمات رينولد، كان يجب أن ننزل عند المحطّة التالية. كان والدي يظهر بوادر توتّر. فكان يتفحّص وجهه في المرآة، ويمشّط شعره، ويعيد ترتيب ربطة عنقه، ويقوم ببعض الحركات بذراعيه لتليين قماش سترته الجديدة من التويد. سترة بلون أوراق الخريف، كتفاها مبطّنتان بحشوة أضخم ممّا ينبغي. طلب منّي أن أساعده على ارتداء معطفه الواقي من المطر. بصعوبةٍ كان بوسعه دسّ ذراعيه في الكمّين، من شدّة ما كانت السترة التويد تعيق حركته. وبعدما يرتدي المعطف، كان يبدو بكتفيه وقامته أشبه بمصارع رومانيّ. كانت بطانة معطفه زيادةً على السترة تُتِمّ تكتيفه، فبدا كتلة واحدة ضخمة بدون عنق. بصعوبةٍ كان يستطيع رفع ذراعه لتناول محفظته السوداء.

وقفنا ننتظر في ممرّ المقطورة. توقّف القطار وسط أزيز جعل والدي يكشّر. نزلنا على الرصيف. كان المطر توقّف. كان هناك مصباح يتيم على مسافة عشرين متراً أمامنا، وعند طرف الرصيف باب زجاجيّ مضاء، معْلمان وحيدان استدللنا بهما إلى طريقنا. كان والدي يمشي

Twitter: @ketab_n

بصعوبة، متصلّباً وكأنّه أسير درع. كان يمسك محفظته السوداء بيده، وأنا أحمل حقيبتينا.

بدت محطة بروتوي ليتان الصغيرة مهجورة. في وسط الردهة، تحت نور النيون الأبيض، كان رينولد بانتظارنا برفقة شابّ يرتدي سروال فروسيّة. صافح والدي رينولد الذي قدّم لنا الشابّ. كان يحمل كنية تدلّ على نسب رفيع على ارتباط بمشروع شقّ قناة السويس، واسماً مركّباً هو جان جيرار. صافحتهما بدوري، وأحسست بما يشبه الغثيان في حضور رينولد. تلك القبّعة الرماديّة، الشاربان، ذلك الصوت الحارّ ورائحة العطر تلك، كلّ ذلك لطالما بعث فيّ إعياء شديداً.

جلسنا أنا ووالدي على مقعد سيّارة الرينو الخلفيّ، فيما جلس الفتى خلف المقود ورينولد بجانبه.

- هل أتعبتك الرحلة كثيراً؟ سأل رينولد والدي بصوته الخفيض الرخيم.

- لا، على الإطلاق يا هنري.

دهشت لسماعه يناديه باسمه. انطلق «جان جيرار» بالسيّارة بخشونة، وانقلب والدي عليّ. اضطررت إلى

Twitter: @ketab_n

دفعه حتّى يستعيد وضعيّته. ذلك المعطف الواقي من المطر كان يشلّه فعلاً، وكأنّه مصبوب في الرصاص.

سلكنا طريقاً عريضاً بعض الشيء، وكانت أضواء سيّارة الرينو تكشف لنا عن أشجار من الجانبين.

- إنّنا نعبر الآن غابة سيزون، قال لنا رينولد بنبرة من يعرف عمّا يتكلّم، فيما راح «جان جيرار» يقود بسرعة متزايدة.

- لم أعد معتاداً على تلك السيّارات الصغيرة القديمة، قال. خردة حقيقيّة.

- جان جيه، هل أخبرت مونتيناك وشوفير ما حصل مساء أمس؟ سأل رينولد.

- لا، لم أفعل بعد.

كانا يقهقهان بالضحك من غير أن يشرحا لنا السبب، لكنّه بدا واضحاً أنّهما - أو رينولد على الأقلّ - كانا يجدان قدراً من المتعة في إقصائنا من حديثهما.

- يمكنني أن أتصوّر مسبقاً التعابير على وجه شوفير! لديه أوهام كثيرة حول مونيك!

- سذاجته مؤثّرة فعلاً، ألا تعتقد ذلك؟

Twitter: @ketab_n

- إنّه مجرّد فلّاح من جزيرة موريس...

واصلا الحديث عن أشخاص لم نكن نعرفهم، متشدّقين بالضحك ملء حلقَيهما. أسرع جان جيه أكثر. ثمّ أفلت المقود وأخرج سيجارة من جيبه وأشعلها بهدوء. أغمضت عينيّ. وشدّ والدي على ذراعي. وددت لو أسأل رينولد إن كان بوسعه أن يعيدنا إلى المحطّة. وعلى الفور. سوف نستقلّ أوّل قطار إلى باريس. لم نكن في موقعنا هناك. لكنني بقيت صامتاً حتّى لا أحرج والدي أو أُحبط مخطّطاته.

- وعمّتك؟ سأل رينولد. هل ستأتي الأحد؟

- لا يمكن التكهّن مسبقاً بأيّ شيء مع عمّتي العزيزة، أجاب جان جيه.

إنّني أعبدها، قال رينولد بصوت متكلّف. دايزي امرأة رائعة.

انعطفت الرينو في طريق محليّة صغيرة.

- سوف نصل قريباً، قال رينولد ملتفتاً صوب والدي. هذه أوّل مرّة يزوران فيها «لا ميناندير».

- لا بدّ من الاحتفال بهذه المناسبة، قال جان جيه غير مبالٍ.

Twitter: @ketab_n

فرمل بشكل مفاجئ، فاندفع والدي إلى الأمام واصطدم رأسه بمؤخّرِ عنقِ رينولد.

- عذراً هنري، قال بصوت مكمود.

- لا عليك. هل جلب ابنك معه ملابس لركوب الخيل؟

- نعم سيّد رينولد، قلت.

- يمكنك أن تناديني هنري.

- نعم، سيّد هنري رينولد.

سحبت والدي من السيّارة. كنّا أمام بوّابة. فتحها رينولد بضربة من كتفه. عبرنا فناءً مكسوّاً بالحجارة، يحاصره جزء متقدّم من مبنى، وفي وسطه لاحظت بئراً. كان النور ينبعث من أدراج المدخل الخارجيّة.

قرع جان جيه الجرسَ عشر مرّات، وكان يجد متعة خبيثة في قرع الجرس على هذا النحو. فُتح الباب وظهرت في إطاره امرأة شقراء ترتدي فستاناً أنيقاً.

- زوجتي، قال لي رينولد.

- مساء الخير ماغي، قال والدي بنبرة أليفة فاجأتني.

- مساء الخير سيّدتي، قلت بدوري منحنياً.

Twitter: @ketab_n

قبّل جان جيه يدها، مدنياً شقتيه دون أن يلامس بشرتها.

كان هناك معاطف مكدّسة في كومة على كنبة عريضة. أشارت إلينا أن نخلع معطفينا. ساعدت والدي، فوجدت الكثير من الصعوبة في إخراجه من معطفه الواقي من المطر. حتّى أنّني تساءلت إن كنّا سنضطرّ ربّما إلى شقّ الكمّين بواسطة مدية. دخلنا قاعة فسيحة نُصبت في عمقها مائدة لعشرة أشخاص. وكان هناك عدّة أشخاص جالسين حول الموقد، وبينهم امرأتان شابّتان لفّ جان جيه ذراعيه حول كتفيهما بحميميّة، فبدتا مسرورتين.

لم يتسنّ لي أن أراقب كما يحلو لي الضيوف والديكور المحيط بنا إلّا خلال العشاء. خصّنا رينولد أنا ووالدي بمقعدين عند طرف المائدة، وكأنّنا نشاز وسط انسجام الجماعة. أمّا جان جيه، فكان جالساً بين الفتاتين، وإحداهما تتكلّم بلكنة إنكليزيّة. لم تكونا ترفضان له طلباً على ما بدا، وكان يداعبهنّ ويلامسهنّ قليلاً الواحدة تلو الأخرى. كان يحادث السمراء بالإنكليزيّة، وهمس رينولد أنّها ابنة دوق نورثمبرلند. أمّا الشقراء، فلا بدّ أنّها كانت تنتمي هي

Twitter: @ketab_n

أيضاً إلى عائلة راقية، على الرغم من جسارة سلوكها.

كانت ماغي رينولد تجلس في رأس المائدة، محاطة إلى يمينها ويسارها برجل وامرأة أثارا دهشتي، إذ كان كلاهما يرتدي ملابس من المخمل الأسود، هي ترتدي بنطالاً وسترة من طراز رياضيّ، وهو بذلة ضيّقة تلتصق بجسده. كانا يتشابهان رغم أنّهما زوجان. الشعر الداكن ذاته، الابتسامة الباهرة ذاتها، والبشرة الملوّحة بالشمس ذاتها. أحسست من مشيتهما المتمايلة ومن طريقتهما في شبْك يديهما أنّ كليهما يعتني بنفسه إلى أقصى حدّ. كانا يقومان بحركات متشابهة بالتزامن بينهما، ووجهاهما يعكسان غروراً فيه متعة حسيّة. علمت أنّ الرجل، ويدعى ميشال لاندري، كان يدير مجلّة «رياضة وترفيه».

أخيراً، بجانب السيّدة لانْدري، رجل ستّينيّ، أسمر زيتونيّ البشرة وأعجف الوجه، له شاربان رقيقان وعينان زرقاوان بزرقة قانية حادّة. كان يضع خاتماً نقش عليه شعار عائلة نبيلة. كان يدعى الكونت أنجيل دو شوفير، وينتمي على ما فهمت إلى عائلة عريقة من جزيرة موريس، ما يفسّر لون بشرته.

Twitter: @ketab_n

سرعان ما انتقل الحديث إلى الصيد، ودار الكلام على الأسلحة الناريّة على اختلاف مصادرها، أسلحة راح لاندري يفصّل فوائدّ كلٍّ منها. وكان شوفير يهزّ رأسه بذلك الجِدّ الذي يميّز الكريوليّين، فيما جان جيه يعارض لاندري باستمرار. ورد ذكر دوق يملك قصراً في الجوار، وكان جان جيه يدعوه العمّ ميشال، فيما رينولد يكتفي باسم «ميشال». ذلك الدوق كان على حدّ قولهم أبرع صيّاد في فرنسا، ولقب «رامي فرنسا الأوّل» ذاك الذي كانوا يتناقلونه بوقار أثار لديّ إحساساً بالغثيان.

ازددت توعّكاً حين سمعت لاندري يسأل شوفير ورينولد:

- ما هو وضع قطيع الكلاب؟

- سوف نرى ذلك بعد يومين، أجاب شوفير بنبرة قاطعة.

- سيكون صيداً ممتعاً، قالت الشقراء الشابّة بترقّب نهم.

- ستكونان جنيّتي الحملة، قال جان جيه مقبّلاً كلّاً من الإنكليزيّة والشقراء في عنقيهما.

Twitter: @ketab_n

- وهما أيضاً يا جيه، قال رينولد وهو يشير إلى ماغي رينولد وزوجة لاندري.

- بالطبع، سوف تكونان بالتأكيد جنيّتين.

وراح جان جيه يشدّ على أيديهما من فوق الطاولة، وهما تقهقهان ضحكاً.

التفت رينولد صوبي:

- ستكون هذه أول رحلة صيد لك بواسطة الكلاب؟

- أجل سيّد رينولد.

ربّت على كتف والدي.

- هل أنت مسرور ألدو، لمشاركة ابنك في حملة صيد بواسطة الكلاب؟

- آه أجل هنري، مسرور جدّاً.

التفت الآخرون وتفرّسوا فينا بفضول بعدما كانوا تجاهلوننا تماماً حتّى ذلك الحين.

- إنّني سعيد بذلك، هنري.

كان والدي قابعاً، كتلة متراصّة، لا يمكن تبيان ما يجول في باله خلف نظّارتيه الثنائيّتي البؤرة.

أمّا أنا، فكنت أخشى أن يُغمى عليّ، وهو موقف يخلو

Twitter: @ketab_n

من البسالة بالنسبة لفتى في الخامسة عشرة.

- لم يكن من الممكن أن تصادف فرصة أفضل، بادرني لاندري بالقول. أفضل طاقم صيد في فرنسا. وأعظم قائد طاقم في أوروبا...

- إنّك تجامل العمّ ميشال، قال جان جيه متهكّماً.

- لا جان جيرار، هو لا يقول هذا من باب المجاملة، ردّ شوفير برصانة. عرفنا ثلاثة عظماء في الصيد بواسطة الكلاب السلوقيّة منذ مائة عام: آن دوزيس، فيليب دو فيبراي وعمّك...

أعقبت ثوان من الصمت هذه الجملة. سيطر التأثّر على الجميع، وفي طليعتهم رينولد نفسه. كان شوفير جالساً منتصب الصدر، مرفوع الذقن، وكأنّه تلفّظ للتوّ بقول للتاريخ. من جهته، كان والدي يجاهد لكبت نوبة سعال عصبيّ طفيفة. بادر جان جيرار إلى قطع هذه اللحظة.

- أنتم حقّا متبحّرون في جزيرة موريس، قال لشوفير.

- أرجوك، أجاب شوفير بجفاء، قبل أن يضيف: صحيح، نحن في جزيرة موريس نعرف الكثير!

جلبوا طبقاً مهيباً. حين حملته السيّدة المربوط شعرها في

Twitter: @ketab_n

هيئة كعكة، التي كانت تتولّى خدمة الطاولة، ووضعته على المائدة، راحت زوجة لاندري والفتاة الإنكليزيّة والشقراء يصفّقن.

- رائع، هتف لاندري.

- إنّه طاووس حقيقيّ من شومون[1]، قال رينولد وهو يقوم بإشارة بإبهامه تتباين فظاظتها مع الكلام الراقي الذي سمعته للتوّ.

- يبدو أنّ لحمه مثير للشهوة، قالت زوجة لاندري. هل كنتِ على علم بذلك ماغي؟

قدّمت لنا السيّدة الطبق لي ولوالدي حتّى نسكب منه.

- لا بدّ لي أن أشرح لكما، قال لنا رينولد وهو يتعمّد النطق بوضوح وكأنّه يكلّم أصمّين. إنّ طاووس شومون يغذّى ببراعم أشجار الأرز، وهو محشوّ بالكمأ والبندق.

كنت أشدّ على نفسي لأكبت رغبةً في التقيّؤ.

- ذوقوا لحمه! سوف ترون كم هو لذيذ!

لاحظ بعد وقت أنّني لم أتناول منه لقمة واحدة.

(1) Chaumont مدينة فرنسيّة.

Twitter: @ketab_n

– هيّا، تذوّق! إنّها جريمة يا صديقي أن تترك هذا في صحنك!

اعتباراً من تلك اللحظة، حدث نوع من التحوّل في داخلي. كانوا جميعهم باستثناء والدي يرمقونني بنظرات باردة جزعة.

– هيّا بنيّ! تذوّق! ردّد رينولد.

تبخّر خجلي وإذعاني المرضيّان، وأدركت فجأة إلى أيّ مدى كانا سطحيّين. خيّل لي أنّني أُسقط عن نفسي جلدة قديمة متيبّسة. أجبته بصوت قاطع لا يقبل الجدل:

– لن أتناول منه مثقال ذرّة سيّدي.

التفت والدي صوبي، فاغراً فاه. كذلك فعل الآخرون، وقد أفسدت بالتأكيد عشاءهم. أيقنت فجأة أنّ بوسعي أنا نفسي أن أُلحق بهم أذىً أكبر بكثير من كلّ ما يمكن أن ينزلوه بي على الإطلاق، وغمرني على الفور إحساس بالدِّعة والندم.

– عذراً، تمتمْتُ. عذراً.

لم تنفرج الأجواء إلّا عند تقديم المشروب. بالطبع، كانوا ينظرون إليّ شزراً، لكنّني أرغمت نفسي على

Twitter: @ketab_n

الابتسام لهم لطمأنتهم. حتّى أنّني أعلنت لرينولد بعدما أخذت نفَساً عميقاً:

- إنّني مسرور ومتأثّر جدّاً للمشاركة الأحد في رحلة الصيد بالكلاب، سيّد رينولد.

أعتقد أنّهم نسوا الحادث في نهاية الأمر. ولا شكّ أنّ كؤوس نبيذ بورغونيا العارمة التي احتسوها أثناء العشاء ساهمت في ذلك. واصلوا الشرب. كحول الإجاص، الكونياك، مشروب الخوخ الأصفر... كانوا يتذوّقون كلّ ما تيسّر. النساء أيضاً كنّ يشربن بإسراف، وبالأخصّ الإنكليزيّة وماغي رينولد. أمّا أنا ووالدي، فبقيت كأسانا طافحتين، لأنّنا لم نجرؤ على الرفض حين سكبوا لنا. واستمرّ الحديث عن الصيد بواسطة الكلاب.

كان هناك على حدّ قول شوفير ما يميّز «العمّ ميشال» عن كلّ ما تبقّى من صيّادين في فرنسا: فهو أعاد إحياء تقليد «مكافأة الكلاب على ضوء المشاعل»[1].

- مشهد رائع، يا ألدو! صاح رينولد.

(1) تُكافأ الكلاب بعد الصيد، فتطلق الأبواق من جديد وتوزّع طرائد عليها، سواء أفي موقع الصيد مباشرة، أو لاحقاً في موقع آخر، أو خلال الليل «على ضوء المشاعل».

Twitter: @ketab_n

اتّخذ والدي صوته العذب ليسألهم ماذا يعنون بـ «مكافأة الكلاب على ضوء المشاعل». ارتسمت ابتسامة متأسّفة على وجه جان جيه الذي كان أسرف أكثر من الآخرين في الشرب.

- لأنّ السيّد لا يعرف ما هي «مكافأة الكلاب على ضوء المشاعل».

راح شوفير يشرح أنّه في هذه المناسبة، يرتدي الخدم سراول من الحرير وملابس من الطراز الفرنسيّ ويحملون مشاعل، فيما يقوم مطلقو أبواق... لم أكن أكاد أسمعه. كان صوته يتبدّد بين القهقهات وصيحات جان جيه وصديقتيه. كانت ماغي رينولد وزوجة لاندري تثرثران فيما بينهما، ولاندي يداعب خدّ زوجته برأس سبابته وهو يحدّث رينولد. أمّا جان جيه، فكان ألقى يده على كتف الفتاة الإنكليزيّة، من غير أن تبدي، لا هي ولا الشقراء أيّ استياء لهذا السلوك. وسط كلّ ذلك، كان شوفير يواصل خطابه بصوت يكاد لا يُسمع.

ماذا كنّا ننتظر أنا ووالدي؟ أما كان يجدر به اغتنام هذا التراخي الذي عمّ الحضور ليستدرج رينولد إلى زاوية

Twitter: @ketab_n

ويجعله يوقّع «الأوراق»؟ وبعد ذلك، كنّا سننسحب. لكنّه عوضاً عن ذلك، كان يدخّن سيجارة من غير أن يعكّر أي أمر برودة أعصابه. جالساً في عمق الكنبة، لم يكن يتحرّك قيد أنملة. لا بدّ من الإقرار بأنّه كان يعرف أكثر منّي المسار الواجب اتّباعه.

أذكى رينولد النار. كانت أحجار الطوب المرصوفة في الموقد الهائل الحجم تتوهّج بلون صارخ بعض الشيء. وكانت ألواح خشبيّة غليظة فاتحة اللّون تلبّس الجدران. وعلى الطاولة الخفيضة ثمّة ثقّالة ورق على شكل حدوة فرس وكتاب صور فوتوغرافيّة عن المدرسة الإسبانيّة للفروسيّة في فيينّا[1]. لاحظت أيضاً لوازم أخرى معروضة على الجدار، إلى يسار الموقد. ركابان، وشكيمة، وأسواط على اختلاف أصنافها. وكانت نقوش إنكليزيّة تصوّر مشاهد صيد بواسطة الكلاب وعربة المشروب الصغيرة على شكل عربة خيل، تُكمل هذا الديكور الفروسيّ.

كنت أجاهد بصعوبة لإبقاء عينيّ مفتوحتين. كنت أسمع همهمة أحاديث، يتخلّلها صوت والدي يقول بين

(1) Spanische Reitschule مدرسة شهيرة لترويض الخيول في فيينّا، تقدّم عروض فروسيّة وتعتبر قبلة سياحيّة في فيينّا.

Twitter: @ketab_n

الحين والآخر «آه بالطبع، هنري... أجل حتماً، هنري...» والإنكليزيّة تطلق قهقهات زاعقة. وفي نهاية المطاف، نهض شوفير:

- حسناً، أتمنّى لكم ليلة هنيئة.

قبّل بإصرار أيدي السيّدات. ثمّ انسحب جان جيه وصديقتاه بدورهم. أوصاهم رينولد باختيار الغرفة الكبيرة في الطابق الثاني إن أرادوا قضاء الليلة هناك، وإذا بدا لهم السرير فسيحاً بما يكفي لثلاثة أشخاص. كذلك انسحب الزوجان لاندري وهما يتبادلان نظرات غريبة ملؤها الإيحاءات. وفي مطلق الأحوال، لم يتوقّف لاندري طوال الأمسية عن مداعبة ساقَي زوجته.

- هل لديك مانع يا ألدو في أن ترقد في عرفة الطابق الأرضيّ مع ابنك؟ سأل رينولد والدي.

- لا، على الإطلاق هنري.

كانت غرفة خفيضة السقف، جدرانها بيضاء مطليّة بالكلس. لم يكن فيها أيّ قطعة أثاث، باستثناء سريرين توأمين من الطراز الريفيّ ومنضدتين ليليّتين. وُضعت أمتعتنا أرضاً.

Twitter: @ketab_n

فارقنا رينولد لحظة ليجلب مصباحاً ثانياً لإحدى المنضدتين.

- يجدر بك أن تكون لطيفاً وتذهب وتقبّل السيّدة رينولد، قال لي والدي.

خرجت من الغرفة وتوجّهت نحو القاعة الفسيحة التي تناولنا فيها العشاء. وجدت ماغي رينولد وحيدة أمام الموقد. بدت عليها الدهشة حين رأتني. قبّلتها على خدّها. أطبقت يداها حالاً على عنقي وشدّتا عليه بإلحاح، والتصقت شفتاها بشفتيّ. في سنّ الخامسة عشرة، لم أكن قبّلت امرأة بعمرها من قبل. راحت يدها تنزلق حتّى حزامي، محاولةً فكّه. تعثّرْتُ وسقطنا على إحدى الكنبات الإسكتلنديّة. وردتنا أصوات من الممشى. كانت تتخبّط، لكن لم يعد بوسعي الإفلات منها. استسلمْتُ لخدر غريب اجتاحني وأنا أعانقها، وجبيني ملتحم بصدرها. فكان لها تلك الشقرة المريحة الليّنة مثل شقرة بعض ممثّلات فرقة الكوميدي فرانسيز[1] اللواتي كنت أشاهدهنّ يلعبن في

(1) La Comédie-Française مسرح وطني فرنسي يتميّز بكونه له فرقة ممثّلين خاصّة به.

Twitter: @ketab_n

عروض صباح الأحد.

حين نهضنا، جرّتني خارج القاعة. كان رينولد ووالدي واقفين عند باب الغرفة. وكان والدي يعرض لرينولد ورقة مطبوعة على الآلة الكاتبة، والأخير يمسك بيده قلم حبر.

– هذا لك، بادرني رينولد، جلبته من أجلك. يجدر بك أن تطّلع عليه هذه الليلة.

ومدّ لي كتيّباً قرأت على غلافه «الصيد بواسطة الكلاب».

– طابت ليلتك، قال له والدي.

– طابت ليلتك ألدو. وشكراً على نصائحك. يمكنك الوثوق بنا. أمّا أنت، قال مشيراً إليّ بإصبعه، فسوف أجعلك تركب الخيل غداً صباحاً في ميدان التدريب لتتمرّن.

– طابت ليلتكما، قالت لنا ماغي رينولد وهي تتثاءب.

تمدّدنا على سريرينا التوأمين وأطفأ والدي المصباح فوق منضدته الليليّة.

– هذه المرّة، قال لي مشيراً إلى الورقة المطبوعة على الآلة

Twitter: @ketab_n

الكاتبة، صرت على وشك أن أوقع به شرّ وقعة. قليلاً من الصبر يا عزيزي. إنّهم فعلاً أشخاص مخيفون.

راح يقهقه، وكانت ضحكته معدية، فطمرنا رأسينا تحت الوسادات حتّى لا يسمعنا أحد.

غفا والدي بسرعة. أمّا أنا، ففتحت الكتاب وقضيت قسطاً من الليل أتعلّم ما هي تلك الرياضة المروّعة التي يطلقون عليها اسم «الصيد بواسطة الكلاب السلوقيّة».

في اليوم التالي، أيقظنا رينولد قرابة الساعة الثامنة. كان يرتدي سروال فروسيّة وطلب منّي أن أضع سروالي. ارتأى والدي أن ينتعل حذاءه المطاطيّ النعل.

بعدما تناولنا الفطور الذي كان رينولد يشير إليه بالإنكليزيّة، خرجنا من واجهة زجاجيّة وعبرنا حديقة مشذّبة بعناية، محاطة بسياج أبيض يرسم حدودها. وخلفها مرج شاسع ومربض للخيل من ثلاث مقصورات، وميدان دائريّ. وجدت الحصان مجهّزاً بسرجه ولجامه ولم يبقَ عليّ سوى ركوبه.

وقف رينولد في وسط الميدان، ووالدي على مسافة

Twitter: @ketab_n

بعيدة. كان خائفاً. أنا أيضاً، لكنّني كنت أحاول الحفاظ على برودة أعصابي أمام رينولد. كان يمسك بيده سوطاً. شقّ به الهواء باعثاً فرقعة مثل مدرّبي الخيول في سيرك، وانطلق الحصان خبباً.

- هيّا يا رجل! بعض العدْو من دون وضع قدميك في الركابين!

كان يتكلّم بصوت ضابط من ضبّاط سومور[1]. كان يرفع ذقنه ويلوّح بسوطه مجدّداً، محدثاً فرقعات بدون جدوى. لمجرّد المتعة.

- جرْي سريع! اضغط بركبتيك!

كان يقترب منّي ويضرب برفق على ربلتي وكاحلي الأيسر.

- يجب ألّا تتحرّك هنا! اضغط! اخفض كعبيك أكثر!

ثمّ يعود إلى وسط الميدان.

- لا تغرز قدميك في الركابين! اخفض الكعبين أكثر!

ويخبط بسوطه في الجوّ. ثلاث مرّات على التوالي.

(1) Saumur مدينة في شمال غرب فرنسا لها تقليد عريق في إعداد وحدات الفرسان في الجيش الفرنسي، تؤوي مدرسة سلاح الفرسان، وهي مدرسة عسكرية شهيرة، ومقرّ المدرسة الوطنية للفروسيّة.

Twitter: @ketab_n

لم يكن والدي يجرؤ على النظر إليّ. بل يقف خافضاً رأسه.

- إنّك صدئ قليلاً، صاح رينولد، لكنّك ستستعيد ما نسيته بسرعة. والآن اجرِ خبباً جلوساً!

والسوط من جديد. وبعد كلّ فرقعة، يحيّي جمهوراً خفيّاً حانياً رأسه.

- يمكنك الاقتراب، ألدو.

- لا هنري، أجاب والدي بصوت متردّد.

- الركبتان! اللعنة! ألم تفهم؟ عذْواً!

أخذ يتصرّف بشكل بغيض. يلوّح بسوطه، كأنّما ليشقّ ذبابة شطرين في الجوّ، وتنتهي حركته بصوت مفرقعة تنفجر.

استمرّ الأمر ساعتين طويلتين. تصوّر نفسك على حصان، تدور في حلقة من غير أن تدري السبب. والحصان أيضاً لا يدري. وفي وسط الميدان، رجل لا تكاد تعرفه يعطيك أوامر، حاملاً بيده سوطاً. ووالدك على مسافة بضعة أمتار، قلقاً وصامتاً، يتأمّل طرف حذائه المطّاطيّ النّعل.

Twitter: @ketab_n

- هذا يكفي للغد، قال لي رينولد وهو يربّت على كتفي.

كنّا أربعة أشخاص جالسين حول مائدة الفطور. رينولد، أنجيل دو شوفير، والدي وأنا. جان جيه من جانبه اصطحب لاندري وزوجته مع ماغي رينولد إلى «قصر عمّه» على بعد بضعة كيلومترات.

- كان يجدر بهم إخطارنا، رأى رينولد.

أثناء الغداء، أخرج والدي من جيب سترته الداخليّ ورقة قدّمها لشوفير.

- يمكنك أن توقّع، أنجيل، قال رينولد. غير أنّ والدي لم ينتظر بل مدّ لشوفير قلم الحبر الضخم الذي اشتريناه معاً في ممرّ الليدو.

- وقّع أنجيل. سوف يرى ألدو أنّنا لسنا مخادعين.

امتثل شوفير. نفخ والدي لتجفيف الحبر، ثمّ ثنى الورقة بعناية وأعادها إلى جيبه الداخليّ.

لا بدّ أنّه كان منفعلاً للغاية، هو الذي لا يمكن بالعادة تبيان ما يخالجه، لأنّني قرأت على شفتيه تلك الكلمات التي لم يسمعها أحد: «شرّ وقعة».

Twitter: @ketab_n

- انتهينا من المسألة، أعلن رينولد. والآن، لنذهب لإلقاء نظرة على كلاب الصيد.

كان رينولد يقود سيّارة الرينو. تبعنا طريقا ضيّقاً، وبعد حوالى عشر دقائق، توقّفنا أمام شاليه من الطراز الإنكلو-نورماندي[1]. كانت الكلاب في حقل مسيّج. راح نباحها يشتدّ شيئاً فشيئاً، متّخذاً حدّة مخيفة أرهقت أعصابي. وكانت تتوثّب على السّياج الحديديّ، وقفز والدي إلى الخلف.

- لا تخف ألدو، قال رينولد مطَمْئناً.

رفع شوفير كتفيه. كان يتكلّم إلى الكلاب ببذاءة صدمتني. اقترب رجل بخطى سريعة، مرتدياً بذلة زرقاء داكنة شبيهة ببذلة مسؤول عن محطّة قطارات. خلع قبّعته وأمسكها بيديه لصق صدره، حانياً رأسه ليلقي التحيّة على شوفير، من غير أن يعير رينولد أيّ انتباه.

- طابت أوقاتك، سيّدي الكونت.

- هل أنّ الكلاب متأهّبة؟ سأل شوفير.

(1) طراز معماريّ خاصّ بالجزر الأنكلو-نورمانديّة، وهي جزر تقع قبالة سواحل النورماندي الفرنسيّة في قناة بحر المانش، تابعة لبريطانيا.

Twitter: @ketab_n

- نعم، سيّدي الكونت.
- سيكون يوماً حافلاً غداً، قال شوفير وهو يفرك يديه.
- بالتأكيد، سيّدي الكونت!... وانشقّت شفتاه كاشفة عن فم أدرد.
- السيّد الدوق سيكون في غاية السرور، قال رينولد مستجدياً نظرة من الرجل، في محاولة مثيرة للشقفقة.

غير أنّ الأخير لم يعره أدنى اهتمام. بل صافح شوفير وابتعد.

- خادم الكلاب، قال لي رينولد بوقار.

بقينا أنا ووالدي واقفين أمام السّياج، نتأمّل الكلاب التي كانت تقفز وتنبح بقوة متزايدة. لو ظفرت بنا لَمزّقتنا دون تردّد، ولَما كان ذاك ذنبها، لقد غفرتُ لها مسبقاً. كان لأغلبها خطم عريض وأخنس، وعينان كبيرتان معبّرتان وبقع فاحتة اللون على فرواتها.

عدنا إلى «لا ميناندييز». أراد رينولد وشوفير القيام بقيلولة قصيرة، فبقينا أنا ووالدي في الصالون. هناك أعلن لي أنّه سيستقلّ قطار الساعة الرابعة عصراً إلى باريس. بدا وقد فوجئ حين قلت له إنّني أريد العودة معه.

Twitter: @ketab_n

- لكنّ رينولد مصرّ على أن تشارك في حملة الصيد، أجابني بصوت واهن.

كان يخشى أن يباغت رحيلي رينولد، فيستاء وتساوره ريبة مفاجئة. قال لي إنّه حصل على «كلّ التواقيع»، غير أنّه لا بدّ من مراعاة رينولد لبعض الوقت بعد، وإلّا فسوف نرحل «خائبين». ردّدت له أنّني أودّ العودة إلى بايس على الفور، وأنّني أرفض البقاء في هذه المنطقة الريفيّة يوماً إضافيّاً واحداً.

وعدني بأنّه سوف يفاتح رينولد بالأمر، وأنّه سيبتكر حجّه إن اقتضى الأمر، تبرّر عودتي على عجل.

انضمّ إلينا رينولد. أخبره والدي أنّ عليّ أن أكون في باريس في المساء ذاته لاستقبال عمّ قادم من فنزويلا.

- فكّرْ في المسألة مليّاً، قال لي رينولد بقدر من الصرامة. سوف يفوتك حدثٌ فريد من نوعه.

قام والدي بمحاولة ثانية، لكنّها كانت خجولاً إلى حدّ لم يقوَ معه حتّى على إكمال جملته.

عندها التفتُ إلى رينولد وتمتمت بصوت لا يكاد يسمع:

Twitter: @ketab_n

- سأبقى.

- خيار صائب، سيكون صيداً رائعاً، أجابني رينولد وهو يرمقني بنظره ملؤها الامتنان.

رافقنا والدي إلى القطار. كان رينولد يقود سيّارة الرينو، شوفير بجابنه، وأنا ووالدي على المقعد الخلفيّ. كان والدي يرتدي كما عند قدومنا معطفه الواقي من المطر الذي كان يكبّله ويجعله يبدو كتلة متراصّة. وكانت ملامحه تعكس إحساساً عارماً بالرضا. كنت ألاحظ بوضوح أنّه يكبت أحياناً رغبة في الضحك.

لم نتمكّن من تبادل كلمة واحدة على رصيف المحطّة. فشوفير ورينولد كانا قريبين جدّاً منّا.

- أعتمد عليك ألدو، قال رينولد لوالدي. لك كامل الصلاحيّات. أطلعْنا أنا وشوفير على المستجدّات. وأقسم لك أنّ بوسعك أن تثق بنا. لا تستمع إلى القيل والقال.

- بالطبع هنري، أجاب والدي بنبرةٍ ودود.

وإذ صعد إلى المقطورة، اغتنم لحظة ليهمس في أذني:

- هذه المرّة، أوقعت بهم فعلاً شرّ وقعة.

Twitter: @ketab_n

بدأ القطار يتحرّك. وراح يلوّح لي بذراعه. لم يعد بوسعه مساعدتي في شيء، على الرغم من كلّ طيبته.

سلكنا طريقاً غير الطريق المؤدّي إلى «لا ميناندير». وبعد وقت قصير، عبرنا بوّابة وتبعنا ممرّاً مفروشاً بالحصى ينحدر بشكل طفيف.

– لا بدّ لك من رؤية قصر الدوق، قالي لي رينولد، وأن نقدّم لك ميشال. غداً سيكون هو رئيس طاقمك.

كان قصراً مشيّداً بأسلوب معماريّ هجين ما بين النهضة والقرون الوسطى، فيه مرامٍ وأبراج ودعائم مزيّنة بالزخارف وقمريّات واسعة منحوتة. وكانت حديقة شاسعة تحيط به.

في الطابق الأوّل، دخلنا قاعة فسيحة معتمة، جدرانها مكسوة بتلبيسات خشبيّة. وجدت فيها الزوجين لاندري وجان جيه وصديقتيه جالسين في الكنبات. وفي عمق الموقد، بضع حطبات تجهز النار على ما تبقّى منها.

– العمّ ميشال لم يصل بعد، قال جان جيه بصوت بليد متشاكٍ.

بعد وقت، تركني رينولد وشوفير وحيداً برفقة

Twitter: @ketab_n

الآخرين. كان المساء يهبط، وبما أنّهم لم يشعلوا الكهرباء، كنّا غارقين في شبه عتمة. أعتقد أنّ لاندري كان ينتهز الأمر ليداعب زوجته التي كانت تنّورتها المرفوعة تكشف عن فخذيها. فيما جان جيه لا يزال يداعب بمللٍ الإنكليزيّة والشقراء. أمّا أنا، فكنت أتساءل ما الذي أفعله هناك، في عرين «رامي فرنسا الأوّل»، غير أنّ بلادة ثقيلة كانت تسمّرني إلى مقعدي.

مضى الوقت. ثمّ عاد رينولد مع زوجته وشوفير. في تلك الأثناء، كانوا أشعلوا المصابيح. أدركت أنّنا كنا ننتظر الدوق لتناول العشاء. دخل علينا بعد نصف ساعة. رجل قصير القامة منتصب كالرمح. رأسه شبيه برأس كلب من صنف بولتيرييه[1]، بأنفه القصير الأفطس وعينيه الكبيرتين الفاتحتين وخدّيه المتراخيين المتدلّيين. كان له بشرة أصهب وشعر مشعّث، وكان يتكلّم بصوت جهوريّ. عرّفه رينولد عليّ لكنّه لم يكد يحيّيني.

كنت أودّ رؤية الدوقة، لكنّها لم تكن حاضرة في تلك

(1) Bull-terrier صنف كلاب من أصل إنكليزيّ وليد تهجين بين البولدوغ والتيرييه، يتميّز برأسه البيضاويّ الشكل.

Twitter: @ketab_n

الليلة. حلّت محلّها سمراء عجفاء، تلقي حولها نظرات متلصّصة مترقّبة مثل أولاء الممثّلات المبتدئات الطامحات للشهرة. كان الدوق يمسك بيدها بين الحين والآخر. كان اسمها مونيك.

دار الحديث من جديد خلال العشاء حول الصيد، وحملة توزيع الطرائد على الكلاب على ضوء المشاعل المزمعة في الغد، وقد اختار الدوق للتوّ الموقع الذي ستجري فيه. أخذ رينولد يتكلّم على طريقة جان جيه، لافظاً الأحرف بأطراف أسنانه، وكان يدعو الدوق – هل كان فعلاً دوقاً؟ – «عزيزي ميشال»، فيما يناديه جان جيه «العمّ ميشال» بنبرة وقورة فيها الكثير من السخرية.

فهمت من حديثهم أنّ الدوق رجل دؤوب منضبط، عضو في نادي «جوكي كلوب» ونادي السيارات وجمعيّة فرسان تاستوفان في بورغونيا[1].

كانوا يتجاهلون وجودي تماماً، وكنت مسروراً بذلك

(1) Confrérie des chevaliers du Tastevin أو «جمعيّة فرسان تاستوفان» هي جمعيّة من بورغونيا تعنى بالحفاظ على تقاليد هذه المنطقة الفرنسية والترويج لنبيذها المعروف. وكلمة «تاستوفان» بالفرنسية هي لعب على الكلام معناه تذوّق النبيذ.

Twitter: @ketab_n

للغاية. نسوا حتّى أن يقدّموا لي أصناف الخبيصة بالطرائد وأطباق اللحوم بالصلصة وأنواع النبيذ المثقلة بالكحول التي ما كان جسدي الرهيف سيتحمّلها.

افترقنا قرابة الساعة العاشرة، ونصح الدوق بنبرة مرحة مليئة بالإيحاءات بتفادي أيّ «تجاوزات» خلال الليل حتّى يكون الجميع بكامل جهوزيّتهم للصيد. تبعته المرأة السمراء.

لم يغمض لي جفن طوال الليل، وفي صباح اليوم التالي، كنت قد نهضت حين دخل رينولد الغرفة. كان يرتدي بذلة طاقم الدوق، بذلة حمراء تزيّنها أشرطة ذهبيّة، وبدا أشبه بمروّض الحيوانات المفترسة ذاك في سيرك ميدرانو، الذي كنت معجباً به في طفولتي. تناولوا جميعهم فطوراً عارماً فيما اكتفيت بشرب كوب من المياه المعدنيّة. كان شوفير يرتدي البذلة ذاتها مثل رينولد، وكذلك لاندري وزوجته. بدوتُ نشازاً بينهم. كنت أستشفّ إثارة جامحة في ملامح ماغي والسيّدة لاندري.

– هل أنتِ جاهزة حبيبتي؟ سأل لاندري بعذوبة وهو يداعب يد زوجته.

Twitter: @ketab_n

- آه أجل، إنّني متلهّفة لمشاهدة ذلك!
- أنا أيضاً، قالت ماغي رينولد متنهّدة.

كان شوفير يصفّر لحناً. نهض رينولد.

- حان الوقت للذهاب إلى «مكان التجمّع»، قال.
- الموعد عند مفترق بيرنغيم، قرب استراحة الصيّادين، أعلن شوفير.

تكدّسنا في سيّارة الرينو وكان رينولد يقودها. كانت خمسة أحصنة تنتظر أمام الاستراحة، يمسكها فتيان المربض بألجمتها.

- أنت خذ ريكس، قال لي رينولد بنبرة قاطعة، مشيراً إلى حصان كُمَيت كبير.

وصلنا باكراً قبل الموعد. دخلنا الاستراحة التي كان بناؤها على شكل معبد بوذيّ. على الجدار، رأس خنزير بريّ محنّط يبتسم بشفتيه البشريّتين. وفي الموقد أُشعِلت نار.

كان هناك بندقيّة معلّقة فوق الموقد. تناولها رينولد وأراد أن يشرح لي كيفيّة استخدامها. قام بتلقيمها. كانت تلك أوّل مرّة في حياتي يلقّنني فيها أحدهم درساً في الرماية

Twitter: @ketab_n

أنصت إليه بانتباه. أخذ أعضاء فريق الصيد يتوافدون تباعاً، في بذلاتهم الحمراء والذهبيّة.

– هيّا يا صديقي! حان وقت امتطاء الأحصنة! قال لي رينولد.

في الخارج، كان شوفير يقبّل يد سيّدة محاطة بكثير من الاهتمام، وجهها ذكوريّ كوجوه الأرامل العريقات النسب، وشعرها فضيّ. وجان جيه والإنكليزيّة والشقراء يتنادون عن صهوات أحصنتهم وهم يضحكون. ولاندري يمدّ الرِكاب لزوجته. ورينولد وماغي يقتربان من الدوق الذين كان يحثّ حصانه ليشبّ، وكان حصاناً أبيض هائلاً. وحوله تتراقص وتدور البدلات الحمراء والذهبيّة. أخيراً، جاء شابّ مكشوف الرأس، موكّل بكلب مدرّب للبحث عن الطرائد، ليعلن أنّ الأيّل في غابة «ليتوال»، غابة صغيرة من أشجار البيتولا، على مقربة، إلى اليمين.

أمسكت البندقيّة وانسللت إلى الخارج. ركضت حوالى كيلومتر، حتّى غابة صغيرة من أشجار البيتولا، ربّما الغابة ذاتها التي كان كلب الصيد يقود الفرقة إليها. تمدّدت

Twitter: @ketab_n

على بطني، وسط رائحة التربة البليلة وأوراق الأشجار المتساقطة.

كنت أفكّر في والدي مردّداً لازمته المعبّرة: «سوف أوقع بهم جميعهم شرّ وقعة». أجل، كان يكشف عن سطحيّة قصوى وطيش مؤثّر. فالأمور أكثر خطورة وفظاعة بكثير ممّا يظنّ. اطّلعت بالطبع في كتيّب رينولد على مجرى العمليّات بدقّة. سيبدأ كلّ شيء بالأبواق معلنةً الهجوم. ماذا سيفعل قطيع الكلاب؟ يجب ألّا أرتجف. والأهمّ أن أحاول إصابة هدفي. مع الحرص على عدم إطلق النار على النساء، مهما يكن. ستكون ضربة حظّ إن تمكّنت من تفجير رأس رينولد أو رأس الدوق من المحاولة الأولى. أو ربّما رأس لانْدري. أو جان جيه. عندها سيهرع الجميع مع كلابهم وقادتها، وبالرغم من أنّنا في قلب فرنسا، في سولونيا، سيكون الأمر كأنّما في وارشو.

Twitter: @ketab_n

6

كان ذلك في مساء يوم من مطلع شهر أكتوبر عام ألف وتسعمائة وثلاثة وسبعين. يوم سبت، في الساعة السابعة. في مكتبة شارع ماريفو حيث كنت، كان مذياع يدور. انقطعت الموسيقى فجأة وأعلنوا استئناف الحرب، في الشرق الأوسط، بين العرب واليهود.

خرجْتُ من المكتبة متأبّطاً بعض الأجزاء القديمة من مسرحيّات بورتو ريش[1]. كنت أمشي مسرعاً، من غير وجهة محدّدة. رغم ذلك، أذكر أنّني عبرت أمام كنيسة لا مادلين، وسلكت جادّة أوسمان.

شعرت في ذلك المساء بأنّ شيئاً يشارف على نهايته. هل كان هو شبابي؟ كان لديّ يقين بأنّ الأمور لن تعود كما من

(1) Georges de Porto-Riche جورج دو بورتو ريش (1849–1930) كاتب مسرحيّ وشاعر فرنسيّ.

Twitter: @ketab_n

قبل على الإطلاق، ويمكنني حتّى أن أحدّد تماماً اللحظة التي تغيّر فيها كلّ شيء بالنسبة لي: عند خروجي من المكتبة. لكن لا بدّ أنّ القلق ذاته انتاب العديدين غيري في تلك اللحظة ذاتها. ففي ذلك المساء بدأ ما يُعرف بـ «الأزمة»، ودخلنا حقبة جديدة.

كان الوقت ليلاً. في ساحة سانت أوغستان، كانت أحرف تتلألأ على شرفة أحد المباني: «جان غاتينو[1]». كان هناك بعض الضوضاء في الساحة، ومشيت بمحاذاة واجهة متجر كنت أقصده حين كنت طفلاً لأجرّب أحذية وسترات واقية من المطر ذات قلنسوة للشتاء. ألفيتُني في مطلع جادّة ميسين، فسلكتها من غير أن ألاقي أحداً. كنت أنصت إلى ارتعاش أوراق أشجار الدلب. في الأعلى، عند طرف الجادّة، قبل بوّابة حديقة مونسو الذهبيّة الضخمة، مقهىً نسيت اسمه. جلست إلى إحدى الطاولات، على الرصيف المزجّج، وأمامي شارع لشبونة بواجهاته المصطفّة في خطّين مستقيمين نحو الأفق. طلبت فنجان قهوة إكسبرسّو. كنت أفكّر في الحرب، وأتابع

(1) Jeanne Gatineau معهد جان غاتينو للتجميل.

Twitter: @ketab_n

بنظري سقوط ورقة شجرة ببطء، ورقة يابسة هوت من شجرة الدّلب قبالتي.

كنّا زبونين لا غير في تلك الساعة المتأخّرة. وقد أطفأوا مصابيح النيون في الصالّة، فيما مصباح الرصيف لا يزال يصبّ علينا نوراً حادّاً.

كان جالساً بقربي، على مسافة طاولتين أو ثلاث، يتأمّل واجهة أحد المباني في الجانب الآخر من الجادّة، رجل ستّينيّ، يرتدي معطفاً كحليّاً قصّته بالية، خالية من أيّ أناقة. أذكر ذلك الوجه المنتفخ قليلاً، العينين المستديرتين الفاتحتين، الشاربين والشعر الرماديّ المُسرّح بعناية إلى الخلف. كان يحتفظ بسيجارة بين شفتيه، يمجّ منها ساهماً. على طاولته، كوب نصف مليء بسائل ورديّ. لا أعتقد أنّه تنبّه إلى وجودي. لكنّه في لحظة ما، أدار رأسه صوبي، وما زلت أتساءل إلى اليوم إن كنت لاقيتُ نظرته. هل رآني؟ ارتشف جرعة من مشروبه الورديّ. كان يواصل تأمّل واجهة المبنى، ربّما في انتظار أن يخرج منه أحدهم. راح ينقّب في كيس بلاستيكيّ موضوع عند أسفل كرسيّه، وأخرج منه رزمة صغيرة على شكل هرم، لونها أزرق سماويّ.

Twitter: @ketab_n

نهضت وتوجّهت صوب مقصورة الهاتف. تحقّقت في دليل عام 1973 من عنوان شخص كنت على موعد معه في اليوم التالي، ثمّ بحثت عن أسماء أخرى كنت أختارها عشوائيّاً. كان العديد من هؤلاء الأشخاص الذين يذكّرونني بماض غابر، مدرجين مجدّداً في قائمة زبانية الهاتف، وصادفت مفاجأة تلو الأخرى: كاتوني دو فيت، المتواري تماماً منذ خمسة عشر عاماً، ظهر مجدّداً في الرقم 80 جادّة فيكتور هوغو – باسّي 47–22. بالمقابل، اختفى أثر «رينولد» و«دوغلاس إيبن» و«تودي فيرنر» و«جورج ديسمعيلوف»، والعديدين غيرهم الذين سنعثر عليهم مجدّداً ذات يوم. أجد أحياناً متعة في القيام بتلك التحقيقات غير المجدية. استمرّ الأمر حوالى ربع ساعة، أو ربّما عشرين دقيقة.

حين عدت إلى رصيف المقهى، كان الرجل ذو المعطف الكحليّ منحنياً فوق الطاولة، وصدره ورأسه ملقيّان عليها. وكان بوسعي رؤية أعلى جمجمته. وكانت ذراعه اليمنى متدلّية، وذراعه اليسرى مثنيّة، وكأنّها تحمي كوب شراب الرمّان والكيس البلاستيكيّ، مثل تلميذ في

Twitter: @ketab_n

امتحان لا يرغب في أن يسترق جاره النظر إلى إجاباته. لم يكن يتحرّك. سدّدت ثمن فنجان الإكسبرسّو. ربّت النادل على كتفه بخفّة، ثمّ هزّه بحركة أكثر تصميماً، من غير أن يحصل على أيّ ردّ فعل. وبعد وقت، بات لا بدّ من الإقرار بأنّه ميت. استدعوا شرطة الإسعاف. بقيت واقفاً قرب طاولته بذهول، أتأمّله. كان كوبه فارغاً، والكيس البلاستيكيّ مفتوحاً قليلاً. ترى ماذا كان يحوي؟ كان النادل ورجل بدا أنّه صاحب المقهى، أصهب سمين يرتدي قميصاً أبيض مفتوح الياقة، يتساءلان كلّ من جانبه كيف يمكن أن يكون حصل ذلك، متكلّمين بصوت يزداد حدّة وانفعالاً.

توقّفَت عربة الشرطة من جانب شارع مونسو، وانضمّ إلينا شرطيّان ورجل آخر باللباس المدنيّ. أدرت لهم ظهري. أعتقد أنّهم كانوا يتثبّتون ممّا إذا كان الرجل توفّي فعلاً.

طلب منّي الشرطيّ باللباس المدنيّ أن أتبعه بصفتي «شاهداً»، ولم أجرؤ على القول له إنّني لم أشاهد شيئاً. كان صاحب المقهى يتصبّب عرقاً ويحدّق بي بنظرة قلقة.

Twitter: @ketab_n

كان يظنّ على الأرجح أنّني سأرفض، لأنّني حين أجبت بأنْ «نعم»، أطلق تنهّدة وهزّ رأسه في إشارة امتنان. قال لهم: «السيّد سيشرح لكم كلّ شيء»، مترقّباً رحيلنا بفارغ الصبر. حملوا الرجل على نقّالة إلى حافلة الشرطة. وكنت أتبعهم، ممسكاً بيدي الكيس البلاستيكيّ.

سلكت الحافلة شارع ليسبون. راحت تسير بسرعة متزايدة عابرةً ذلك الشارع المقفر، وتوجّب عليّ التمسّك بحافّة المقعد حتّى لا أسقط أرضاً. كان الشرطيّ باللباس المدنيّ جالساً على المقعد المقابل. رجل أشقر له رأس خروف، وشعره مسرّح في خصل متماوجة. وكانت النقّالة بيننا. كنت أشيح بوجهي بحيث لا أنظر إلى الرجل. قدّم لي الأشقر ذو رأس الخروف سيجارة رفضتها. كانت يدي اليسرى لا تزال مطبقة على الكيس البلاستيكيّ.

سألوني في مركز الشرطة كيف حصل الأمر وطبعوا إفادتي على الآلة الكاتبة. لم يكن شيئاً يذكر. شرحت لهم أنّ الرجل انهار على الطاولة بعد قليل على تناوله شراب الرمّان. فتّشوا في الكيس البلاستيكيّ الأسود، فأخرجوا منه آلة تسجيل صوتيّ صغيرة من نموذج متطوّر، والرزمة

Twitter: @ketab_n

الزرقاء السماويّة على شكل هرم التي سبق أن لاحظتها. كانت تحتوي على قطعة حلوى من الصنف المعروف باسم «ميل فوي».

عثروا في قعر إحدى جيوب سترته على غلاف جلديّ كبير يحتوي على بطاقة هويّته، وصورة قديمة، ووثائق أخرى مختلفة. هكذا علِمنا أنّه يدعى أندريه بورلاغوف، من مواليد 1913 في سان بيترسبرغ. كان فرنسيّاً منذ العام 1934، ويعمل لحساب محلّ لتأجير آلات للتسجيل الصوتيّ في شارع بيري. كانت مهمّته تقضي بالذهاب إلى منازل الزبائن لجلب الآلات حين لا يردّونها في المهلة المحدّدة. وكان يتقاضى لقاء ذلك أجراً زهيداً. كان يسكن شقّة مفروشة في شارع كونفونسيون، في الدائرة الخامسة عشرة.

كانت الصورة في حال من التلف الشديد، وتعود إلى ما لا يقلّ عن خمسين عاماً، بحسب ما تدلّ عليه الملابس والديكور. يظهر فيها رجل وامرأة شابّان جالسين على كنبة، مظهرهما يشير إلى نسب عريق، وبينهما طفل مجعّد الشعر عمره حوالى سنتين.

Twitter: @ketab_n

كان هناك بطاقة تتعلّق بآلة التسجيل التي كان بورلاغوف يحملها في كيسه البلاستيكيّ. وعليها عنوان الزبون الذي استأجر الآلة: 45 شارع كورسيل، واسمه والثمن الذي دفعه. وعليه، فعندما جلس بورلاغوف على رصيف المقهى، كان قادماً من الرقم 45 في شارع كورسيل، الواقع على مقربة إلى أسفل الشارع.

أطلعوني على كلّ تلك المعلومات في مبادرة تطوّعية. كنت سألتهم لأنّني وددت معرفة اسم ذلك الرجل وبعض التفاصيل الإضافيّة إذا أمكن.

خرجت من مركز الشرطة. كانت الساعة العاشرة مساء. عبرت مرّة جديدة ساحة سانت أوغستان وكانت أحرف كلمتي «جان غاتينو» لا تزال تلتمع على شرفة المبنى بوهج يلطّفه الضباب. بعد مسافة، تردّد وقع خطاي تحت قناطر ساحة ريفولي المقفرة. توقّفت عند طرف ساحة الكونكورد. ذلك الضباب كان يبعث فيّ القلق. كان يغلّف كلّ شيء بوشاح من الصمت، المصابيح والنوافير المضاءة والمسلّة وتماثيل المدن الفرنسيّة. وكانت تنبعث منه رائحة أثير.

Twitter: @ketab_n

فكّرت في الحرب التي اندلعت من جديد في ذلك اليوم في الشرق، وكذلك في أندريه بورلاغوف. هل استقبله الزبون بأدب قبل قليل، حين جاء لأخذ آلة التسجيل والمطالبة بكلفة تأجيرها؟

عمل بغيض ومجحف للغاية ذاك الذي كان يزاوله أندريه بورلاغوف. تُرى أيّ مسار تبع من شقّته المفروشة في شارع لا كونفونسيون، وصولاً إلى الرقم 45 شارع كورسيل؟ هل قطع المسافة مشياً؟ لا بدّ في هذه الحالة أن يكون عبر جسر بير حكيم، ومن فوق رأسه جلبة قطارات المترو العابرة.

بدأت إذن تلك الحياة في روسيا، في سان بيترسبرغ، في العام 1913. واحد من تلك القصور المغراء على ضفاف النهر. ارتقيت مجرى الزمن حتّى تلك السنة، وانسللت من فتحة الباب إلى غرفة الطفل الفسيحة المطليّة باللون الأزرق السماويّ. كنتَ نائماً، ويدك الصغيرة خارج المهد. يبدو أنّك قمت اليوم بنزهة طويلة حتّى حديقة تافريتشيسكي[1]، وأنّك تناولت عشاءك بشهيّة. الآنسة

(1) حديقة شاسعة في وسط سان بيترسبرغ.

Twitter: @ketab_n

كودروز أخبرتني بذلك. هذا المساء، سنبقى في المنزل، أنا ووالدتك، برفقة بعض الأصدقاء. الشتاء على الأبواب، وسنذهب معك على الأرجح لقضاء بضعة أيّام في القرم، أو في الفيلّا في نيس... لكن ما الجدوى من وضع خطط والتفكير في المستقبل؟ هذا المساء، لا تزال ساعة الجدار في الرواق تدقّ الساعات بصوتها البلّوريّ. إنّها تسهر على نومك وتحميك، مثل الأضواء المتلألئة هناك، من ناحية الجزر.

Twitter: @ketab_n

7

آه أجل! كانوا يعرضون في جلسة إضافيّة في دار السينما الصغيرة تلك في حيّ تيرن فيلم «قبطان بِحار الجنوب».

كان ذلك في مساء يوم سبت من شهر أغسطس في باريس. بعد انتهاء الفيلم الرئيسيّ، غادر معظم المشاهدين الصالة ولم يبق فيها سوى حوالى عشرة أشخاص. حين أطفأوا الأضواء، شعرتُ بانقباض في جوف صدري.

كانت مقدّمة الفيلم تجري وفق أسلوب قديم: صفحات مفكّرة تنقلب ببطء، على وقع موسيقى عذبة. كانت الأحرف مكتوبة بخطّ متطاولٍ مصبوغٍ بلون ضارب إلى السّمرة. وكان اسم بيلّا يتقدّم اسم بروس تيليغين، مع أنّهما كانا يتقاسمان بطولة ذلك الفيلم. أمّا اسمي أنا، فكان يلي اسم المصوّر، مع الإشارة التالية:

Twitter: @ketab_n

«اقتباس» و«حوار». وفي النهاية، على صفحة أخيرة، يظهر بأحرف قوطيّة حمراء باهرة: «قبطان بِحار الجنوب».

نرى يختاً فسيحاً يبحر مسرعاً نحو جزيرة لا تزال بقعة صغيرة خضراء في الأفق. ونرى بيلّا واقفة في مقدّم المركب، وشعرها يتطاير في الريح. زمرّد البحر يتداخل مع زرقة السماء فارشين لونيهما الصارخين أكثر من الطبيعة. واجهنا مشكلات كبرى بخصوص اللّون. الصوت أيضاً لم يكن ممتازاً. ولا التمثيل في مطلق الأحوال. القصّة نفسها لم يكن لها مغزى كبير. لكن في ذلك المساء، داخل تلك الصالة شبه المقفرة، وأنا أشاهد عرض «قبطان بحار الجنوب»...

قبل سبع سنوات من ذلك، اتّصل بي منتج يدعى إيفون ستوكلين في وقت متأخّر من الليل، طالباً منّي ملاقاته في اليوم التالي في منزله. قال إنّنا سوف نبحث في «مشروع». لم أكن أعرف ستوكلين ذاك، وغالباً ما تساءلت بأيّ صدفة علم هو نفسه بوجودي.

استقبلني في شقّة على جادّة بينا، خالية من أيّ أثاث. تبعته عبر صفّ الغرف الفارغة حتّى وصلنا إلى صالون

Twitter: @ketab_n

فيه مقعدان قابلان للطيّ. جلسنا الواحد مقابل الآخر. أخرج من جيبه غليوناً، أشعله وسحب منه مجّة، محتفظاً به بين أسنانه. لم يكن بوسعي تحويل عينيّ عن ذلك الغليون، فهو كان الشيء الوحيد الثابت والمطَمْئن في وسط فراغ ذلك الديكور الموحش. علمت لاحقاً أنّ أيفون ستوكلين كان يقضي ليالي كاملة جالساً في سريره، يدخّن الغليون. كانت تلك وسيلته الخاصّة لمواجهة التقلّبات والأوهام الملازمة لطبيعة عمله كمنتج. حياة برمّتها أهدرها على سراب... حين يدخّن غليونه، يحسّ أخيراً بأنّه رجل له وزن، «صخرة»، وبأنّه كما كان يقول «يلملم حطامه».

في ذلك المساء، عرض عليّ «فكرته» منذ بداية لقائنا.

كان يريد اقتباس رواية للسينما. وعوضاً عن التوجّه إلى أحد كتّاب السيناريو أولئك الذين «يتصدّرون الواجهة» والذين غالباً ما تعامل معهم، وقد ذكر لي اسمين أو ثلاثة أسماء باتت منذ ذلك الحين طيّ النسيان، فضّل إعطاء الحريّة المطلقة لـ «شابّ»، هو فضلاً عن ذلك «كاتب». كان ذلك كتاباً «مذهلاً» حصل للتوّ على حقوقه: «قبطان بِحار الجنوب» *Capitaine des Mers du Sud* . لكن بما أنّ

Twitter: @ketab_n

الإنتاج مشترك تطغى فيه أغلبيّة إنكليزيّة-هولنديّة، فإنّ عنوان الفيلم سيكون: *Capitain Van Mers du Sud*[1]. فهل أقبل بالـ «صيغة»؟ لا بدّ لي معه من حسم أمري على وجه السرعة، و«مغمض العينين». فلا أحد يندم أبداً على العمل معه. نعم أم لا؟

حسناً، كان الجواب «نعم».

في هذه الحالة، فإنّ السيّد جورج رولنر، المخرج، كان في انتظارنا لتناول العشاء في مطعم بريه كاتلان[2].

كانت الفرقة الموسيقيّة تعزف أنغام فالس، فيما رولنر مسترسل بالكلام بسرعة وإسهاب. كان يردّد لستوكلين أنّها فكرة جيّدة أن يستعين بـ «شاب» مثلي. كان كلاهما تخطّى الخمسين حتماً. علمت فيما بعد أنّ ستوكلين بدأ عمله في السينما في شركة باتيه ناتان[3]. لم يكن اسم رولنر غريباً عليّ. فهو حقّق نجاحات تجاريّة في الخمسينيّات، وعلى الأخص مع فيلم مؤثّر للغاية حول حياة الجرّاحين. انتقل شيئاً فشيئاً إلى الإخراج، بعدما عمل مدير إستديو،

(1) هو العنوان ذاته، مكتوباً هنا في مزيج من الفرنسية والهولنديّة.

(2) Le Pré Catelan مطعم فخم في غابة بولونيا في باريس.

(3) Pathé-Natan شركة فرنسيّة للإنتاج السينمائي.

Twitter: @ketab_n

ومساعداً، ومدير إنتاج. وبقدر ما كان ستوكلين يوحي بصلابة خادعة، بجمجمته العريضة ووجهه المحتقن وعينيه الزرقاوين (كان يدّعي أنه متحدّر من منطقة سافوا)، كان رولنر ينشر حوله سحراً هشّاً ينبعث من عينيه السوداوين وقامته وابتسامته. كان العشاء يشارف على نهايته، حين طرحت أخيراً سؤالاً يتعلّق بـ «الرواية».

أخرج رولنر على الفور كتاباً من قطْع صغير جدّاً من جيب سترته ومدّه لي. كانت الرواية تعود إلى العام 1907 ونشرها إدوار غيّوم ضمن سلسلته الشعبيّة «لوتوس ألبا».

– أعهد إليك بـ «قبطان بحار الجنوب»، قال لي مبتسماً. وآمل أن ننجز معاً عملاً ممتازاً.

في اليوم التالي، وقّعت عقدي عند ستوكلين، بحضور رولنر. تقاضيت ستّمائة ألف فرنك قديم مباشرةً، على أن يرد اسمي على لافتة الفيلم والملصقات الإعلانيّة وأن أتقاضى نسبة 2 بالمائة من «ألارباح الصافية بعد حسم تكاليف الإنتاج». قرّر ستوكلين أن أذهب في اليوم التالي مع رولنر إلى بور كرو[1] حيث سيتمّ تصوير الفيلم. هناك

(1) Port-Cros واحدة من مجموعة جزر على سواحل فرنسا المتوسّطيّة في منطقة البروفانس، تعرف بجزر يير Iles d'Hyères.

Twitter: @ketab_n

سوف نعمل على السيناريو الذي كان من الضروريّ «إتمامه» بأسرع ما يمكن. على أن يبدأ تصوير اللقطات في الشهر التالي. كان الفريق الفنّيّ جاهزاً. لم ينتهوا بعد من توزيع الأدوار، لكنّها كانت مسألة أيّام.

في بور كرو، نزلنا أنا ورولنر في فندق صغير في عمق خليج. عرض عليّ أن أعمل وحيداً من جهتي لمدّة أسبوع. قال إنّه يترك لي «الحريّة الكاملة»، ونصحني بأن أكتب مباشرةً «سلسلة حوارات».

كان الكتاب صغير الحجم وأحرف الطباعة فيه مجهريّة حتّى أنّني اضطررت إلى الإقرار بالأمر: لن يكون بوسعي قراءة «قبطان بحار الجنوب» دون الاستعانة بعدسة مكبّرة. لم يكن هناك أيّ عدسة مكبّرة في الفندق. فاستأجرنا زورقاً بمحرّك وذهبنا إلى جيان[1]. لم نجد مطلبنا هناك أيضاً. وجد رولنر الأمر طريفاً على ما بدا عليه. لم يكن لديه أيّ مانع في أن نمضي حتّى تولون لمواصلة بحثنا. لكن من حسن حظّنا أنّني عثرت عند بائع نظّارات على عدسة مكبّرة.

(1) Giens شبه جزيرة على ساحل فرنسا المتوسّطي.

Twitter: @ketab_n

كنت أنهض متأخّراً، وأعمل في العصر. كانت قصّة قراصنة تجري وقائعها في القرن الماضي، لكنّ رولنر كان مصرّاً على أن ننقلها إلى زمننا الحاضر. وحين أريد الترويح عن نفسي، كنت أنضمّ إليه في جون صخريّ صغير اكتشفَه. كان يغطس دون توقّف المرّة تلو الأخرى من أعلى صخرة على شكل هرم. كان ينفّذ حتّى «غطسة الملاك» بكثير من الخفّة. شرح لي أنّه لطالما علّق أهميّة كبرى على الغطس ورأى فيه قدرة على الشفاء. كانت هذه برأيه أفضل وسيلة «لتجديد طاقتنا».

خُيّل لي في نهاية المطاف أنّنا نقضي عطلة معاً، مثل صديقين قديمين. كان الطقس مشرقاً، والمكان لا يزال خالياً من السيّاح في شهر يونيو ذاك. كنّا نتناول العشاء على سطيحة الفندق، في مواجهة الخليج. وكان رولنر يروي لي خدمته في القوّات الجويّة الملكيّة إبّان الحرب، الحدث الأهمّ في حياته. تطوّع للخدمة لأنّه كان يريد أن يثبت لنفسه كما للآخرين أنّه «يمكن للواحد أن يكون يهوديّاً وأن يكون طيّاراً بارعاً». وهو ما كان فعلاً.

أتممت «اقتباس» رواية «قبطان بحار الجنوب» في خمسة

Twitter: @ketab_n

عشر يوماً. أعترف بأنّ الصفحات الثلاثين الأخيرة كانت رديئة. وحين طلب منّي رولنر أن أقرأ له نصّي، تخوّفت كثيراً. فلم يسبق لي أن قمت بهذا النوع من العمل، وكنت أخشى خصوصاً ألّا يستحسن «التقطيع» الذي قمت به. (الواقع أنّني التزمت بدقّة بتسلسل الكتاب، فقرة تلو الأخرى). كلّما كنت أتقدّم في قراءتي، كان انتباه رولنر يتراخى. كان يفكّر في أمور أخرى. حين انتهيت، هنّأني. «عمل حيّ جدّاً ومكتوب بطريقة ممتازة»، قال لي بصوت فيه الكثير من المودّة. وبعد لحظة من التأمل، سأل:

– ألا يمكنك إضافة جملة في مكان ما ضمن الحوارات؟

– بلى، بالتأكيد، أجبت مندفعاً.

– حسناً... في لحظة ما، يقول الرجل: «تصوّر سيّدي أنّ بإمكان المرء أن يكون يهوديّاً وأن يكون طيّاراً بارعاً»...

لم تكن تلك الملاحظة على أدنى صلة بالقصّة، لكنّني تمكّنت رغم ذلك من حشرها داخل الحوارات على لسان البطل.

كان رولنر مصرّاً للغاية عليها. لا بل كان ذلك الشيء

Twitter: @ketab_n

الوحيد الذي يهمّه، إذ بدا جليّاً أن فكرة تصوير ذلك الفيلم كانت تدفع به إلى حالة من البلادة الخدرة.

وصل الفنّيّون – فريق محدود جدّاً – في مساء يوم أحد، محمّلين بكلّ المعدّات. كان اليخت الذي سوف تُصوّر على متنه المشاهد الأولى راسياً في الميناء. وقد استأجره مدير الإنتاج من بارون بلجيكيّ. وصل ممثّلو الأدوار الثانويّة (ثلاث نساء ورجلان) إلى الجزيرة يوم الثلاثاء التالي.

كنّا في انتظار النجمين بيلّا ف. وبروس تيليغين.

في منتصف العصر، توقّف مركب ضخم بمحرّك أمام الجسر العائم المؤدّي إلى الفندق. نزل منه رجلان يحملان نقّالة فيما راح ثالث يحمّل كميّة من الحقائب الجلديّة بلون أمغر متّقد ويضعها على الرصيف. كنّا جالسَين، أنا ورولنر، على سطيحة الفندق، وأعتقد على ما أذكر أنّنا كنّا برفقة المصوّر ومساعدة المخرج. اقترب الآخرون. وعرفنا على الفور الرجل الذي كانوا يحملونه على النقّالة: كان بروس تيليغين. نهض رولنر وأشار له بيده. كان ذقن تيليغين مكسوّاً بلحية لم يحلقها منذ ثلاثة أيّام، ووجهه يتصبّب عرقاً. وكان يرتعد من شدّة الحمّى. حين رأى

Twitter: @ketab_n

رولنر، قال له بالإنكليزيّة بصوت كليل:

- جورج رولنر، إن لم أكن مخطئاً؟

لكنّ الرجلين واصلا جرّه إلى غرفته. كان يلازم الفراش وأوضح لي رولنر أنّ تيليغين يعاني من تبعات إصابة قديمة بالملاريا وأنّ ذلك قد يهدّد الفيلم. لكنّه كان يحبّه ويصرّ على اختياره، ولا يهمّه على الإطلاق هو شخصيّاً أن تكون شركات التأمين «القذرة» تلك باتت ترفض «تغطية» تيليغين.

في تلك الأثناء، وصلت بيلّا ف. أيضاً.

كانت اللقطات الأولى تجري على متن اليخت، وبما أنّ تيليغين لم يكن يظهر في تلك المشاهد القليلة، باشر رولنر التصوير. كان يبدي الكثير من الميوعة في عمله، واشتبهت بأنّه كان يأمل أن يطول مرض تيليغين حتّى تتشكّل لديه ذريعة لإيقاف الفيلم.

رجاني أن أبقى في بور كرو أثناء التصوير، موضّحاً لي أنّه قد يترتّب تعديل السيناريو. لكنّ السيناريو بقي حتّى النهاية مثلما كتبته.

كان نجمنا بروس تيليغين، قبل عشرين عاماً من

Twitter: @ketab_n

ذلك، من ممثّلي هوليوود الشبّان الأكثر تميّزاً. كان بارعاً في أفلام المغامرات والفروسيّة، وجسّد شخصيّات مثل لاغاردير[1]، وكوينتن دوروارد[2] و«عشبة الطير القرمزيّة»[3]، باتّقاد وفتنة جعلاه يكسب على الفور شعبية واسعة. ثمّ انتقل إلى أدوار مختلفة: مبشّر، ومستكشف، وبحّار وحيد. وفي كلّ مرّة، كان يتقمّص شخصيّة بطل معصوم طاهر تدنّسه الحياة وتُحزنه أذيّة البشر حتّى اليأس. تلك الشخصيّة الملائكيّة الغامضة كانت تثير شجن

---

(1) Henri de Lagardère الشخصية الرئيسيّة في رواية المغامرات «الأحدب» *Le Bossu* للكاتب الفرنسي بول فيفال الصادرة عام 1858. اقتبست القصّة في فيلم.

(2) *The Adventures of Quentin Durward* «مغامرات كوينتن دوروارد»، فيلم تاريخيّ يعود الى العام 1955 ومقتبس عن رواية «كوينتن دوروارد» للكاتب الإسكتلندي والتر سكوت الصادرة عام 1823.

(3) *Le Mouron rouge* بالفرنسيّة والعنوان الأصلي *The Scarlet Pimpernel* أو «عشبة الطير القرمزيّة»، وهو لقب الشخصيّة الرئيسيّة في سلسلة من تسع روايات شعبيّة إنكليزيّة كتبتها البارونة أورتسي بين 1905 و1936، تقع عند تقاطع روايات الفروسيّة والمغامرات والتجسّس وقد اقتُبست للسينما والتلفزيون. وبطل القصص هو السير بيرسي بلايكني وهو بطل مقنّع لُقّب بـ «عشبة الطير القرمزيّة» لأنّه يختم كلّ مغامرة يخوضها لمساعدة مظلوم برسالة قصيرة يمهرها بتوقيعه المزين بزهرة عشبة الطير الحمراء.

Twitter: @ketab_n

الجمهور. شخصيّة تكافح الشرّ من غير أن تفلح في غالب الأحيان، لا بل بقدر من المازوشيّة، إذ كان هناك دائماً في أفلام تيليغين مشهد يتعرّض فيه لتعذيب وحشيّ... كان يُقال إنّه يحبّ تلك المشاهد. لكنّه كان يفقد بعضاً من سحره فيلماً بعد فيلم. كان للكحول الدور الأكبر في ذلك، إلّا أنّ العمر كان عاملاً أيضاً. فمع مشارفته على الأربعين، لم يعد بوسعه إداء أدوار تتطلّب لياقة جسديّة خارقة. ثمّ ذات صباح، استيقظ ليجد أنّ شعره قد شاب.

بيلّا – سوف أناديها باسمها الأوّل – كانت تكبرني بخمسة عشر عاماً، وخلفها مسار طويل في الفنّ. في السابعة عشرة، كانت نموذجاً لتلك الممثّلات المبتدئات المثيرات اللّواتي يعرضن مفاتنهنّ للمصوّرين خلال مهرجان كان. حقّقت بعد ذلك بعض النجاح. وبما أنّها كانت تجيد الرقص وتتكلّم الإنكليزيّة بطلاقة، حصلت على أدوار صغيرة في مسرحيّات موسيقيّة في أميركا. وعند عودتها إلى فرنسا، مكلّلة بهالة الفترة التي قضتها في هوليوود، أدّت في مطلع الخمسينيّات أدوار البطولة في عدد من الأفلام من إخراج حرفيّين مقبولين. كان

Twitter: @ketab_n

الجمهور يستطيبها. لكنّ عقداً مضى من ذلك الحين.

كانت سمراء قصيرة القامة خضراء العينين، وجنتاها عريضتان، وأنفها أخنس، وجبينها ينمّ عن تعنّت.

شُفِي تيليغين بعد أسبوع، لكنّه خسر عشرة كيلوغرامات، وكان يمشي بخطى حذرة، مستعيناً في غالب الأحيان بعصا. جعله رولنر يصوّر في بادئ الأمر المشاهد الخارجيّة.

تغيّبت بشكل شبه كامل عن تصوير اللقطات لأنّني كنت أنهض متأخّراً جدّاً. كان رولنر معروفاً ببطئه وتأنّيه في العمل. كان يتردّد طويلاً بين لقطتين، فيعذّبه ذلك الموقف عذاباً فظيعاً. أخبرني مهندس الصوت الذي سبق أن عمل معه، أنّ المونتاج كان يسبّب له معاناة أكبر بعد. فهو رآه في مثل هذه الظروف على شفير الانتحار، ولم تكن تلك كلمة يقولها بخفّة. رغم ذلك، وبعد أيّام معدودة، انعكس فيلم «قبطان بحار الجنوب» بصورة غير معهودة على رولنر. فكان النعاس يغلبه على ما يبدو بين اللقطات. حتّى أنّه غفا فعلاً في إحدى المرّات.

يجدر القول إنّ الحبكة لم تكن تتألّق بإبداع لامع. تقف

Twitter: @ketab_n

بيلّا في مقدّم المركب، شاخصة في الجزيرة التي ستنزل عليها مع أصدقائها الخمسة، خمسة شبّان أثرياء متبطّلين يقومون برحلة في البحر. ليس لديهم أيّ حسّ أخلاقيّ، وتسود اليخت «أجواء فاسدة إلى أقصى حدود الفساد». على الجزيرة، يتعرّفون على «قبطان بحار الجنوب»، قبطان سابق في البحريّة التجاريّة، انسحب قبل عشرين عاماً ليعيش هناك وحيداً. رجل طاهر يجسّده تيليغين، فيعيره ملامح النجم الفاتن سابقاً. تقع بيلّا في غرامه على الرغم من فارق العمر بينهما، فتترك أصدقاءها لتعيش مع «القبطان» في عزلة تلك الجزيرة المخضوضرة الكثّة.

كان تيليغين وبيلّا يشكّلان ثنائيّاً غريباً عجيباً. فهو هائل القامة، فيما هي رقيقة صغيرة إلى حدّ أنّهما كانا يبدوان أشبه بوالد وابنته الصغيرة. أذكر عصر أحد الأيّام، حين حضرتُ تصوير مشهد. كان تيليغين وبيلّا يقومان بنزهتهما الأولى في قلب الجزيرة. فيعلن لها قبطان بحار الجنوب:

- يخيّل لي وأنا معك أنّني استعدت شبابي...

فتجيبه:

Twitter: @ketab_n

- لماذا تقول ذلك؟... أنت شابّ...

كان الحرّ شديداً وقميص تيليغين يقطر عرقاً. فكان يبدّله كلّ عشر دقائق. يرتمي على مقعده القابل للطيّ، ويترتّب إصلاح مكياجه. بيلّا أيضاً لم تكن تحتمل الشمس. وكان مزاجها عكراً. كان رولنز في سترته الكحليّة السرمديّة الواقية من المطر يجهد ليمازحهما وهو يعطيهما تعليمات. كان تيليغين يغتنم الاستراحات ليفكّ المشدّ الجلديّ عن خصره. كان يضعه حين تتطلّب منه المَشاهد أن يبقى واقفاً لفترة طويلة. فالحفاظ على وقفة مستقيمة كان أمراً شاقّاً عليه.

عدنا إلى الفندق عند المغيب. كان علينا أن نمشي حوالى ربع ساعة، وقد سبقنا الفنّيّون إلى هناك. بقينا وحدنا، أنا وبيلّا ورولنز وتيليغين. قبل أن ننطلق في طريقنا، مدّ تيليغين لنا مداورةً زجاجة الفودكا التي لم تكن تفارقه، وأصرّ على أن يشرب كلّ منّا جرعة سخيّة منها. فذلك سوف يبعث فينا الشجاعة.

كان رولنز يتقدّمنا ويسند تيليغين. والأخير يتّكئ براحة يده إلى كتف جورج الأيمن، ويستعين بعصاه.

Twitter: @ketab_n

وأنا وبيلّا نتبعهما على مسافة بضعة أمتار، وقد أمسكتْ بذراعي. كان القمر يسكب نوراً صافياً، والطريق يختفي أحياناً تحت نبتات الأحراش، فنجد صعوبة في تبيان مساره من جديد. كان الجوّ يعبق بروائح الصنوبر وأشجار الأوكالبتوس، روائح لا تزال إلى اليوم تذكّرني برحلتنا في ذلك الليل. كان حفيف خطانا يبلبل صمتاً يزداد عمقاً، وبيلّا تلقي رأسها على كتفي. بعد وقت، بدأ الإجهاد يظهر على تيليغين.

كان يعْرج، فيتعثّر ويمسك في اللحظة الأخيرة بذراع جورج رولنر. ثمّ توقّف فجأة. بقي واقفاً في مكانه، أمامنا، وجهه يقطّر عرقاً، وعيناه تائهتان، مشيراً إلينا أن نكمل طريقنا. بدا في ضوء القمر وكأنّه شاخ عشر سنوات دفعة واحدة.

في نهاية المطاف، ساعدناه أنا ورولنر رغماً عنه على الوصول إلى الفندق. كانت أسنانه تصطكّ. كان ذلك الرجل ذاته الذي رأيته في السينما وأنا طفل، رهيف القامة، متوثّباً رشيقاً في «عشبة الطير القرمزيّة».

التقينا نحن الأربعة حول الطاولة ذاتها في صالة الطعام

Twitter: @ketab_n

في الفندق. كانت بيلّا مثّلت في ما مضى في فيلم من إخراج رولنر، وأخذا يتبادلان ذكريات مشتركة.

بعد العشاء، باشر رولنر وبيلّا ومهندس الصوت والمصوّر لعبة بوكر. أمّا أنا، فبقيت وحيداً مع تيليغين الذي كان يتكلّم الفرنسيّة بمستوى مقبول جدّاً. راح يبوح لي بما يخالجه. كان هو أيضاً يرغب في الكتابة. بدأ في الماضي بكتابة ذكريات شبابه، تلك الحقبة حين كان يعيش حياة مغامرات في أفريقيا وغينيا الجديدة، ويبحر على متن سفينة صغيرة اسمها «تاسمانيان». لكنّه لم يكن «يحسن إمساك قلم بيده». كان يرصّع حديثه بتأمّلات فلسفيّة. قال لي إنّه في الحياة، يجدر عدم الأخذ إطلاقاً بنصائح الغير. وإنّه من الصعب للغاية العيش مع امرأة، وإنّ الشباب والأمجاد والصحّة، كلّ ذلك عابر، وهو في موقع يسمح له بتأكيد ذلك. أدلى لي أيضاً بتأمّلات أخرى لم أعد أذكرها.

أعتقد أنّه كان يستلطفني. كان لنا القامة ذاتها، متر وأربعة وتسعون سنتيمتراً له، ومتر وثمانية وتسعون سنتيمتراً لي. وفي كلّ ليلة، كنت أعيده إلى غرفته وأنا أسنده من ذراعه، بعد كلّ ما يجترعه من فودكا، فيقول لي

Twitter: @ketab_n

على الدوام بالإنكليزيّة «شكراً بنيّ...» قبل أن يغطّ دفعة واحدة في نوم عميق.

أمّا بيلّا فطلبت منّي أن أقرضها بعض المال، بعدما خسرتْ مبلغاً ضخماً في البوكر. كان لا يزال لديّ أربعمائة ألف فرنك قديم من أصل الستمائة ألف التي تقاضيتها عن كتابة السيناريو. أعطيتها ثلاثة أرباع المبلغ. كنت مغرماً بها. فلم يكن بوسعي يوماً مقاومة أولئك السمراوات الصغيرات القامة الرقيقات الخضراوات العينين. لكنّه لم يكن بوسعي البوح لها بذلك من شدّة خجلي.

انتهى التصوير في ثلاثة أسابيع. لم يكلّف رولنر نفسه حتّى عناء الذهاب لمشاهدة لقطات التصوير اليوميّ لدى عرضها في إحدى صالات السينما في يير، بل كان يرسل مهندس الصوت. طلب منّي «اختزال» الأربعين صفحة الأخيرة من السيناريو حتى «يتمّم» النهاية في ثلاثة أيّام. لم يعد يحتمل. كان يغفو من شدّة السأم بين كلّ لقطتين.

لم يستعد الاهتمام بعمله إلّا لحظة تصوير المشهد حيث ترد الجملة التالية، قاطعةً كنصل سيف: «يمكن للواحد أن يكون يهوديّاً وأن يكون طيّاراً بارعاً، سيّدي». جعل

Twitter: @ketab_n

تيليغين يعاود هذه الجملة خمس عشرة مرّة، من غير أن يحصل على المشهد مثلما كان يودّه.

أقيم حفل صغير عند انتهاء التصوير. وبهذه المناسبة، قدِم ستوكلين من باريس في طائرة سياحيّة. كان يقودها بنفسه ونجح في القيام بهبوط بهلوانيّ أمام الفندق، وغليونه بين أسنانه.

سادت في ذلك المساء أجواء محمومة. كان ذلك مساء من شهر أغسطس، عابقاً برائحة الصنوبر والأوكالبتوس تلك. وبدا رولنر مرتاحاً لإنجازه الفيلم.

التُقِطت صورة للفريق بكامله، آمل أن أعثر عليها من جديد. كنت جالساً بين بيلّا وتيليغين. كان تيليغين يشرب بإسراف. وكان من المؤلم رؤيته على هذا النحو. بيلّا من جهتها كانت تهمس لي أنّها خسرت المال الذي أقرضتها إيّاه، لكنّها أقسمت أنّها ستسدّد لي المبلغ عند عودتها إلى باريس. وأعطتني رقم هاتفها: «أوتوي 08,00».

تمكّنت خلال الأمسية أن أجذب رولنر إلى زاوية وأسأله متى سيعرض «قبطان بحار الجنوب» على الشاشات.

Twitter: @ketab_n

كانت نظرته زائغة. فهو أيضاً أسرف في الشرب.

- ألا تعرف؟ الفيلم لن يعرض على الإطلاق يا صديقي...، أجابني رافعاً كتفيه.

ثمّ جرّني خارج الصالون حيث كنّا متجمّعين. ساعدته على تسلّق الأدراج. توقّف عند قرص الطابق الأولّ وكان يحدّق بي بنظرته المشوّشة.

- قل لي يا صديقي... لم أفهم يوماً لماذا تعاقدوا معك من أجل هذا السيناريو. هل أنت قريب لستوكلين؟

لا... لا أعتقد ذلك، قلت له.

كان يبتسم لي ويربّت على رأسي بيد أبويّة.

- في مطلق الأحوال... جميعنا أقرباء فيما بيننا... السينما عائلة كبيرة...

واصلنا صعود السلالم، وكان هو يتعثّر عند كلّ درجة.

- هذا الفيلم هباء...

- أتعتقد ذلك؟ سألته.

- أنا شخصياً لا آبه. قلت كلّ ما لديّ في هذا الفيلم. كلّ شيء.

كان يقرّب وجهه من وجهي وهو يقول ذلك.

Twitter: @ketab_n

- أتعلم... جملتي المميّزة...

كنت أسنده على طول الرواق. فتحت باب غرفته.

- آسف لسوء حظّك باتريك، قال لي. لكنّني من جهتي قلت كلّ ما لديّ في هذا الفيلم. مجرّد جملة بسيطة...

أسرع فجأة إلى المغسلة، انحنى وتقيّأ. وقفت أنتظر عند الباب. التفت صوبي، شاحباً. كان يبتسم.

- عذراً. إنّني في وضع مزرٍ. يجدر بك الانضمام إلى الآخرين.

جلست في وسط الرواق قرب بابه، ظنّاً منّي أنّه قد يحتاج إليّ. سمعت جلبة قطعة أثاث تسقط والأنين الذي تبعثه نوابض سرير قديم حين نرتمي عليه. خيّم الصمت. ثمّ تلك الجملة التي كان يتمتمها بين شفتيه، ويصعب تمييزها:

- يمكن للواحد أن يكون يهوديّاً وأن يكون طيّاراً بارعاً، سيّدي.

Twitter: @ketab_n

8

وصلنا أنا وزوجتي إلى ساحة كليمنصو في بياريتز. تركنا خلفنا المقهى الباسكيّ الشبيه ببيت ريفيّ، وسلكنا جادّة فيكتور هوغو.

كان ذلك في بداية عصر يوم مشمس من شهر يونيو، وكان نسيم عليل يهبّ. لم يكن هناك من مارّة. ونادراً ما كانت تعبر سيّارات، تكاد لا تبلبل الصمت. خيّل لي أنّني أعرف ساحة السوق وباحة كنيسة سان جوزيف. اجتزنا مدخل تلك الكنيسة. كانت خالية. وكانت شمعة وحيدة مشتعلة قرب كرسيّ الاعتراف. لراحةِ أيّ نفسٍ تراها أُشعِلت؟ كنت أودّ استشارة سجلّ العمادات، لكنّني لم أصادف مَن يمكنني التكلّم إليه، فخطر لي أن نعود قبيل المساء.

Twitter: @ketab_n

تبعنا جادّة لا ريبوبليك. من المؤكّد أنّها لم تتغيّر كثيراً منذ عشرين عاماً، وكنت أنظر إلى واجهات المنازل، آملاً أن توحي لي إحداها بذكرى ما. كان يمكن أن إخال نفسي أتمشّى في جوار باريس، في جويْ أون جوزاس مثلاً، في شارع الدكتور كورزين الهادئ والغامض حيث أقمنا أنا وشقيقي. غير أنّني أصادف بيتاً ريفيّاً صغيراً أقرب من سواه إلى بيوت الساحل، وعند مدخله لوحة كتب عليها «فيلّا ميرامار» أو «فيلّا الملكة ناتالي»، فيذكّرني بأنّنا في بياريتز، وبأنّ ذلك النور العذب الصافي هو نور ساحل الكوت دارجون[1].

على جادّة لا ريبوبليك، كان أطفال يدخلون معهد سانت ماري، مبنى قديم للغاية أعيد طلاء واجهته. كانت البوّابة المشبّكة مفتوحة، وبعد عبورها، كانوا يطاردون بعضهم البعض الآخر في الفناء. انطلق رنين جرس كتيم معلناً ساعة الصفوف. وتذكّرت ذلك الصباح من شهر أكتوبر 1950، حين عبرنا أنا ووالدتي ذلك الفناء، ودققنا

(1) Côte d'Argent أو الساحل الفضّيّ، هو جزء من ساحل جنوب غرب فرنسا.

Twitter: @ketab_n

على أحد تلك الأبواب الخارجيّة ذات الدرف الخشبيّة الرماديّة. كانت تلك أوّل مرّة أذهب فيها إلى المدرسة، وكنت أبكي.

إلى يسارنا، كان زقاق فونيل ديه فرير[1] ينساب بين جدارين على مدّ النظر. لفت انتباهي باب قرأت عليه: معهد سيّدة الحبل بلا دنس. إلى اليمين تصطفّ بضع فيلّات صغيرة. أوشكنا على بلوغ طرف الجادّة. كان هناك مفترق. بعدَ بضع خطوات، وعند تقاطع شارعين، مشرفاً على المفرق مثل تمثال في مقدّم سفينة، أطلّ عليّ مبنى «كازا مونتالفو».

كيف أصفه؟ مبنى ضخم مهيب من الحجر الفاتح اللون، أو بالأحرى قصر صغير يعلوه سطح من صفائح الأردواز محدّب الشكل ذو منحدرات متقاطعة. يقود الممرّ العريض إلى باب المدخل، تحميه سقيفة من ألواح الأردواز أيضاً. حديقة كازا مونتالفو مسيّجة بسور. عبرت البوّابة الخشبيّة البيضاء، لكنّني لم أجرؤ على مواصلة السير حتّى المدخل. عند طرف الممرّ، إلى اليسار، وسط الجنبات،

(1) Venelle des Frères زقاق ضيّق في بياريتز.

Twitter: @ketab_n

تنتصب نخلة كانت تثير حتماً إعجابنا ونحن أطفال، غير أنّني لا أحتفظ بأيّ ذكرى عنها على الإطلاق. وددت لو أعرف أيّاً كانت نوافذ الشقّة الصغيرة التي كنّا أنا وشقيقي رودي نقيم فيها. فمبنى كازا مونتالفو كان مقسّماً إلى عدّة شقق مفروشة. ومن نوافذنا، كنّا نرى من الجانب الآخر من تقاطع الطرق قصر غرامون، بواجهته من حجر القرميد الأحمر من طراز عصر لويس الثالث عشر وأبراجه الصغيرة وحديقته المهملة.

أغلقْتُ البوّابة خلفي. كان هناك لوحة على كلّ من مصراعيها. على اللوحة إلى اليسار قرأت: كازا، وعلى اللوحة إلى اليمين: مونتالفو. كازا مونتالفو.

كانت زوجتي تنتظرني وهي تدخّن سيجارة. مشينا أمامنا مباشرةً، سالكين شارع سان مارتان، وبعد مسافة قصيرة توقّفنا أمام الكنيسة التي تحمل الاسم ذاته. أعتقد أنّ تلك الكنيسة تعود إلى القرن الخامس عشر. التقينا بكاهن بردائه الكهنوتيّ، فسألته إن كان بوسعي الحصول على شهادة عمادة. أشار لي إلى مبنى صغير مقابل للكنيسة. دخلنا إليه. كانت سيّدة مسنّة جالسة خلف شبّاك مكتب

Twitter: @ketab_n

الاستقبال. جلست زوجتي على المقعد في آخر الصالة، وقلت منحنياً صوب شبّاك المكتب: «أودّ الحصول على شهادة عمادة».

كنت أزداد ثقةً بأنّ العمادة حصلت في تلك الكنيسة.

- أيّ تاريخ؟ سألتني السيّدة بصوت في غاية العذوبة.

- آه... صيف 1950...

أحسست وأنا أقول «صيف 1950» بموجة حزن تغمرني.

تهجّيتُ لها اسمي وبحثَتْ عنه بصبر في السجلّ، في أشهر يونيو، ويوليو، وأغسطس وسبتمبر. عثرَت عليه أخيراً مدرجاً تحت تاريخ 24 سبتمبر.

- لم يكن ذلك في صيف 1950 بل في الخريف، قالت لي وعلى وجهها ابتسامة شاحبة.

نسخَت وثيقة العمادة وأعطتني الورقة التي كان مكتوباً عليها:

Twitter: @ketab_n

شهادة عمادة

كنيسة رعيّة سان مارتان – بياريتز أبرشيّة بايون

سجلّ العمادات، العام 1950 – الوثيقة رقم 145

24 سبتمبر 1950 تمّت عمادة: ب

مواليد 30 يوليو 1945 في باريس

الوالد: أ،

الوالدة: ل،

مقيمان في باريس، 15 رصيف كونتي.

العرّاب: أندريه كاموان، ممثّلاً بشخصي ج. مينت وف. راشيفسكي.

العرّابة: مادلين فيراغوس.

ملاحظات جانبيّة: لا ملاحظات.

ثنيت شهادة العمادة بعناية ووضعتها في جيب سترتي الداخليّة. ثمّ خرجت مع زوجتي.

هكذا إذن، عُمّدتُ في كنيسة سان مارتان تلك

Twitter: @ketab_n

الصغيرة... ما زلت أذكر بصورةٍ مبهمةٍ المراسم، ومخاوفي فيما كان الكاهن يقودني نحو جرن المعموديّة، والمجموعة المؤلّفة من شقيقي الذي تعمّد في اليوم السابق، ووالدتي، وعرّابتي مادلين فيراغوس، والشخصين اللذين كانا «يمثّلان» عرّابَيّ. أحتفظ بصورة واضحة واحدة في ذهني: صورة سيّارة راشيفسكي المركونة أمام الكنيسة، سيّارة بيضاء ضخمة مكشوفة. كانت عمادة تمّت بالصدفة. من الذي بادر إلى اتّخاذ القرار؟ ولماذا بقينا أنا وشقيقي حوالى عام في بياريتز؟ أعتقد أن الحرب الكورية لعبت دوراً، وأنّهم قرّروا بسببها أن يبعدونا عن باريس ويعمّدونا من باب الحيطة، وفي ذهنهم وقائع الحرب السابقة. أذكر جملة قالها والدي حين أتى لزيارتنا في كازا مونتالفو، قبل رحيله إلى أفريقيا: «إذا استمرّت الحرب، فسوف آخذكم معي إلى برازافيل»، وأشار لنا بإصبعه إلى تلك المدينة من أفريقيا الاستوائيّة الفرنسيّة على الكرة الأرضية من طراز «تاريد» التي كان أهدانا إيّاها.

Twitter: @ketab_n

صور أخرى... ذات ليلة أثناء احتفال «توروس دي فويغو»[1] في سان جان دو لوز[2]، انقضضت على شخص كان يرمي نثاراً من الورق على والدتي. شاحنة صغيرة صدمتني عند الخروج من معهد سانت ماري. مبنى راهبات الدومينيكان على جادّة لا ريبوبليك الذي عبرنا أمامه قبل قليل، حيث خدّروني بواسطة الأثير حتّى يتمكّنوا من معالجتي. الجوقة العسكريّة التي كنّا نستمع إليها أنا وشقيقي رودي، تحت أشجار ساحة بيار فورسان.

عند طرف شارع سان مارتان، تبعنا أنا وزوجتي جادّة كينيدي. لم تكن تحمل هذا الاسم في ما مضى. جلسنا على رصيف أحد المقاهي، في الشمس. كان صاحب المقهى يتحدّث مع شخصين آخرين خلفنا عن مباراة الكرة الباسكيّة في يوم الأحد التالي. تلمّست شهادة عمادتي من

(1) Toro de fuego بالإسبانيّة، عبارة تعني «ثور من نار» وهو اسم مهرجان شعبيّ يجري خلاله تثبيت مواد قابلة للاشتعال أو مفرقعات على قرني ثور حقيقي أو تمثال ثور يحمله رجل، ويتمّ إفلاته بعد إشعالها في شوارع المدينة حيث يترتّب على المشاركين في المهرجان الهروب منه.

(2) Saint-Jean-de-Luz بلدة فرنسيّة في مقاطعة البيرينيس الأطلسيّة جنوب غرب فرنسا.

Twitter: @ketab_n

خلال قماش سترتي. أمور كثيرة تبدّلت منذ ذلك الحين، أحزان كثيرة حلّت، لكن رغم كلّ ذلك، يجد المرء عزاء في العثور مجدّداً على كنيسة رعيّة طفولته.

Twitter: @ketab_n

9

هل تغيّرتُ إلى هذا الحدّ منذ الوقت الذي كنت أقيم فيه في لوزان، في كانتون فو[1]؟

في المساء، حين كنت أخرج من صفّ معهد فلوريمون، كنت أستقلّ ذلك المترو الأشبه بـ «تلفريك»، الذي كان ينحدر من وسط المدينة في اتّجاه أوشي[2]. لم يكن عملي شاقّاً في معهد فلوريمون. ثلاثة دروس في اللغة الفرنسيّة في الأسبوع، أعطيها لطلّاب أجانب، خارج برنامجهم الدراسيّ. دروس صيفيّة نوعاً ما. كنت أملي عليهم نصوصاً لا نهاية لها، لا يفقهون منها شيئاً بسبب صوتي الكتيم.

(1) Canton du Vaud كانتون في غرب سويسرا عاصمته لوزان.

(2) Ouchy حيّ في جنوب مدينة لوزان، على ضفاف بحيرة ليمان.

Twitter: @ketab_n

كنت لا أزال في العشرين من عمري، لكنّ ذاكرتي كانت تعود إلى ما قبل ولادتي. كنت واثقاً على سبيل المثال بأنّني عشت في باريس في زمن الاحتلال، إذ كنت أتذكّر شخصيّات معيّنة من تلك الحقبة وتفاصيل صغيرة جدّاً ومحيِّرة، من صنف التفاصيل التي لا يرد ذكرها في أيّ كتاب تاريخ. ورغم ذلك، كنت أحاول أن أقاوم تلك الجاذبيّة التي تشدّني إلى الخلف، وأحلم بالتحرّر من ذاكرة مسمومة. كنت سأعطي كلّ ما لديّ من أجل أن أفقد الذاكرة.

خطر لي أن ألجأ إلى جزيرة مهجورة تائهة في المحيط الهندي، حيث ستبدو لي ذكرياتي عن أوروبا العجوز سخيفة. فيها سيحلّ النسيان سريعاً. وسأشفى. وقع خياري على بلد أقرب من ذلك، لم يعرف شدائد القرن ولا معاناته: سويسرا. قرّرت البقاء هناك طالما سمح تأجيل خدمتي العسكريّة بذلك.

كانت صفوفي في معهد فلوريمون تستمرّ حتّى السابعة والربع مساء، وكان ذلك الإحساس الأقرب إلى التبلّد والذي لا أزال أشعر إلى اليوم بالحنين إليه، يجتاحني في

Twitter: @ketab_n

جادة رومين. المسرح البلديّ والمباني التي كنت أعبر أمامها كانت جميعها مسطّحة، خالية من أيّ نتوءات، لكأنّها مجرّد ديكور خادع. في ساحة سان فرنسوا تنتصب كنيسة قديمة تعود إلى القرن الثالث عشر، لم تكن تبدو لي حقيقيّة، ولا كذلك واجهات المصارف الملساء بعدها بقليل. كلّ ما في لوزان كان عائماً، العين والقلب ينزلقان من غير أن يجدا أيّ حافّة بارزة يتمسّكان بها. كان كلّ شيء حياديّاً باهتاً. لا الزمن ترك بصماته في ذلك المكان، ولا المحن نخرته. الواقع أنّ قروناً مضت، والزمن متوقّف في ذلك الجانب من بحيرة ليمان.

غالباً ما كنت أجلس قليلاً على رصيف مقهى قريب من برج ساحة بيلير[1]، وأستمع إلى أحاديث الزبائن. حتّى طريقتهم في تكلّم الفرنسيّة كانت تعزّز لديّ ذلك الإحساس العامّ بأن كلّ ما هو حولي غير حقيقيّ. كان لديهم نبرة عجيبة، تجعل الفرنسيّة حين تخرج من أفواههم تتحوّل إلى تلك اللغة المنبعثة من مكبّرات الصوت في

(1) برج يعود إلى القرن الرابع عشر، تعلوه ساعة، محاط بالمقاهي والمطاعم والمتاجر، في ساحة بيلير.

Twitter: @ketab_n

المطارات الدوليّة. حتّى لكنة أهالي كانتون فو، كنت أجد فيها بلادة ونزعة ريفيّة أكثر مبالغة من أن تكون حقيقيّة.

كنت أنزل على رصيف محطّة فلون. محطّة مترو بلا روائح ولا أصوات، مقطورات زاهية وكأنّها لعب أطفال. كنّا ننتظر بهدوء أن تُفتح أبوابها. كان القطار ينساب في صمت وثير. ملصقاً جبيني بالزجاج، كنت أتأمّل الإعلانات الضوئيّة. كانت أحرفها تتوهّج بوضوح حادّ، أكثر حدّة منها في فرنسا، وألوان فاقعة. هي وحدها، مع لافتات محطّتي مونتريون وجورديل، كانت تخترق خدري قليلاً. كنت سعيداً. لم يعد لديّ ذاكرة. وفقدان الذاكرة ذك سوف يتكثّف يوماً بعد يوم، مثل جلد يزداد غلاظة. لم يعد هناك ماضٍ. ولا مستقبل. الزمن سيتوقّف، وكلّ شيء سيختلط في نهاية الأمر ويتبدّد في السديم الأزرق فوق بحيرة ليمان. بلغت تلك الحالة التي كنت أطلق عليها عبارة «سويسرا القلب».

كان ذلك موضع خلاف ودّيّ بيني وبين ميشال موزلي، سويسري من عمري تعرّفت عليه في بداية إقامتي هناك، وكان يعمل في شركة تأمين. كان يلومني قائلاً إنّ لديّ

Twitter: @ketab_n

تصوّراً خاطئاً عن بلاده، تصوّر الأثرياء الأمميّين الذين ينهون عمرهم من ناحية مونترو- أو المنفيّين السياسيّين. لا، لم تكن سويسرا تلك المنطقة العازلة، ولا مملكة النسيان تلك التي أتصوّرها. عبارة «الحياد السويسريّ» كانت تبعث في موزلي كلّما لفظتُها ألماً يظهر جليّاً. فكان ينقصم وكأنّه تلقّى رصاصة في وسط معدته، ويحتقن وجهه متّخذاً صبغة أرجوانيّة. كان يشرح لي بصوت متقطّع أنّ «الحياد» لا يتناسب في العمق مع «الروح السويسريّة» كما كان يدعوها. مارس سياسيّون وأعيان وصناعيّون كلّ ما لديهم من نفوذ لجرّ سويسرا على طريق «الحياد»، لكنّ هذا لا يسمح بالقول «إنّهم» يعبّرون عن تطلّعات هذا البلد... لا، إطلاقاً، بل «إنّهم» حرفوه، على ما يقول موزلي، عن مهمّته الحقيقيّة، وهي حمل أعباء كلّ آلام العالم ومظالمه، والتكفير عنها. سويسرا التي كان يحلم بها موزلي، والتي «ستتجلّى» لنا قريباً، كانت تتّخذ في ذهنه شكل فتاة طاهرة مشرقة، تهيم حيثما قادتها خطاها. فهي تبقى باستمرار عرضة لشتّى ألوان الإساءة، يلطّخون فستانها الأبيض، لكنّها تتقدّم وسط الإهانات والوحول، تكمل طريقها

Twitter: @ketab_n

من غير أن تفارق الابتسامة وجهها، والرحمة قلبها، وربّما تجد قدراً من المتعة في مواصلة درب آلامها. تلك الرؤية لسويسرا المبنيّة على تبجيل الألم كانت تثير لديّ بعض المخاوف، لكنّ ميشال، خارج الحديث عن بلاده، لا يضاهى في وداعته. رجل أشقر طويل القامة، بارز الوجنتين، عيناه زرقاوان شفّافتان، له شاربان ناشئان، ويبدو روسيّاً أكثر منه سويسريّاً.

عرّفني على بدراوي، وهو فتى بعمرنا كان يلقّب بابو. وسرعان ما أصبحنا نحن الثلاثة أصدقاء لا نفترق. كان بدراوي يعمل في منصب غامض في أحد مصارف شارع سنترال. كان يتحدّر من أصل مصرّي، وقد غادرت عائلته الإسكندريّة بعد سقوط الملك فاروق. لم يبق له سوى عمّة عجوز تقيم في جنيف، كان يرسل لها نصف أجره. كان قصير القامة، هزيل البنية، عيناه سوداوان وكذلك شعره، له ضحكة طفل، لكنّ نظرته غالباً ما يسكنها ذعر مبهم. كانا هو وموزلي يسكنان المبنى ذاته الحديث في ممرّ شاندولان، قرب المحكمة الفدراليّة. غرفة بابو بدراوي كانت تغصّ بالكتب الإنكليزيّة. وعلى المنضدة الليليّة،

Twitter: @ketab_n

صورة خطيبته، وهي أيضاً إنكليزيّة، فتاة لها وجه هرّة، تكتب له رسائل طويلة تشرح له فيها أنّها تحبّه لكنّها تخونه، وأنّ ذلك لا أهميّة له على الإطلاق، بما أنّها تحبّه. لم يكن بابو من رأيها. كان يفاتحني بالأمر أحياناً، ونحن نتناول الشاي. كان يشرب الكثير من الشاي، وحين ندقّ بابه، نكون واثقين من أنّ كوباً ساخناً لذيذاً من شاي إيرل غراي في انتظارنا.

كنّا نمرّ جميعاً بأوقات عصيبة. مرّة أو مرّتين في الشهر، كان موزلي يثير «فضيحة» كما كنّا نقول. في تلك الليالي، كان الهاتف يرنّ في غرفة بابو، فيُطلب منه أن يحضر لجلب صديقه، لأنّ موزلي كان يحمل على الدوام رقم هاتف بدراوي. اختار موزلي مسرحاً لـ «فضائحه» تلك في بادئ الأمر حانة ليليّة على جادّة بنجامان كونستان، كان يعرف فيها إحدى مضيفات الاستقبال، شقراء شبيهة إلى أقصى حدّ بالممثّلة الفرنسيّة مارتين كارول، وكانت تدعى بالمناسبة ميشلين كارول. ثمّ انتقل إلى مطعم فندق لوتيل دو لا بيه. فردهة محطّة القطارات. وبعدها المسرح البلدي، في ليلة كانت فرقة من زوريخ تؤدّي فيها مسرحيّة «غيّوم

Twitter: @ketab_n

تيل» لشيلر[1]. سرعان ما صار معروفاً، وبات يُحظَر عليه دخول الأماكن العامة.

في إحدى الليالي، كنت عند بدراوي وكنّا ننتظر ميشال منذ ساعتين أو ثلاث ساعات، حين رنّ الهاتف: نبّهنا صاحب «نزل» إلى أنّ «السيّد موزلي» هو «في حالة مزرية»، وبأنّهم «سيقضون عليه» بالتأكيد. قال إنّه لا يريد «مشاكل مع الشرطة». وإنّه يعود لنا نحن أن «نخرج السيّد موزلي من هذه الورطة». كان النزل على مسافة عشرة كيلومترات تقريباً، في بلدة تدعى شاليه آغوبيه. صعدنا في سيّارة أجرة هامت بنا مطوّلاً قبل أن نكتشف ذلك المكان، وسط غابة صغيرة من أشجار الصنوبر. كان موزلي ممدّداً على طاولة، في عمق الصالة، وجهه متورّم وقميصه مفتوح. وينقصه حذاء في قدمه اليسرى. كان هناك مجموعة من حوالى عشرة أشخاص يظهر عليهم أنّهم قرويّون، راحوا يتفرّسون فينا بعدائيّة. انزلق موزلي عن الطاولة واقترب منّا مترنّحاً. كان طرف شفتيه ينزف. ساندناه أنا وبدراوي من ذراعيه، وإذ

(1) *Wilhelm Tell* أو *Guillaume Tell* بالفرنسيّة، مسرحيّة للكاتب المسرحي الألماني فريدريش شيلر (1759–1805) عن شخصية فلهلم تيل الاسطوريّة التي بفضلها نالت سويسرا استقلالها، بحسب الرواية.

Twitter: @ketab_n

كنّا نعبر الباب للخروج إلى الهواء الطلق، سمعنا أحدهم يصيح بلكنة محليّة شديدة جدّاً: «من حسن حظّه أنّهما حضرا لاصطحابه، وإلّا لكنّا أجهزنا عليه، ذلك القذر..».

كان موزلي قد أمطرهم كعادته بخطاباته عن سويسرا. كنت أعرف حججه عن ظهر قلب. قال لهم إنّ سويسرا «في سبات» منذ مطلع القرن، وإنّ الوقت حان لكي تستيقظ وتقبل أخيراً بأن «تلوّث يديها». وإلّا، فإن السويسريين سيشبهون أكثر فأكثر «خنازير ناصعة النظافة، ورديّة اللّون زاهية». في تلك الليلة، كادوا يقتلونه، لكنّ هذا كان تحديداً ما يبحث عنه: أن يعدمه الحشد، هو، ميشال موزلي، السويسريّ، وأن يحصل ذلك إذا أمكن بين تلال القمامة في حيّ فقير. بهذه الطريقة، سوف يكفّر عن تلك النظافة المسرفة وغيرها من جرائم بلاده.

لئن كان ميشال يتطلّع إلى الشهادة، فإنّ بدراوي، على عكس ذلك، كان يعيش في الخوف من أن يموت اغتيالاً. أسرّ لي بذلك منذ لقاءاتنا الأولى. كان مثال أحد أقربائه يبقى حاضراً في ذهنه. كان يدعى أليك سكوفي، وتمّ اغتياله في باريس عام 1932 من غير أن تتّضح

Twitter: @ketab_n

يوماً ملابسات تلك الجريمة. كان سكوفي من مواليد الإسكندريّة، صدرت له روايتان باللغة الفرنسيّة وسيرة لمغنّي الأوبرا كاروسو. كانت صورته معروضة في وسط منضدة الليل في غرفة صديقي، وكان الشبه بينهما مذهلاً إلى حدّ أنّني ظننت لفترة طويلة أنّها صورة لبدراوي نفسه. كنت أتساءل أحياناً إن لم يكن اخترع ذلك القريب لأنّه كان يستطيب تلك الفكرة: أن يقضي قتلاً. مهما يكن، كان بابو على قناعة بأنّ الذين قتلوا قريبه سوف يقتلونه بدوره، ولم يكن بوسع أيّ منطق، ولا أيّ تأنيب ودّيّ، أن ينزع هذه الفكرة من رأسه. الشيء الوحيد الذي كان يقرّ به، هو أنّه أقلّ عرضة للخطر في سويسرا منه في أيّ مكان آخر. كان واثقاً من أنّ الحياد السويسريّ يحميه مثل وشاح يلفّه، وأنّ أحداً لن يجرؤ على تنفيذ عمليّة اغتيال في هذا البلد. كان موزلي يحاول أن يثبت له العكس، ويؤنّبه لتعليقه صورة الجنرال هنري غيزان[1] على جدار غرفته. غير أنّ بدراوي

(1) Henri Guisan الجنرال هنري غيزان (1874–1960) كان قائد الجيش السويسري ابان الحرب العالميّة الثانية، يحظى بكثير من الاعجاب والاحترام. عرف خصوصاً لنجاحه في تعبئة القوات السويسريّة والشعب السويسريّ استعداداً للمقاومة في حال ما إذا اجتاحت ألمانيا البلاد.

Twitter: @ketab_n

كان يشرح له أنّ وجه ذلك العسكريّ السويسريّ الذي لم يقاتل يوماً ولم يقتل أيّاً كان، ذلك الوجه الأبويّ الرقيق يعطيه الكثير من العزاء ويخفّف من قلقه.

هكذا، مع هبوط الليل، كان كلّ منّا يرجع إلى عزلته، ميشال موزلي يستعيد مأساة أن يكون سويسريّاً، وبابو هاجس الاغتيال ذاك الذي كان يجعله يوصد باب غرفته ويحتمي في كنف سريره حاملاً كوباً من الشاي. أمّا أنا، فكنت أشغّل المذياع. أقلّب الزرّ ملّيمتراً ملّيمتراً -حركة واحدة مفاجئة من الإبرة، وتتوجّب عليّ معاودة العمليّة- إلى أن أتمكّن من التقاط إذاعة «جنيف فاريتيه»[1] على الموجات المتوسّطة. هناك، في تمام الساعة العاشرة مساء، يبدأ برنامج «موسيقى في الليل». منذ اكتشفت بالصدفة ذلك البرنامج اليوميّ الذي لم يكن يستمرّ سوى عشرين دقيقة، لم يعد يسعني ألّا أستمع إليه، وحيداً في غرفتي على جادّة أوشي. مقدّمة موسيقيّة ينقرها البيانو، لحن مفعم بعذوبة استوائيّة. ثمّ صوت، فيما تتواصل المقدّمة، صوت عريض فيه خنّة خفيفة معلناً:

- موسيقى في الليل...

(1) *Genève-Variétés* أو منوّعات جنيف.

Twitter: @ketab_n

ثمّ صوت آخر، برنينٍ معدنيّ هذه المرّة:

- برنامج من تقديم...

الصوت الأوّل من جديد بنبرته الخفيضة:

- روبير جيربو...

ثمّ الصوت الثاني، أكثر حدّة، يكاد يكون أنثويّاً:

- وجان كزافييه كورتين.

نسمع المقدّمة لبضع ثوانٍ إضافيّة. ومع انتهاء النغمة الختاميّة، يوضّح الصوت الأوّل، صوت جيربو، بنبرة تواطؤ خفيّ.

- كانت تلك كالعادة معزوفة لهيتور فيلا لوبوس[1].

كان البرنامج يستمرّ عشرين دقيقة، يعلنان خلالها عن مقطوعات سوناتة وأداجيو وكابريس وفانتازيا. كانا يبديا ميلاً شديداً إلى الموسيقيّين الإسبانيّي الإلهام، وكان جيربو يتلذّذ بلفظ أسماء ألبينيث ومانويل دي فايّا وغرانادوس[2]... لم يكن أيّ منهما يقوم بأيّ تعليق، بل

(1) Heitor Vila-Lobos (1887–1959) مؤلّف موسيقى برازيليّ يعتبر أبرز موسيقيّي البرازيل في القرن العشرين.

(2) Isaac Albeniz, Manuel de Falla, Enrique Granados أشهر مؤلّفي الموسيقى الكلاسيكيّة الإسبانيّة في النصف الأوّل من القرن العشرين.

Twitter: @ketab_n

يكتفيان بإعلان اسم المعزوفة، ما يضفي على برنامجهما جفافاً أنيقاً. وفي النهاية، نوطات بيانو خافتة: الخاتمة الموسيقيّة. نغمة أخيرة، لا تكاد تُسمع. ثمّ صوت جيربو:

– كان ذلك كالعادة الكونشرتينو السادس لهوميل[1].

ثمّ صوت جان كزافييه كورتين، متقطّعاً على عذوبته:

– شكراً، أعزائي المستمعين لـ «موسيقى في الليل». إلى اللقاء في الغد، وطاب مساؤكم.

ما الذي حلّ بي بعد بضعة أيّام وأنا أستمع إلى ذلك البرنامج؟ لا أدري إن كان سمعي يزداد رهافة، لكن خُيّل لي أنّني أميّز أزيزاً طفيفاً خلف دفق الموسيقى. افترضت في بادئ الأمر أنّها أصوات ذبذبات نسمعها حين نلتقط إذاعة أجنبيّة، غير أنّني أيقنت بعد وقت قصير أنّه همس أحاديث متداخلة، همهمة مبهمة يبرز في وسطها بين الحين والآخر صوت يطلق نداء استغاثة أو رسالة مبهمة، وكأنّ آخرين يغتنمون ذلك البرنامج لتبادل رسائل فيما بينهم أو التلاقي متلمّسين طريقهم في الظلمة. وكأنّ أصواتهم تحاول عبثاً اختراق حجاب الموسيقى. لم تكن تلك الظاهرة تحصل في

(1) Johann Hummel (1778–1837) مؤلّف وعازف بيانو نمساوي.

Twitter: @ketab_n

بعض الليالي، فتتواصل المقطوعات الموسيقيّة التي يعلن عنها جيربو أو كورتين من أوّلها إلى آخرها بنقاوة البلّور.

ذات أحد، قضيت وقتاً أطول من العادة لالتقاط «جنيف فاريتيه». كان برنامج «موسيقى في الليل» بدأ منذ حوالى عشر دقائق، وفوجئت بسماع جيربو يعلن بصوت يرتجف على غير عادته:

- أعزّائي المستمعين، المقطوعة التي استمعنا إليها للتوّ لها وقع شديد في قلبي. هذه الموسيقى تشبه شكوى من وراء القبر، إنّها صرخة أليمة من المنفى...

لحظات صمت. ثمّ أكمل جيربو بصوت يزداد تأثّراً:

- أراد المؤلّف حتماً أن يعبّر هنا عن الانطباع الذي يراوده بأنّه أخر الناجين من عالم مندثر، شبح بين الأشباح.

الصّمت مجدّداً. وبعده صوت كورتين تخنقه بحّة:

- هذا الانطباع، أنت تعرفه جيّداً، روبير جيربو.

فيقاطعه صوت جيربو بنبرة حازمة، وكأنّه يخشى أن يبوح الآخر بأكثر ممّا ينبغي:

- أعزّائي المستمعين، إلى اللقاء في الغد. طاب مساؤكم.

Twitter: @ketab_n

تسمّرت في مكاني إذ راودتني فكرة أثارتها فيّ كلمات «من وراء القبر» و«منفى» و«شبح بين الأشباح» التي سمعتها للتوّ. كان روبير جيربو يذكّرني بشخصٍ ما. تمدّدت على السرير، محدّقاً في الجدار أمامي. تراءى لي وجه بين أزهار ورق الجدران. وجه رجل. ذلك الرأس المنبثق بوضوح من الجدار كان رأس د.، أشنع شخصيّات باريس في حقبة الاحتلال. د. الذي علمت أنّه لجأ إلى مدريد، ثمّ إلى سويسرا، والذي يقال إنّه «يقيم باسم مستعار في جنيف ووجد وظيفة في الإذاعة». أجل، هذا هو بالتأكيد روبير جيربو. ها هو الماضي يغمرني من جديد. ذات ليلة من مارس 1942، كان رجل يقارب الثلاثين، طويل القامة، تشير ملامحه إلى أنّه من أميركا الجنوبيّة، جالساً في مطعم سان موريتز في شارع مارينيان، عند زاوية جادّة الشانزيليزيه تقريباً. كان ذلك والدي. وكانت ترافقه امرأة شابّة تدعى هيلّا هارتفيتش. كانت الساعة العاشرة والنصف مساء. دخلت مجموعة من الشرطيّين الفرنسيين باللّباس المدنيّ وأغلقت كلّ المنافذ. ثمّ بدأ العناصر يتثبّتون من هويّات روّاد المطعم. لم يكن والدي وصديقته يحملان

Twitter: @ketab_n

أيّ أوراق ثبوتيّة. دفعهما الشرطيّون الفرنسيّون داخل عربة الموقوفين مع حوالى عشرة أشخاص آخرين للتدقيق في هويّاتهم بشكل معمّق أكثر في شارع غريفول، في مقرّ شرطة الشؤون اليهوديّة[1].

عند انعطاف عربة الموقوفين في شارع غريفول، لمح والدي الناس يخرجون من مسرح ماتوران حيث كانت تعرض مسرحيّة «الآنسة من بنما». اقتادهم المفتّشون إلى قاعة كانت من قبل صالون منزل. لم يبقَ فيها سوى الثريّا والمرآة فوق الموقد. وفي وسط القاعة، مكتب ضخم من الخشب الفاتح اللّون، وخلفه رجل يرتدي معطفاً واقياً من المطر، تذكّر والدي وجهه المائع الأجرد. كان ذلك د.

طلب من والدي وصديقته أن يفصحا عن هويّتهما. فكشفا عن اسميهما، سواء بدافع الإحباط أو التحدّي. راجع د. ساهماً بضع أوراق تتضمّن على الأرجح قائمة بجميع الأسماء التي لها وقع مريب. رفع رأسه وأشار إلى أحد رجاله: «اقتدهما إلى النظارة».

(1) شرطة خاصّة مكلّفة تطبيق سياسة نظام فيشي ضدّ يهود فرنسا إبّان الاحتلال النازيّ.

Twitter: @ketab_n

كان مفتّشان يواكبان والدي وصديقته وثلاثة مشتبَه بهم آخرين أو أربعة على السلالم. انطفأ الضوء الآليّ. وقبل أن يُعاد إشعالُه، انحدر والدي مسرعاً على الأدراج التي كانت تفصلهما عن الطابق الأرضيّ، جارّاً خلفه صديقته، وخرجا من البوّابة ذات الدرفتين. أخذا يركضان في اتّجاه شارع ماتوران. خُيّل لهما سماع صيحات ووقع خطى خلفهما. ثمّ محرّك عربة الموقوفين. عبرا بمحاذاة ساحة لويس السادس عشر، دفعا بوّابة مبنى وصعدا الأدراج في الظلام بأسرع ما أمكنهما. وصلا إلى الطابق الأخير من غير أن يلفتا انتباه أيّ كان. هناك، انتظرا طلوع الصباح. كانا يجهلان ما الذي نجوا منه. فبعد النظارة، درانسي أو كومبيين[1]. وبعد ذلك، قوافل المبعدَين.

وجه مسطّح، بلا عظام بارزة. فم تتدلّى شفته العليا مكتنزة فوق شفة سفلى رقيقة، كأفواه بعض الضفادع التي تلصق رأسها بزجاج أحواض السمك. بشرة كامدة اللّون، ملساء تماماً وبلا وبر. هكذا تراءى لي د. في تلك الليلة، ذاك الذي كان يتنقّل بين مطاعم السوق السوداء

(1) درانسي وكومبيين مدينتان فرنسيّتان كان فيهما معسكران لاعتقال اليهود تمهيداً لترحيلهم إلى معسكرات الإبادة النازيّة.

Twitter: @ketab_n

إبّان الاحتلال، محاطاً بجوقة من الشبّان الفاتنين، مزيج من القتلة وفتيان الكشّافة، كانوا يطلقون عليهم لقباً عجيباً هو «القفّازات الرماديّة». د.، رجل شارع غريفول. جاء يطاردني حتّى في ذلك البلد الذي ظننت فيه أنّني سأفقد الذاكرة شيئاً فشيئاً. كان رأسه ينسلّ بمحاذاة الجدار، يقترب، وبدأت أشعر بملامسته الجليديّة والمائعة.

*

ورغم ذلك، كم كانت الحياة جميلة في ذلك الربيع!... في ساعات الفراغ التي يتيحها لنا عملنا، كنّا نتواعد، أنا وبابو وموزلي عند حافّة حوض السباحة الصغير التابع لفندق عند زاوية جادّة أوشي وجادّة كور. كان الحوض في عمق حديقة، تحجبه ستارة من الأشجار عن جادّة أوشي. كانت ميشلين كارول توافينا هناك عندما تستيقظ من النوم قرابة الساعة الواحدة عصراً. كانت تتشمّس طوال النهار، إذ لم يكن عملها يبدأ إلّا في المساء. كانت شقيقتان توأمان تنضمّان إلينا أيضاً، فتاتان أندونيسيّتان فاتنتان وصغيرتا القامة، كانتا على حدّ قولهما «تتابعان دروساً» في لوزان.

Twitter: @ketab_n

على صفحة المياه الخضراء الفاتحة كانت تطفو عوّامات أطفال عليها عبارة «أيّام سعيدة»، تليها السنة. 1965؟ 1966؟ 1967؟ لا يهمّ، كنت في العشرين من العمر.

حصلت مصادفات غريبة حينها. في صباح يوم سبت، كنت متوجّهاً إلى حوض السباحة أبكر من العادة. وجدت سبّاحاً سبقني إلى هناك، كان يقوم بسباحة الفراشة. ما إن رآني حتّى هرع صوبي وتعانقنا: كان صديقاً لي من باريس، مغنّياً شابّاً بلجيكيّ الأصل يدعى هنري سيروكا. كان ينزل في الفندق. روى لي أنّه شارك في مسابقة «الزيزفون الذهبيّ» للأغنية في إيفيان، وبما أنّ الفنادق كانت مكتظّة بالنزلاء في تلك المدينة، عثر له منظّمو المسابقة على غرفة في لوزان. استمرّت التصفيات خمسة أيّام، وفي كلّ يوم، كان يستقلّ الباخرة التي تقوم برحلات بين لوزان وإيفيان. اختارته لجنة التحكيم في المسابقة نصف النهائيّة، قبل أن تتمّ تصفيته في الدورة الأخيرة، بالرغم من «هتافات الجمهور». لم يبدُ متأثّراً بفشله. كان ينزل هناك منذ أسبوع، لم يكن قادراً على حسم أمره ومغادرة الفندق. كانت حالة الخمول والخدر التي تسيطر عليه شيئاً فشيئاً تدهشه هو

Twitter: @ketab_n

نفسه. لم يعد يكترث حتّى لقائمة حسابه التي تزداد يوماً بعد يوم، والتي لن يكون بوسعه تسديدها. كنّا مسرورين بلقائنا. كان هنري سيروكا يعيدني إلى ماضٍ لا يزال قريباً، إلى ساعات العصر التي كنّا نقضيها أنا وصديقي أوغ دو كورسون نتسكّع في مكاتب «منشورات فانتازيا الموسيقيّة» الموحشة في شارع غرامّون. هناك كنّا نكتب أغاني، وقد غنّى سيروكا إحداها بعنوان «الطيور تعود»، هي التي جعلته يفوز بجائزة ترضية في مهرجان سوبوت وبميداليّة في «المسابقة الكبرى للأغنية» في برشلونة. لم تعد «منشورات فنتازيا الموسيقيّة» قائمة منذ ذلك الحين، وتوارى معها الكثيرون من الذين كنّا نعرفهم، لكن من الطيّب أن نلتقي عند حافة حوض السباحة ذاك.

حظينا بعطلة لبضعة أيّام بمناسبة عيد العنصرة، وبدا أنّ كلّا منّا نسي هومه. كان ميشال موزلي مسترخياً، ولم يفتعل مرّة «فضيحة». كنت آمل أن يتصالح أخيراً مع بلاده. أمّا بدراوي، فكان يستعيد في الشمس خلوّ بالٍ شرقيّاً، وتضاءلت مخاوفه من أن يتعرّض للاغتيال. ثمّ أنّ خطيبته الإنكليزيّة كتبت له لتطلب منه الإذن بزيارته

Twitter: @ketab_n

في لوزان في الشهر التالي. هنري سيروكا، من جهته، كان يحدّثنا بدون مرارة عن مسابقة الزيزفون الذهبيّ للأغنية. فهو هُزِم بفارق ضئيل أمام عبقريّ صغير في الثالثة عشرة من العمر، اعتلى المسرح مرتدياً سروالاً قصيراً وقميصاً أبيض وربطة عنق، ليغنّي أنغام روك أند رول. سيروكا نفسه كان يضحك للأمر. لم يكن يدري بالضبط ما الذي دهاه حتّى يشارك في مسابقة «الزيزفون الذهبيّ» تلك. لم يكن بوسعه مقاومة الأمر. فكلّما سمع بمسابقة غناء، هرع إليها. هكذا قام برحلات رائعة، إلى سوبوت في بولندا، وكذلك إلى إيطاليا والنمسا والاتّحاد السوفياتيّ. بدأ صيته يذيع في الجانب الآخر من الستار الحديديّ. غنّى في موسكو، ولينينغراد، وكييف، ويقول إنّه لقي هناك جمهوره الحقيقيّ. لم يساورني أيّ شكّ في ذلك. لا بدّ أنّ الروس يقدّرون أكثر من سواهم صوته الكلاسيكيّ، صوت مغنٍّ عاطفيّ، وكذلك مظهره الكلاسيكيّ، إذ كان شبيهَ إيرول فلين[1]. وفي مطلق الأحوال، بدت ميشلين

(1) Errol Flynn (1909–1959) ممثّل أسترالي–أميركي من نجوم هوليوود، عرف بأدواره الرومنطيقيّة في أفلام المغامرات.

Twitter: @ketab_n

كارول مفتونة به بشكل متزايد. وكان الافتتان متبادلاً. كانا يقومان في وسط حوض السباحة بنوع من الغزَل المائيّ. كان الثنائي الذي يشكّلانه معاً، هو شبيه إرول فلين وهي شبيهة مارتين كارول، يوهمني بأنّ الزمن يعود بنا إلى منبعه. ها هما الممثلان المتوفّيان حاضران من جديد هنا، بيننا، كما في حلاوة أيّام طفولتنا، وتصل الرقّة بهما إلى حدّ السباحة والمغازلة أمام عينيّ شبه المغمضتين.

كانت إحدى الأندونيسيّتين الضئيلتين تتودّد إليّ، فيما شقيقتها التوأم تبدي ميلاً إلى موزلي. مستلقياً في عمق كرسيّ طويل، كان بابو بدراوي يحلم بوصول خطيبته. كنّا عائمين جميعاً في ضباب مفعم بالأحاسيس، تؤجّجه انعكاسات الشمس على صفحة الماء الخضراء، وارتعاشات الأشجار من جهة جادّة أوشي، وكؤوس الشمبانيا التي كان سيروكا يطلبها لنا. كانت لقاءاتنا تستمرّ حتّى ساعة متأخّرة جدّاً من الليل، ولم يعد يتسنّى لي كثيراً التقاط «موسيقى في الليل».

*

Twitter: @ketab_n

أجل، ثمّة مصادفات غريبة حقّاً. كنت أتصفّح شارداً صحيفة سويسريّة على حافّة حوض السباحة، حين وقع نظري على الخبر التالي: «اعتباراً من يوم غد، في مسرح لوزان في الهواء الطلق، تبدأ الأيّام الموسيقيّة في الريفييرا الرومنديّة[1]. وستجمع هذه الأيّام التي انطلقت قبل ثلاث سنوات بمبادرة من بعض التلامذة السابقين للأستاذ أنسيرميه، العديد من علماء الموسيقى وبينهم زميلانا من «جنيف فاريتيه» روبير جيربو وجان كزافييه كورتين».

نهضت، ارتديت برنس حمّام أبيض وتركت الآخرين. كنت أسير في الممرّ المكسوّ بالحصى الذي يقود من حوض السباحة إلى الفندق، وأنا واثق من أنّني سبق لي أن عشت ذلك النهار. كان بوسعي التكهّن بما سيحصل تالياً، كما في الأحلام حين نعرف مسبقاً أنّ الكونتيسّة دو باري[2] الشقراء سيُقطع رأسها، لكن حين نحاول أن نشرح لها ذلك ونقنعها بمغادرة باريس قبل فوات الأوان، تكتفي

(1) أي تقع في الجانب الناطق بالفرنسية من سويسرا، وهو يدعى «سويسرا الرومنديّة» La Suisse romande .

(2) أُعدمت الكونتيسة دو باري Comtesse du Barry على حدّ المقصلة في 1793، وكانت آخر محظيّات ملك فرنسا لويس الخامس عشر.

Twitter: @ketab_n

بهزّ كتفيها.

توجّهت إلى مكتب الاستقبال في الفندق وسألت الموظّف:

- هل وصل السيّد جيربو؟

- إنّه واقف إزاء البار، سيّدي.

كنت أترقّب تلك الجملة. كان بوسعي حتّى أن ألقّنه إيّاها.

- إزاء البار، سيّدي...

كان يمدّ ذراعه مشيراً لي إلى مدخل الحانة.

بقيت واقفاً عند عتبة الحانة، قاعة فسيحة ذات تلبيسات من الخشب الفاتح اللون، وسقف مزيّن بمربّعات مجوّفة، وطاولات خفيضة محاطة بكنبات مكسوة بقماش ذي نقشة اسكتلنديّة.

عرفته منذ النظرة الأولى. كان جالساً إلى يمين المدخل، قبالة الآخر. وكانا يتحادثان. كانت رائحة «أوراق أرمينيا»[1] منتشرة في الجوّ، وتذكّرت بدون أيّ مجهود

(1) Papier d'Arménie أوراق معطّرة برائحة راتنج نبتة الإصطرك، تستخدم لتعطير غرفة، استوحى مبتكرها فكرتها من عادة أرمنيّة تقضي بحرق راتنج هذه النبتة في المنازل لتعطيرها.

Twitter: @ketab_n

أنّ ذلك كان عطره. تقدّمت بمشية حاولت جاهداً أن أجعلها تبدو طبيعيّة، إذ كنت حافياً وكنت أخشى أن يلفت برنس البحر انتباههما، وجلست إلى طاولة بعيدة إلى حدّ ما عن طاولتهما. لم يلاحظاني من شدّة ما كانا مستغرقين في حديثهما. كانا يتكلّمان بصوت مرتفع، جيربو بصوته الدافئ، والآخر، الشابّ، بنبرة أكثر معدنيّة منها في المذياع.

- أنت تعرف مثلي تماماً ما هي المشكلة، جان كزافييه، قال جيربو.

- طبعاً.

- ما زال هناك وسيلة واحد يمكنني استخدامها.

- وما هي؟

- أن أحشرهم في الزاوية. إمّا مهرجان لمانويل دي فايّا العام المقبل، أو مهرجان لهيندرميت[1]. نقطة على السطر.

- هل تقول لهم ذلك فعلاً ؟

- وإن لم يقبلوا، فسوف أتركهم.

(1) Paul Hindermith (1895–1963) مؤلّف موسيقى ألماني.

Twitter: @ketab_n

- هل تفعل ذلك حقّاً روبير؟

هكذا إذا، جالساً على مقربة منّي كان الرجل الذي كان مسؤولاً عن بضعة آلاف عمليّات الترحيل بين 1940 و1944، وكان يدير «فرق» شارع غريفول التي أفلت والدي منها بأعجوبة... كنت أعرف سيرته. من صحافيّ صغير كادح قبل الحرب إلى عضو في مجلس بلديّ، أضاف إلى اسمه لقب نبالة وأنشأ «التجمّع المعادي لليهود». وعند التحرير، لجأ إلى مدريد حيث علّم الفرنسيّة متّخذاً اسم إستيف. كنت أعرف كلّ شيء عنه، حتّى تاريخ ولادته، في 23 مارس 1901، في كاهور[1].

- ... مهرجان لمانويل دي فايّا، أو لا مهرجان على الإطلاق!

- أمر مدهش، ذلك الإجحاف من قبل كلّ هؤلاء الأشخاص حيال فايّا، أجاب جان كزافييه كورتين مطرقاً.

- إجحاف أم لا، سوف أتخلّى عنهم!...

وعليه، فإنّ ذلك الرجل، على مسافة بضعة أمتار منّي،

(1) Cahors بلدة في جنوب فرنسا.

Twitter: @ketab_n

كان سيودّ ألّا أبصر النور بالأساس؟ تأمّلته بفضول بالغ. لم تكن صورته التي قصصتها في صحيفة من حقبة التحرير واضحة بسبب نوعيّة الورق الرديئة، لكنّني لاحظت أنّ وجهه انتفخ منذ خمسة وعشرين عاماً، وخصوصاً في أسفل الوجنتين، وأنّه فقد شعره. كان يضع نظّارتين لهما إطار ذهبيّ وذراعان ذهبيّتان. كان يدخّن الغليون، ويبقيه في فمه حتّى حين يتكلّم، ما يعطيه مظهراً هادئاً مسالماً أدهشني. رأسه الأصلع وبدانته يوحيان بالطيبة. كان يرتدي بذلة من المخمل الأسود وكنزة عالية الياقة لونها أحمر داكن. مجرّد قسّ سمين. أمّا الآخر، جان كزافييه كورتين، فلم يكن سوى شابّ متناسق الملامح غير أنّ وجهه نحيل للغاية وشاحب. شعره الأسود مسرّح كأنّما بواسطة مسحوق مثبّت. بذلته المخمليّة الخضراء القانية الضيّقة عليه، خاتم بنصره، حركاته الطفيفة الدقيقة، خفّاه، كلّ ذلك يوحي بحرص آسيويّ على أدنى التفاصيل. وهو في مطلق الأحوال قد يكون أوراسيّاً.

- تعتقد إذن أنّهم قد يقبلون بمهرجان مانويل دي فايّا؟

Twitter: @ketab_n

كان جيربو يعضّ على غليونه.

- بالطبع...

كان يبتسم، والغليون بين أسنانه.

- خاصّة إن وعدتهم ببثّ المهرجان بالكامل على «جنيف فاريتيه»...

- سيكون ذلك رائعاً، قال كورتين بصوته المعدنيّ الشبيه بأزيز حشرة، إن كان من الممكن تقديم مقطوعة «الأطلنديد» لفايّا.

كان جيربو يهزّ رأسه، ساهماً.

- أجل، أجل، أجل...

في هذه اللحظة، توجّه الساقي إلى طاولتهما.

- ماذا يمكنني أن أُحضر لكما أيّها السيّدان؟

- كوب من الجعة، قال جيربو. الجعة المضغوطة. وأنت؟

- شراب الرمّان...

ثمّ حضر الساقي إلى طاولتي.

- زجاجة سوز[1]، قلت له.

(1) Suze مشروب كحوليّ مصنوع من جذور نبتة الجنطيانا الصفراء.

Twitter: @ketab_n

لاحظا وجودي، وكانا ينظران إليّ، وقد أدهشهما حتماً برنس البحر. كان جيربو يبتسم. وجّه لي إشارة ودّيّة برأسه، فأجبته بمِثلها. أُحضرت لنا أكوابنا.

- هل هي لذيذة؟ سألَني جيربو، رافعاً صوته وكأنّه يخاطب الحاضرين.

- لذيذة؟

- أجل، مياه حوض السباحة.

- جدّاً.

التفت صوب كورتين.

- يجدر بك أن تسبح، جان كزافييه. السيّد يقول إنّها لذيذة.

- هذا ما أنوي القيام به، أجاب جان كزافييه وهو يبتسم لي.

- بصحّتك، قال لي جيربو رافعاً كوب الجعة.

أجبته بابتسامه أقرب إلى تكشيرة، ثمّ نهضت وخرجت من الحانة.

عبرت الردهة حاثّاً الخطى وركضت على طول الممرّ المكسوّ بالحصى حتّى حوض السباحة.

Twitter: @ketab_n

كان موزلي وبابو يسبحان. وهنري سيروكا كان ممدّداً إلى جانب ميشلين كارول على منشفة بحر كبيرة بيضاء وحمراء، وكلّ منهما يمسك يد الآخر.

- أين كنت؟ سألني.

ماذا عساني أن أجيب؟ قالوا لي إنّ هيدي الأندونيسيّة كانت تبحث عنّي في كلّ مكان منذ نصف ساعة.

خرج موزلي وبابو من حوض السباحة وانضمّا إلينا.

- وجهك شاحب، قال سيروكا. يجدر بك تناول كوب بورتو-فليب[1].

كنت أرتعد، لكنّني أحاول أن أجمّد نفسي حتّى لا يلاحظوا ذلك.

- هل أنت على ما يرام؟ سألني موزلي.

- أجل، أجل، أنا بخير. بخير.

خلعت برنس البحر وغطست في الحوض. بقيت وقتاً طويلاً تحت الماء، فاتحاً عينيّ. أطول ما أمكنني. أبديّة. وحين عدت وصعدت إلى السطح، وضعت مرفقيّ على حافّة الحوض وأسندتُ ذقني إلى الفسيفساء الزرقاء.

(1) Porto Flip كوكتيل كحوليّ يخلط فيه صفار بيضة.

Twitter: @ketab_n

- إنّها لذيذة، أليس كذلك؟ قال لي سيروكا. سأطلب لك كوب بورتو فليب.

كان رجلان يمشيان في الممرّ هناك، يتقدّمان، يتقدّمان. كورتين وجيربو. كان كورتين يتبختر في سروال سباحة أزرق فاتح مقوّر الشكل يكشف عن فخذيه، فيما جيربو احتفظ ببذلته المخمليّة السوداء، وهو يحمل آلة تصوير ضخمة معلّقة إلى كتفه.

توقّفا في الجانب المقابل من حوض السباحة. جلس جيربو على المقعد الوحيد من القماش القطنيّ وقرفص كورتين بجانبه. كانت مشيته رياضيّة، مثل مشية صغيري القامة الذين يبدون اهتماماً مسرفاً في تنمية عضلاتهم. نهض مندفعاً فجأة واقترب من حوض السباحة، متحسّساً المياه بقدمه اليسرى. بقي بضع ثوانٍ واقفاً متوازناً في ذلك الوضع، ساقه اليمنى مثنية قليلاً، فيما ساقه اليسرى مشدودة كساق راقص باليه يقفز على رؤوس أصابعه، صدره مستقيم وذراعاه خلف ظهره. كان جيربو صوّب عدسة الكاميرا من دون أن ينهض نحو كورتين وراح يضغط على زرّ التصوير. كان كورتين يبتسم.

Twitter: @ketab_n

كنّا أنا وأصدقائي نتأمّلها، ولاحظت بعض الاهتمام لدى سيروكا وميشلين كارول وبدراوي. تملّكتني الرغبة في مناداة جيربو باسمه الحقيقيّ، غير أنّ المكان لم يكن مناسباً، وكنت أخشى أن أخيف الآخرين. توجّه كورتين بمشية رشيقة بطيئة نحو مقفز الغطس، ووثب عالياً في الجوّ عدّة مرّات جاعلاً الخشبة تنثني في كلّ مرّة تحته، كأنّما ليختبر مرونتها. كان جيربو نهض عن المقعد القطنيّ وواصل تصوير كورتين وقوفاً.

أخيراً، غطس كورتين في قفزة في غاية الأناقة، وبعد بضع ضربات في الماء، انتفض وارتقى حافّة حوض السباحة باندفاعة واحدة من ذراعيه. أخذ جيربو يصوّره من جديد، ولكن هذه المرّة عن مسافة قريبة جدّاً. ثم عاد وعلّق الكاميرا إلى كتفه، وتناول منشفة عريضة حمراء وبيضاء كانت مثنيّة على ظهر المقعد، وفرشها، ولفّ بها كورتين وفرك كتفيه في حركات تنمّ عن رعاية حازمة كتلك التي يمكن أن يبديها مدرّب ملاكمة لبطله. تمدّد كورتين أرضاً على ظهره، ملصقاً ساقيه إحداهما بالأخرى، شادّاً عضلات معدته بشكل ظاهر. كان يمسّد

Twitter: @ketab_n

شعره بدون توقّف بيديه ليردّه إلى الخلف. ركع جيربو على إحدى ركبتيه، شهر الكاميرا وصوّره من جديد.

- هل كانت لذيذة؟ سأله.

- جدّاً.

خفضا صوتهما ولم أعد أسمع ما يقولان. ثمّ رفع جيربو رأسه ونظر إلى الحافّة الأخرى من حوض السباحة.

لمحني وأومأ لي بيده.

- هل تعرفه؟ سألني بدراوي.

- لا.

نهضا بعد حوالى عشر دقائق، وكورتين لا يزال ملتفّاً بمنشفة البحر الحمراء والبيضاء قبل أن يرميها بإهمال على حافّة الحوض. توجّه نحو الممرّ، متقدّماً بخطى صغيرة، مثل أولئك الرياضيّين الذين يتقدّمون أمام المنصّة في مسابقة لكمال الأجسام. كان يمشي على رؤوس أصابع قدميه حتّى لا يخسر سنتيمتراً واحداً من قامته القصيرة. وكان جيربو يتبعه، مقوّساً ظهره قليلاً. حين وصل كورتين بجانبنا، التفت وقال لي:

- كانت المياه ممتازة. ممتازة. شكراً.

Twitter: @ketab_n

شممت مرّة جديدة رائحة ورق أرمينيا تلك. ثمّ ابتعدا معاً في الممرّ في اتّجاه الفندق.

- كم أنّهما غريبا الأطوار!، قال سيروكا.

ذهبنا لتناول الغداء على رصيف مطعم في الطرف الآخر من الجادّة، قرب كنيسة أوشي. هناك وجدت هيدي الأندونيسيّة التي طلبت منّي أن أرافقها إلى شقّتها. كانت هيدي تتقاسم مع شقيقتها التوأم غرفة في الطابق الأرضيّ من مبنى قريب من محطّة جورديل. من نافذتها، يمكن رؤية القطار يعبر بعرباته الصغيرة المتهندمة في قعر وادٍ صغير، منحدراً نحو أوشي.

أحسست بالإرتياح حين دخلت تلك الغرفة البيضاء الخالية من أيّ أثاث، بجدرانها العارية من أيّ لوحة. مجرّد فراش كبير موضوع أرضاً، مصباح متدلٍّ من السقف، ولا شيء عدا ذلك. غرفة لا طابع مميّزاً لها، «محايدة» على غرار سويسرا.

استأذنتها لاستخدام الهاتف. لم تطرح عليّ أيّ سؤال. لم تكن تتكلّم الفرنسيّة، وكنّا نتفاهم بواسطة إنكليزيّة تقريبيّة للغاية. وفي مطلق الأحوال، لم نكن بحاجة

Twitter: @ketab_n

للكلام. طلبت رقم الفندق.

- السيّد روبير جيربو من فضلك...

سمعت طقّة. ثمّ صوت جيربو العريض:

- آلو نعم...

- سيّد روبير جيربو؟

- أنا نفسي.

- أنا مستمع مواظب لـ «موسيقى في الليل».

خيّم صمت، ثمّ سمعته يقول مفتعلاً نبرة مرحة.

- حقّاً؟ وكيف عرفتَ أنّني هنا؟

- إنّني أحضر الأيّام الموسيقيّة...

- آه حقّاً؟

- أودّ الالتقاء بك. أنا معجَب شابّ...

- ما عمرك؟

- ثمانية عشر عاماً. هل يمكنني أن ألتقي بك سيّد جيربو؟ خمس دقائق لا غير...

- اسمع... إنّك تباغتني...

- هذا سيسعدني كثيراً.

لحظة صمت من جديد. ثمّ قال خافضاً صوته، وكأنّه

Twitter: @ketab_n

لا يريد أن يسمعه شخص موجود بالقرب منه، ربّما كورتين:

- بوسعنا أن نتقابل ربّما لبرهة هذا المساء...

- أجل.

تابع خافضاً صوته أكثر، وبنبرة متسارعة:

- اسمع... المقهى على جادّة أوشي... قبالة مدخل فندق بوريفاج... الساعة الثامنة والنصف... إلى اللقاء سيّدي.

وأقفل الخطّ.

بقينا أنا والفتاة الأندونيسيّة حتّى الساعة الخامسة عصراً في تلك الغرفة البيضاء الملساء. ثمّ انضممنا إلى الآخرين وسبحنا برفقة ميشلين كارول وهنري سيروكا. كان بدراوي ممدّداً بخمول على فرشة هوائيّة، يحلّ كلمات متقاطعة. على مقربة، تحت الأشجار، كان ميشال موزلي يتحدّث مع الأندونيسيّة الأخرى، شقيقة هيدي التوأم. أمّا أنا، فكنت أتأمّل العوّامات الصغيرة تتراقص على صفحة الماء.

قدّم لنا هنري سيروكا مشروبات، ووسط رائحة

Twitter: @ketab_n

مشروب اليانسون، وضعنا خططاً للّيلة. دعانا بدراوي إلى العشاء. وقرابة الثامنة والربع، طلبت منه أن يقلّني في السيّارة إلى المقهى على جادّة أوشي حيث كنت على موعد مع جيربو، على أن نعود بعد ذلك لاصطحاب الآخرين من حانة الفندق.

– هل أنت على موعد مهمّ؟ سألني بفضول.

– أجل. موعد جوهريّ.

رافقنا موزلي والأندونيسيّة. كان بدراوي يقود سيّارته البيجو القديمة ببطء. طلبت من بابو أن يتوقّف بمحاذاة الممرّ المؤدّي إلى فندق بوريفاج.

على فكرة، هل لديهم مانع في أن أصطحب معنا شخصاً آخر في السيّارة؟ سوف نقتاده بعد ذلك إلى مكان معزول. بدوا قلقين فجأة. كانت الأندونيسيّة تقلّب النظر بيننا على التوالي من غير أن تفهم شيئاً. كشفت لهم بعض التفاصيل عن جيربو.

– لا تقل لنا إنّك تريد قتله! قال لي موزلي.

– لا.

في تمام الساعة الثامنة وخمس وعشرين دقيقة، رأيت

Twitter: @ketab_n

جيربو على الرصيف إلى يسار الجادّة. كان يمشي صوب المقهى بخطى سريعة. كان يرتدي بذلة رمليّة اللون من الكتّان ويعتمر قبّعة من الكتّان الرمليّ اللون أيضاً، غير أنّها على شكل قبّعات التيرول[1]. سارع إلى ولوج المقهى.

لم يسعني النهوض عن مقعد السيّارة. التفت موزلي صوبي.

- أليس ذلك الرجل الذي كان عند حوض السباحة؟

لم أردّ. كان يكفي أن أعبر الجادّة وأدخل المقهى في أثره. كنت آنئذٍ سأصافحه، وكنّا سنطلب كوبين من الجعة ونتحدّث عن مانويل دي فايّا. كنتُ سأقترح عليه أن أعيده إلى الفندق في السيّارة، وكان سيصعد في سيّارة البيجو، فينطلق بنا بدراوي. لا، لم أكن أريد قتله، بل «مكاشفته» في بعض الأمور.

- هل ننتظر؟ سأل بدراوي.

- أجل.

الواقع أنّني لم أكن أرغب حتّى في «مكاشفة». بل بضع

(1) Tyrol مقاطعة جبلية في غرب النمسا تعرف بجمال طبيعتها وتتميّز بغنائها وزيّها التقليديّ.

Twitter: @ketab_n

كلمات أهمس بها له قبل أن نفترق عند مدخل الفندق المسقوف:

- هل ما زلت في شارع غريفول؟

كان سيحملق فيّ بتلك النظره الهلعة التي يلقيها الناس حين نباغتهم ونذكّرهم بتفصيل بسيط من ماضيهم. الفستان الذي كانوا يرتدونه أو الحذاء الذي كانوا ينتعلونه في مساء معيّن. لكن كيف تعلم بذلك؟ لم تكن ولدت بعد. غير معقول. إنّك تخيفني.

الليل. موزلي شغّل المذياع. بدراوي يدخّن والأندونيسيّة جالسة بقربي، صامتة لا تبدي أيّ انفعال. رأيته يخرج من المقهى. توقّف على الرصيف، التفت يساراً، ثمّ يميناً. كان ضوء النيون يلقي عليه انعكاسات ورديّة. خلع قبّعته ووقف يحدّق بطرف حذائه، والسأم يظهر عليه. رفع رأسه ودهشت لرؤية ملامح وجهه وقد هزلت، ربّما بسبب اللّيل وانعكاسات النيون. لم ألاحظ من قبل، لا في الحانة ولا عند حوض السباحة، ذلك الفكّ الناتئ والفم المتلوّي اللذين يعطيانه وجه حيوان برمائيّ، كما في أحلامي.

Twitter: @ketab_n

إن افترضنا أنّه فعلاً د. -وكانت ثقتي في ذلك تتضاءل أكثر فأكثر-، فأنا كنت أعلم مسبقاً أنّه، عند سماع جملتي الصغيرة، سوف ينظر إليّ بعينين فارغتين. فهي لن تعود توحي له بشيء. الذاكرة نفسها نخرَها حمضٌ ما، ولم يبق من كلّ صرخات العذاب وكلّ وجوه الماضي الهلعة سوى نداءات ما فتئت تخبو، وملامح يلفّها الإبهام. سويسرا القلب.

كان قد اعتمر قبّعته الشبيهة بقبّعات التيرول من جديد، وبدا مثل ضفدع يظهر رأسه ممدوداً بلا حراك من خلف ورقة زنبقة ماء. بقي مسمّراً هناك في وقفته، تحت ضوء النيون. لم أجرؤ على أن أسأل بابو أو ميشال إن كان أيّ منهما يرى ما أراه، أم مجرّد مثْليّ عجوز ينتظر على الرّصيف وقد نصبوا له مقلباً.

سراب، على الأرجح. وفي مطلق الأحوال، كلّ ما في ذلك البلد سراب، كلّ ما هنالك خالٍ من أيّ واقع. هنا نحن بمنأى من «معاناة العالم»، كما كان يقول موزلي. لم يبقَ لنا سوى أن نستسلم للخمول وندعه يغمرنا، ذلك الخمول الذي كنت مصرّاً على تسميته «سويسرا القلب».

Twitter: @ketab_n

هناك، قبالتي، في الجانب الآخر من الجادة، كان يقلّب النظر يميناً ويساراً، متشنّجاً في النور الورديّ. أخرج من جيبه غليونه وتأمّله مطرقاً.

– ما رأيك لو نذهب وننضمّ إلى الآخرين؟ سألتُ بدراوي.

Twitter: @ketab_n

10

كنت في حديقة اللّوكسمبورغ، في صباح يوم شتائيّ قبل عشر سنوات، حين علمت بوفاة السّمين. كنت جالساً على كرسيّ حديديّ عند حافّة الحوض، وقد فتحت الصحيفة. كان المقال مرفقاً بصورة للسمين بشاربيه ونظّارتيه السوداوين وشاله الحريريّ الأبيض والقبّعة التي كان يعتمرها في غالب الأحيان للخروج. توفّي في مطعم فيالي في حيّ تراستيفيري[1]، ولا بدّ أنّه كان يلتهم طبقاً من اللازانيا الخضراء تلك التي كان مولعاً بها.

كنت في الثامنة عشرة من عمري، وكنت أعمل عند صاحب مكتبة في روما. عرّفتني على السمين فرنسيّة أكبر سنّاً منّي بقليل، كانت تقدّم عرضاً ثانويّاً في «أوبن غايت»،

(1) Trastevere أحد أحياء روما القديمة يقع على الضفّة اليمنى لنهر التيبر.

Twitter: @ketab_n

ملهى ليليّ على شارع سان نيكولو دا تولنتينو. تلك السمراء ذات العينين المشقوقتين كلوزتين والفم الجميل المتفتّح، كانت تُدعى كلود شوفروز، أو أنّ ذلك كان اسمها الفنّي. كانت تظهر قرابة منتصف الليل على المسرح مرتدية معطفاً من فرو السمّور وفستان سهرة، وتقدّم عرض تعرٍّ بطيئاً للغاية، فيما عازف البيانو يعزف مقطوعة «نغمة الشباب». كان كلبان قزمان أبيضان يدوران حول كلود شوفروز، يقومان بقفزات بهلوانيّة ويتناولان بين أنيابهما جوربيها، وصدّارتها، ورباطي جوربيها، وسروالها الداخليّ، فيما هي تخلعها الواحد تو الآخر. مضى وقت والسمين يحضر تلك الوصلة كلّ مساء، جالساً وحيداً على الدوام، وحين تعود كلود شوفروز إلى مقصورتها، تجد فيها وردة أهداها إيّاها ذلك المشاهد المواظب.

عند انتهاء العرض، دعانا السمين للجلوس إلى طاولته. حين قدّمتني كلود له، قهقه ضاحكاً ضحكة حوتٍ اهتزّت لها كتفاه وارتجّت سمنة خدّيه. فكنت أحمل اسم علامة تجاريّة لورق اللعب كانت إيطاليا برمّتها تلعب بها البوكر. وجد السمين الأمر في غاية الطرافة، واعتباراً

Twitter: @ketab_n

من تلك اللحظة، راح يدعوني «بوكر».

في تلك الليلة، بعدما تناولنا كأساً أخيرة على رصيف إحدى الحانات في جادّة فيا فينيتو، همست لي كلود أنّه يتحتّم عليها مرافقة السمين. صعدا في سيّارة أجرة أمام فندق إكسلسيور. فتح السمين زجاج النافذة، لوّح لي بأصابعه البدينة وهو يستودعني بالإيطاليّة: «أريفيديرلا[1]، بوكر».

أحسست بغصّة في قلبي وأنا أقول لنفسي إنّ كلود تهملني مرّة جديدة لصالح أشخاص لا يستحقّون العناء. لم أكن أدري ما الذي يجعلني أحبّ تلك الفتاة المتحدّرة من شامبيري والتي قدمت إلى روما قبل بضع سنوات «للعمل في السينما». وهي منذ ذلك الحين تنجرف مسلّمة أمرها، وتتعاطى الكوكايين قليلاً. صحيح كما يقال إنّ روما هي مدينة النهايات أكثر منها مدينة البدايات.

اعتباراً من ذلك الحين، صرت ألتقي بالسمين في الأوبن غايت حين أذهب لملاقاة كلود شوفروز فيه. كان ينتظرها في مقصورتها. كانت تكلّمه بخشونة وتوجّه إليه ملاحظات جارحة عن مظهره الجسديّ، غير أنّ السمين لم

(1) *Arrivederla* إلى اللقاء، بالإيطاليّة.

Twitter: @ketab_n

يكن يجيب، أو يكتفي بهزّ رأسه. وذات مساء، تركتنا كلينا هناك معلنةً أنّها على موعد مع شابّ «فاتن للغاية ونحيف للغاية»، مشدّدةً على صفة «نحيف» لتؤلم السمين. تأمّلناها وهي تبتعد، ثمّ ذهبنا لتناول حلوى. حاولت الترويح عن السمين الذي بدا محبطاً للغاية. أعتقد أنّ هذا ما جعله يكنّ لي الودّ، فعدنا والتقينا حوالى عشر مرّات بعد ذلك. كان يحدّد لي موعداً في تمام الساعة الرابعة عصراً أمام حانة صغيرة في شارع لي بوتيك أوبسكور، وهناك كان يتناول «عصرونيّته» على ما كان يقول: عشر شطائر بالسلمون. أو كان يصطحبني في المساء إلى مطعم قريب من قصر كيرينالي[1]، حيث كانت السيّدة المسؤولة عن حجرة الملابس تحيّيه وهي تناديه «فخامتك».

كان السمين يلتهم أطباقاً هائلةً من اللازانيا الخضراء، حانياً رأسه، ثمّ يطلق تنهّدة ويندفع إلى الخلف، ليغرق على الفور في سبات كئيب. ثمّ قرابة الواحدة صباحاً، أربّت على كتفه، فنعود كلّ إلى منزله.

(1) Palazzo del Quirinale قصر كيرينالي هو مبنى تاريخيّ في روما وأحد المقرّات الرسميّة لرئيس الجمهوريّة الإيطاليّة، يقع على تلّة كيرينالي، إحدى تلال روما السبع.

Twitter: @ketab_n

قمنا ببضع نزهات معاً. كنّا نستقلّ سيّارة أجرة إلى ساحة ألبانيا، ومن هناك نتسلّق تلّة أفنتينو[1]. كان ذلك أحد مواقع روما المفضّلة لدى السمين «بسبب الهدوء»، على ما كان يقول لي. كان يذهب ويلقي نظرة من ثقب قفل بوّابة مالطا من حيث تلوح في البعيد قبّة كاتدرائيّة القدّيس بطرس، فيصاب على الدوام أمام هذا المشهد بنوبة ضحك شديد كانت تدهشني.

لم أجرؤ يوماً على التطرّق إلى ماضيه أو إلى التفاصيل التي ساهمت في نسج أسطورته: مراهناته على بانكو في دوفيل أو مونتي كارلو، مجموعاته من الألعاب والطوابع البريديّة والهواتف، وميله إلى ربطات العنق الفوسفوريّة اللون التي يكفي نفضها قليلاً حتّى تظهر على القماشة امرأة عارية. ذات ليلة في المطعم، قلت له فيما كان يبتلع طبقه من اللازانيا الخضراء إنّه من المؤسف رغم كلّ شيء أن ينهي حياته على هذا الشكل، بعدما أغدقت عليه الحياة نِعَمَها.

رفع رأسه. كان يحدّق بي من خلف عدستي نظّارتيه

(1) Aventino أفنتينو، إحدى تلال روما السبع.

Twitter: @ketab_n

القاتمتين. شرح لي أنّه يذكر تماماً التاريخ الذي قرّر فيه أن يستسلم للسّمنة، لأنّه كان على قناعة بأنّه «لا شيء ينفع في شيء» وأنّه سيلقى المصير ذاته مثل لويس السادس عشر ونيكولاس رومانوف وماكسيميليان[1]، إمبراطور المكسيك المسكين الذي لم يحالفه الحظّ. كان ذلك في ليلة من العام 1942 في مصر، وكانت قوّات روميل[2] تقترب من القاهرة، والتعتيم يغرق المدينة في الظلام. دخل فندق سيميراميس من غير أن يعرفه أحد وتوجّه إلى حانته متلمّساً طريقه. لم يكن هناك أيّ ضوء. اصطدم بكنبة وسقط على ظهره. وهناك، مطروحاً أرضاً وحيداً، تملّكته نوبة ضحك عصبيّة. لم يعد بوسعه التوقّف عن الضحك. تلك اللحظة كانت بداية انحداره.

(1) لويس السادس عشر (1754–1793) آخر ملوك فرنسا أعدم بعد الثورة، ونيكولاس رومانوف أو نيكولاس الثاني (1868–1918)، آخر إمبراطور روسي أعدم مع عائلته بعد الثورة البولشيفية، وماكسيميليان (1832–1867) شقيق إمبراطور النمسا، في 1864 اصبح إمبراطور المكسيك تحت اسم ماكسيميليان الأوّل بدعم من نابوليون الثالث قبل إعدامه بعد ثلاث سنوات خلال انتفاضة للمعارضين الجمهوريّين المكسيكيّين.

(2) Erwin Rommel إرفين روميل ضابط في الجيش الألماني كان أبرز القادة العسكريّين في حرب الصحراء في شمال أفريقيا خلال الحرب العالميّة الثانية، وقد لُقّب بثعلب الصحراء.

Twitter: @ketab_n

كانت تلك المرّة الوحيدة التي فتح لي قلبه فيها. كان يتلفّظ بين الحين والآخر باسم كلود شوفروز، لكنّ الأمر كان يتوقّف عند هذا الحدّ.

دعانا لقضاء ليلة رأس السنة عنده. كان يسكن شقّة ضيّقة للغاية في مبنى حديث في باريولي[1]. فتح لي الباب، وكان يرتدي مبذلاً رثّاً من المخمل الأزرق وعلى جيبه طُرِّز الحرف الأوّل من اسمه وتاج مملكته المندثرة. بدا جزعاً حين رأى أنّني لم أكن برفقة كلود شوفروز. قلت له إنّ العرض في اوبن غايت سيستمرّ لوقت أطول من الليالي الآخرى، وإنّ كلود ستنضمّ إلينا في وقت متأخّر جدّاً.

كان السمين نصبَ مائدة في الغرفة الصغيرة العارية الجدران التي كانت تقوم مقام «صالون» في شقّته، ففرش حلويات وشطائر بالسلمون وفاكهة. رأيت على كرسيّ بارٍ جهازَ عرض قديماً أثار فضولي، لكنّني لم أطلب من السمين أيّ توضيح، لأنّني كنت مسبقاً على يقين من أنّه لن يجيبني.

(1) Parioli حيّ في شمال روما.

Twitter: @ketab_n

كان ينظر إلى ساعته ويتصبّب عرقاً.

- هل تعتقد أنّها ستأتي يا بوكر؟

- أجل بالتأكيد، لا تقلق سيّدي.

- إنّه منتصف الليل، بوكر. كلّ عام وأنت بخير.

- عام سعيد سيّدي.

- هل تعتقد حقّاً أنّها ستأتي؟

كان يلتهم شطائر السلمون الواحدة تلو الأخرى للتخفيف من وطأة قلقه. ثمّ الحلوى. ومن بعدها الفاكهة. ارتمى على أريكة، خلع نظّارتيه السوداوين ووضع محلّهما نظّارتين بعدستين مصبوغتين بلون طفيف وإطاره ذهبيّ. كان يحدّق بي بعينيه الزائغتين.

- بوكر، أنت فتى لطيف. بودّي تبنّيك. ما رأيك في ذلك؟...

خُيّل لي أنّ عينيه كانتا تدمعان.

- إنّني وحيد للغاية يا بوكر... لكن قبل أن أتبنّاك، ربّما كان بوسعي أن أمنحك لقباً شريفاً... هل تريد لقب «بيك»؟ هل يناسبك؟

أطرق رأسه وبقينا صامتين. كان يجدر بي أن أشكره.

Twitter: @ketab_n

- هل تريد أن أقرأ لك طالعك في الورق، بوكر؟

أخرج من جيب مبذله رزمة من ورق اللعب وخلطها. باشر توزيعها على أرض القاعة حين رنّ جرس الباب ثلاث رنّات. كانت تلك كلود شوفروز.

- كلّ عام وأنتم بخير! بون آنيو! أوغوري[1]! صاحت في غاية الانفعال وهي تذرع الصالون طولاً وعرضاً.

كانت ترتدي معطفها الخاصّ بالمسرح من فرو السمّور الزائف. ولم يتسنّ لها إزالة الماكياج عن وجهها، وكانت جذلة مبتهجة، وقد تناولت الشمبانيا للتوّ مع أصدقاء. قبّلت السمين على جبينه ووجنتيه، طابعةً وجهه بآثار أحمر الشفاه.

- سنخرج، أليس كذلك؟ سنرقص طوال الليل! أعلنت لنا. أنا أريد الذهاب إلى بيكولو سيام...

- بودّي قبل ذلك أن أعرض عليكما فيلماً، قال السمين بصوت وقور.

- لا، لا! لنخرج حالاً! لنخرج حالاً! أريد الذهاب

(1) تمنّيات برأس سنة سعيد بالإيطاليّة.

Twitter: @ketab_n

إلى بيكولو سيام!

كانت تدفع السمين نحو الباب، لكنّه كان يمسك بها ويجعلها تجلس على أحد الكراسي.

- أريد أن تشاهدا فيلماً، ردّد السمين.

- فيلم؟ تعجّبت كلود. فيلم؟ إنّه مجنون!

أطفأ النور وشغّل جهاز العرض. كانت كلود تقهقه بالضحك. التفتت صوبي وفكّت أزرار معطفها من الفرو الزائف. لم تكن ترتدي سوى سروال داخليّ.

على الجدار المقابل، ظهرت المشاهد مغبّشة في بادئ الأمر، ثمّ اتّضحت. كان شريطاً إخباريّاً قديماً يعود إلى ما لا يقلّ عن ثلاثين عاماً. كان شابّ فاتن، رهيف القامة رصين التعابير، واقفاً في مقدّم سفينة حربيّة تدخل ببطء ميناء الإسكندريّة. كانت حشود غفيرة تحتلّ المرفأ، وآلاف الأذرع ترتفع ملوّحة. كانت السفينة تناور للرسوّ في الميناء، والشابّ يحيّي الجموع بدوره رافعاً ذراعه. راحت الحشود تخترق حواجز الشرطة وتجتاح رصيف المرفأ، وكلّ الوجوه المفتونة ملتفتة إلى الشابّ على السفينة. لم يكن تجاوز السادسة عشرة من العمر، والده توفّي للتوّ،

Twitter: @ketab_n

وأصبح منذ اليوم السابق ملكاً لمصر. بدا متأثّراً وجفلاً أمام تلك الحماسة التي كانت تصّاعد إليه، وتلك الحشود الجذلى، وتلك المدينة المزدانة. كانت تلك بداية كلّ شيء. سيكون المستقبل مشرقاً. ذلك الشابّ المفعم بالوعود، كان هو السمين.

تثاءبت كلود، فهي تشعر بالنعاس كلّما شربت الشمبانيا. التفتّ إلى السمين، جالساً إلى يمين جهاز العرض الذي كان يطقطق مثل رشّاش. بدا بنظّارتيه ووجهه المتورّم وشاربيه، أكثر بلادة وبدانة منه في العادة.

Twitter: @ketab_n

11

في مرّة أخرى، في مساء يوم سبت من شهر يونيو، غادرت باريس مع عمّي أليكس. كنّا في إحدى تلك السيّارات المعروفة بطراز دي إس 19، وكان عمّي خلف المقود. كنت في الرابعة عشرة. سلكنا الطريق العامّ غرباً. كانت خارطة مفروشة أمامي، وكنت أضع علامة بالقلم الأزرق على البلدات التي نعبرها. أضعت تلك الخارطة منذ ذلك الحين، ولم أعد أذكر سوى مدينة صغيرة واحدة مررنا بها: جيزور. هل كان في مقاطعة أَور أم مقاطعة واز، ذلك العقار الذي كان عمّي يحدّثني عنه؟ طاحونة مطروحة للبيع بسعر «مثير للاهتمام». علم عمّي بها من إعلان في الصحيفة كان يتلو عليّ نصّه: «طاحونة تامّة الكماليّات، ذات طابع مميّز. حديقة رائعة مسيّجة بأسوار.

Twitter: @ketab_n

نهر وبستان فاكهة. عند مخرج قرية صغيرة فاتنة». اتّصل بالرجل الذي يهتمّ بعمليّة البيع، وكان كاتب عدل من المنطقة.

بدأ الليل يهبط، وحين رأينا لافتة نزل، انعطفنا في الطريق الذي كان السهم يشير إليه. كان نزلاً فخماً للغاية من الطراز الأنكلو-نورمانديّ. من قاعة الطعام تمتدّ سطيحة يحدّها حوض سباحة. كان هناك تلبيسات من الخشب، وواجهات على شكل زجاج معشّق من المربّعات المتعدّدة الألوان، ومناضد ذات قائمة وحيدة من طراز لويس الخامس عشر. لم يكن هناك من يتناول العشاء سوانا، لأنّ الوقت كان لا يزال مبكّراً جدّاً. طلب عمّي أليكس طبقي غالانتين[1]، وفخذَي غزال، ونبيذاً من بورغونيا من نوع شهير. سكب له الساقي قليلاً من الخمر ليتذوّقه. احتفظ عمّي أليكس بجرعة وافرة في فمه، نافخاً خدّيه وكأنه يتغرغر بها. ثمّ قال أخيراً:

- جيّد... جيّد... لكنّه ليس عذباً كما ينبغي.

- عفواً؟ سأله الساقي مقطّباً.

(1) Galantine قالب من اللّحوم الباردة مغلّف بالجيلاتين.

Twitter: @ketab_n

- ليس عذباً كما ينبغي، ردّد عمّي أليكس بنبرة أقلّ جزماً.

ثمّ أردف بخشونة:

- لكن لا يأس. لا بأس به.

حين ابتعد الساقي، سألت العمّ أليكس:

- لماذا قلت له: ليس عذباً كما ينبغي؟

- هذا تعبير محترف. هو لا علم له بالنبيذ.

- لكن هل أنت تعرف بالنبيذ؟

- إلى حدّ ما.

لا، لم يكن يعرف شيئاً. بل لم يكن يشرب أبداً.

- بوسعي أن ألقّن هؤلاء الهواة اللعينين درساً في المهنة.

كان يرتجف.

- اهدأْ عمّي أليكس، قلت له.

استعاد ابتسامته. وتمتم باعتذارات مبهمة موجّهة لي. كنّا على وشك الانتهاء من تناول الحلوى -كعكتان بالتفّاح- حين قال لي العمّ أليكس:

- الحقيقة أنّنا لم نتكلّم يوماً معاً.

أحسست بأنّه يريد أن يبوح لي بأمر ما. وكان يبحث

Twitter: @ketab_n

عن الكلمات.

- بودّي تغيير حياتي.

قالها بنبرة رصينة لم يتكلّم بها مرّة من قبل. عندها، كتفت ذراعيّ لأظهر له بوضوح أنّني أستمع له بكلّ ما لديّ من قدرة.

- عزيزي باتريك... ثمّة مراحل من الحياة يتحتّم علينا فيها استخلاص الحصيلة...

وافقته الرأي هازّاً رأسي بشكل طفيف.

يجب أن نحاول الانطلاق من جديد على أسس متينة، أتفهم ذلك؟

- أجل.

- يجب أن نحاول البحث عن جذور، هل تفهمني؟

- أجل.

- لا يمكن للواحد أن يبقى طوال حياته رجلاً من لا مكان.

شدّد متأنّقاً على كلمتي «لا مكان».

«رجل اللّا مكان..».

قالها وهو يشير بيده اليسرى إلى نفسه، حانياً رأسه

Twitter: @ketab_n

وعلى وجهه ابتسامة ساحرة. لا بدّ أن هذه الحركة كان لها في الماضي وطأة على النساء.

- أنا ووالدك رجلان من لا مكان، أتفهم ذلك؟

- أجل.

- هل تعلم أنّنا لا نملك حتّى وثيقة ولادة... ملفّ أحوال مدنيّة... كالجميع... أتعلم؟

- ولا حتّى ذلك؟

- لا يمكن لهذا الوضع أن يستمرّ، بنيّ. فكّرت مليّاً ولديّ قناعة بأنّني على حقّ باتّخاذي قراراً هامّاً.

- أيّ قرار، عمّي أليكس؟

- الأمر في غاية البساطة يا عزيزي. قرّرت أن أغادر باريس وأنتقل إلى الريف. تلك الطاحونة لا تفارق بالي.

- هل ستشتريها؟

- ثمّة احتمال كبير لأن أفعل. إنّني بحاجة إلى العيش في الريف... بودّي أن أحسّ بالتراب والعشب تحت قدميّ.. حان الوقت يا باتريك...

-هذا رائع، عمّي أليكس.

Twitter: @ketab_n

غمره هو نفسه التأثّر لما قاله للتوّ.

- الريف أمر مُغرٍ لمن يريد الانطلاق بحياته من جديد. أتعلم ما الذي أحلم به كلّ ليلة؟

- لا.

- أحلم بقرية صغيرة.

مرّت ظلال من القلق في عينيه.

- أتعتقد أنّ شكلي فرنسيّ بما يكفي؟ قل لي بصراحة.

كان شعره أسود مسرّحاً إلى الخلف، وله شاربان خفيفان وعينان قاتمتان تحت أهداب طويلة جدّاً.

- ما هو الشكل الفرنسيّ؟ سألته.

- لا أدري تحديداً...

كان يحرّك قهوته بالملعقة الصغيرة، ساهماً.

- فكّرت في مستقبلك عزيزي باتريك، قال لي. أعتقد أنّني وجدت المهنة التي تناسبك.

- حقّاً؟

أشعل سيجارة.

- مهنة آمنة، لأنّنا لا ندري ما يمكن أن يحصل في زمن كهذا... يجب ألّا ترتكب الأخطاء التي ارتكبناها

Twitter: @ketab_n

أنا ووالدك... كنّا متروكَين لحالنا. ولم نجد من ينصحنا. أضعنا الكثير من الوقت... سأسمح لنفسي بأن أنصحك، عزيزي باتريك... أتريد أن أقول لك ما هي هذه المهنة؟..

ضغط بيده على كتفي، وهو يحدّق في عينيّ، وقال بصوت وقور يغصّ من شدّة التأثّر:

- يجدر بك أن تعمل في استغلال الغابات، باتريك. سأعطيك كتيّباً حول هذا الموضوع. ما رأيك؟

- ينبغي أوّلاً أن أعتاد هذه الفكرة.

- اقرأ هذا الكتيّب، وسوف نناقش الأمر مجدّداً.

كان العمّ أليكس طلب كوباً من شاي اللويزة راح يحتسيه بجرعات صغيرة.

- أتساءل كيف هي، تلك الطاحونة... أتعتقد أنّهم احتفظوا بالدولاب؟

لا بدّ أنّه كان يحلم بها منذ عدّة أيّام. كلمة «طاحونة» كانت تجعلني أنا أيضاً أحلم. كان بوسعي سماع رقرقة المياه ورؤية النهر ينساب بين الأعشاب.

اقترب الساقي من طاولتنا. قام بإشارة مرتبكة وتنحنح

Twitter: @ketab_n

للفت انتباه عمّي أليكس. وفي نهاية المطاف بادره بالقول:

- سيّدي...

ربّتّ على كتف عمّي أليكس:

- عمّي أليكس، السيّد يريد أن يكلّمك...

رفع عمّي أليكس رأسه ونظر إلى السّاقي:

- ما الأمر؟

- سيّدي، أودّ أن أطلب منك شيئاً...

كان وجهه أحمر، وعيناه تحدّقان أرضاً.

- ما هو؟

- توقيع، سيّدي.

كان عمّي أليكس يحدّق به محملقاً.

- ألست الممثّل غريغوري راتوف سيّدي؟...

انتفض عمّي واقفاً، ووجهه ممتقع.

- قطعاً لا، سيّدي. إنّني فرنسيّ واسمي فرنسوا أوبير.

ابتسم الساقي ابتسامة خجول.

- لا سيّدي، بل أنت غريغوري راتوف... الممثّل الروسيّ.

شدّني عمّي أليكس من ذراعي وهربنا عابرَين صالة

Twitter: @ketab_n

الطعام والحانة. كان السّاقي يطاردنا.

- أرجوك، سيّد راتوف... توقيع، سيّد راتوف...

اقترب مدير الحانة من السّاقي موجّهاً له إشارة للاستفسار، وقد أثارت المسألة فضوله.

- إنّه ممثّل روسيّ... غريغوري راتوف...

كنّا نصعد الأدراج. كان عمّي أليكس يدفعني ونتسلّق السلالم بأسرع ما أمكن. تعثّرت وتمسّكت في اللحظّة الأخيرة بالدرابزين، متفادياً السقوط. كان الرجلان يقفان في الأسفل، رافعَين رأسيهما، وهما يلوّحان بذراعيهما.

- سيّد راتوف!... سيّد راتوف!... سيّد راتوف!...

ارتمى عمّي أليكس على أحد السريرين التوأمين في غرفتنا وأغمض عينيه.

- اسمي فرنسوا أوبير... فرنسوا أوبير... أوبير...

كان نومه مضطرباً في تلك الليلة.

*

أخطأنا الطريق ولم نصل سوى قرابة الظهر عند مشارف القرية. كم أوّد لو أتذكّر اسم تلك القرية. دقّقت

Twitter: @ketab_n

طوال السنوات الخمس عشرة الأخيرة في خرائط أور وواز، وحتّى في خرائط أورن على أمل العثور عليها. كان على ما أعتقد اسماً موسيقيّاً ينتهي بـ «أوي»، اسماً على وزن فينتوي، أو فيرنوي، أو سيبتوي.

كانت قرية صغيرة، شارعها الرئيسيّ لا يزال مرصوفاً بالحجارة مثل الشوارع القديمة. المنازل المحيطة به، ومعظمها مزارع، توحي بالسكينة والصلابة. كان الطقس مشمساً جميلاً. التفت رجل عجوز جالس على أدراج المقهى الصغير الذي يبيع التبغ، متابعاً برأسه عبور سيّارتنا.

كان عمّي أليكس نادماً على هدر ليلة في ذلك النزل. كان يجدر بنا أن نقطع المسافة دفعة واحدة. الموعد مع كاتب العدل كان محدّداً قرابة الساعة الحادية عشرة، ولا بدّ أنّ الرجل بدأ يعيل صبره. لا؟ ألا تعتقد ذلك؟ وصلنا إلى الساحة عند خروج الناس من القدّاس، وجهدنا لإبداء سلوك لائق في سيّارتنا الضخمة، فيما المصلّون يعبرون في سيل متواصل من جانبي السيتروين، محدّقين بنا. خفض عمّي أليكس رأسه. وفجأة، سقط مقذوف على السيّارة

Twitter: @ketab_n

أصاب الزجاج الأماميّ الذي لم يعد في وسطه سوى غبار بقيت شظاياه متماسكة بأعجوبة.

- طفل يلهو بمقلاعه، قلت لعمّي أليكس.

- هل تعتقد حقّاً أنّه طفل؟

انتظرنا إلى أن أصبحت الساحة خالية تماماً لنترجّل. أقفل عمّي أليكس أبواب السيّارة بالمفتاح. كان يشدّ على ذراعي على غير عادته، في حركة تفضح لديه اضطراباً عميقاً. لم يستغرق بنا الأمر طويلاً لنعثر على شارع برونو فاريّا حيث كان ينتظرنا كاتب العدل في الرقم 8. كان رجلاً ستّينيّاً بشوشاً، قصير القامة أصلع، استقبلنا بحفاوة. كان يرتدي -لماذا بقي هذا التفصيل مرتسماً في ذهني؟ ولماذا تكون ذكرياتي على الدوام دقيقة وغير مجدية إلى هذا الحدّ؟- طقماً فضفاضاً من قماش بنقشة أمير ويلز. وكانت نظرته تتسرّب من تحت جفنيه المتغضّنين وكأنّما من خلال ألواح درفة خشبيّة.

- هلّا ذهبنا لرؤية الطاحونة؟ قال لعمّي. أعتقد أنّها ستعجبك، وذلك سيكون من دواعي سروري شخصيّاً.

Twitter: @ketab_n

صعدنا في سيّارة السيتروين، فجلس عمّي أليكس وكاتب العدل على المقعدين الأماميّين، وأنا على المقعد الخلفيّ. كان عمّي أليكس يقود من غير أن يرى بوضوح، بسبب الزجاج الأماميّ المحطّم.

- هل أنّ هذا فعلَه طائر؟ سأل كاتب العدل، مشيراً إلى الزّجاج.
- ولماذا يكون من فعلِ طائر؟ سأل عمّي.
- أنا صديق لصاحب الطاحونة.
- هل تلقّيت الكثير من الزبائن حتّى الآن؟
- أنت الأوّل، سيّدي.
- قل لي، تلك الطاحونة... إنّها في وسط الحقول، أليس كذلك؟
- معزولة تماماً.
- وهناك نهر وأعشاب؟ سأل العمّ أليكس مسروراً.
- بالطبع.
- وأشجار صفصاف على ضفّة النهر؟
- لا. لكن هناك مجموعة متنوّعة من الأشجار، سيّدي.
- قل لي... أعرف أنّها حماقة... لا أجرؤ على طرح

Twitter: @ketab_n

السؤال عليك...

- أرجوك سيّدي، افعلْ، قال كاتب العدل بصوت في غاية العذوبة.

- إنّه حلم قديم... أتعلم، هناك أغنية... سأحاول أن أتلو لك كلماتها...

كانت تلك أوّل مرّة يتكلّم فيها العمّ أليكس عن أغنية.

- هذه هي الكلمات...

كان متردّداً وكأنّه سيتلفّظ ببذاءة.

«حين تعود وترى نهرك من جديد،
والحقول والأحراش حولَه
والمقعد الخشن قرب الجدار الحجريّ العتيق»

خيّمت لحظة صمت.

- هل أنّ الطاحونة توحي بهذه الأغنية؟ سأل العمّ أليكس أخيراً.

- سوف ترى بنفسك سيّدي.

كنّا خرجنا من القرية، وكان العمّ أليكس يقود

Twitter: @ketab_n

بصعوبة. كنت مضطرّاً إلى تحذيره حين تكون سيّارات قادمة بالاتّجاه المعاكس. أشار لنا كاتب العدل إلى طريق إلى اليسار، وفي اللحظة التي انعطفنا بها، تناثر الزجاج الأماميّ حبيبات صغيرة على لوحة القيادة.

– سوف نرى بشكل أفضل هكذا، قال العمّ أليكس.

أشار لنا كاتب العدل إلى بوّابة من الخشب الأبيض، يحيط بها سور من الجانبين.

– تفضّلا، أيّها السيّدان.

دفعنا البوّابة، لكنّه تسنّى لي أن ألمح على السور، إلى اليمين، لوحة خشبيّة كتب عليها بأحرف تقلّد الخطّ الصينيّ: طاحونة يانغ تسي.

– طاحونة يانغ تسي؟ سألتُ كاتب العدل.

– أجل، أجاب وهو يهزّ رأسه محرجاً.

– ولماذا «يانغ تسي»؟ سأل العمّ أليكس وهو يرمقنا بنظرة قلقة.

لم يجب كاتب العدل. كنّا دخلنا الحديقة.

هناك، في العمق، تراءى لي بناء أشبه بشاليه صغير، تكاد تحجبه شجرتان من الزان النحاسيّ. ومع اقترابنا منه،

Twitter: @ketab_n

اكتشفت أنّه قائم على ركائز، وأنّ سطحه القرميديّ يتألّف من عدّة طبقات الواحدة فوق الأخرى، تلتفّ إلى الأعلى عند طرفها. كان رجل طويل القامة شائب الشعر واقفاً على الشرفة، يلوّح لنا بذراعه. نزل الأدراج الخشبيّة وتقدّم صوبنا بخفّة. كانت له لحية مقلّمة بعناية على شكل طوق حول ذقنه، يمسّدها باستمرار، وعينان زرقاوان محملقتان.

– السيّد أبوت، قال كاتب العدل مشيراً إلى الرجل.

– فرنسوا أوبير، وابن شقيقي، قال العمّ أليكس بنبرة اجتماعيّة.

– تشرّفت. تفضّلا بالصعود...

استرقت النظر إلى عمّي أليكس. بدا لي شاحباً جدّاً.

صعدنا الأدراج المؤدّية إلى الشرفة، يتقدّمنا أبوت وكاتب العدل.

– كنت أعتقد أنّها... طاحونة، قال عمّي بخجل.

– هدمتُ الطاحونة القديمة، وشيّدتُ هذا مكانها قبل خمس سنوات، أجاب أبوت. إنّه أجمل بكثير. بما لا يقارن.

بقينا أنا وعمّي مسمّرين بلا حراك على الشرفة، قبالة

Twitter: @ketab_n

الرجلين. كان أبوت يلامس لحيته باحتراس بسبابته. لست أدري السبب، لكنّني لطالما ارتبت من أولئك الرجال الذين لديهم لحية على شكل طوق، يسرفون في الاعتناء بها.

- هذا له طابع مميّز أكثر بكثير من الطاحونة السابقة، صدّقني... قال كاتب العدل.

- هل أنت واثق من ذلك؟ سأله عمّي. كان وجهه يزداد شحوباً، وخفت أن يصاب بوعكة.

- صديقي أبوت أقام فترة طويلة في الهند الصينيّة، شرح كاتب العدل. لم يعد إلى هنا سوى في 1954، وشيّد هذا المنزل حتّى لا يشعر كثيراً بالغربة. أنا شخصيّاً أجده مميزاً للغاية... كنت تبحث عن منزل فريد، أليس كذلك؟

- ليس بالضبط، أجاب عمّي.

دفعنا أبوت وكاتب العدل إلى الداخل، إلى قاعة طويلة وضيّقة لا بدّ أنّها الصالون.

- بوسعكما أن تريا أنّ جميع الجدران وجميع العوازل من خشب التيك، قال كاتب العدل متشدّقاً.

Twitter: @ketab_n

– جميعها، ردّد أبوت. جميعها.

كان تمثال نصفيّ حجريّ لبوذا يشغل كوّة كبيرة أمامنا. وعلى الجدران عُلّقت رسوم على الحرير تالفة، وكأنّها ملطّخة بالسخام. حول طاولة صينيّة خفيضة جدّاً ذات قوائم ضخمة مفتولة، وضعت كراسيّ هزّازة.

– ما رأيك بالأمر؟ همست لعمّي أليكس.

لم يسمعني. بدا مثبّط العزيمة، وكان يكزّ على شفتيه وكأنّه سوف ينهار باكياً من شدّة الإحباط.

– إذن سيّدي؟ سأل أبوت.

بقي العمّ أليكس صامتاً. كان يعبر الغرفة، حانياً ظهره، ماشياً مشية آليّة. كان يجد صعوبة في شقّ طريق له بين كلّ تلك التحف من الشرق الأقصى الموزّعة وسط فوضى عارمة، والصواني لتدخين الأفيون، والفواصل من خشب الورد. توقّف أمام رسمة على لوح خشبيّ ملمّع.

– هذه، تدارك أبوت، هذه ليست نسخة بخسة. إنها لوحة من القرن السابع عشر سيّدي. تمثّل وصول سفراء لويس الخامس عشر إلى البلاط الملكيّ التايلانديّ عام 1726.

Twitter: @ketab_n

- هل تعتزم بيعها مع ما تبقّى، ميشال؟ سأل كاتب العدل.
- الأمر يتوقّف على السعر.
- سوف أقود السيّد في جولة على غرف النوم.
- لا، همس عمّي أليكس. لا داعي...
- بلى. ولم لا؟ تعجّب كاتب العدل.
- لا. لا. أرجوك...

خفضت رأسي، متوقّعاً فورة غضب، وأخذت أحدّق بطرف حذائي، وأبعد منهما بقليل بجلد نمر بحجم مذهل، مفروش على الأرض.

- هل تشعر بوعكة سيّدي؟ سأل أبوت.
- إنّني بخير... سوف أخرج لحظة لتنشّق الهواء، همس العمّ أليكس.

تبعناه إلى الشرفة.

- اجلس هنا، قال أبوت مشيراً إلى الكنبات الخيزران.

انهار العمّ أليكس في إحدى الكنبات. جلسنا أنا وكاتب العدل قبالته.

- سوف أجلب لك مشروباً منعشاً، قال أبوت. لحظة لو سمحت...

Twitter: @ketab_n

اختفى في الصالون، ولمحتُه يوجّه إشارة تواطؤ إلى كاتب العدل. قد أكون سيّئ النيّة، إلّا أن تلك الإشارة كان معناها:

- حاول إقناعه.

في مطلق الأحوال، فإنّ ذلك الرجل الذي تطوّق ذقنه لحية مشذّبة بعناية بدا لي منذ الوهلة الأولى مريباً بعض الشيء، وتصوّرته ضالعاً في قضيّة تهريب أموال غامضة من الهند الصينيّة.

- ليس هذا ما كنت أتوقّعه على الإطلاق، قال عمّي بصوت ينازع.

- آه حقّاً؟

- ظننت أنّها طاحونة «حقيقيّة»، إن كنت تفهم ما أعنيه... قال مشدّداً على كلمة «حقيقيّة».

- لكنّها تضاهي طاحونة حقيقيّة، أليس كذلك؟ قال كاتب العدل.

- هذا يتوقّف على وجهة النظر... أنا أريد شيئاً مريحاً، هل تفهمني؟...

- لكنّ طاحونة يانغ تسي مريحة تماماً، أجاب كاتب

Twitter: @ketab_n

العدل. تخال نفسك فيها خارج العالم، على مسافة آلاف الكيلومترات من كلّ شيء. إنّها الغربة عينها...

- ليست الغربة ما أبحث عنه سيّدي، ردّ العمّ أليكس برزانة. ثمّ عمّ أغترب؟

صمت فجأة، وقد أعياه ذلك التصريح.

- أنت مخطئ، قال كاتب العدل. إنّها صفقة فريدة... أبوت يواجه استحقاقات داهمة... وسوف يتركها لك بثمن زهيد... يجدر بك اغتنام الفرصة...

بقينا صامتين. كنت أنقر برؤوس أصابعي على طاولة خشبيّة صغيرة عجيبة دائريّة الشكل.

- أتعرف ماذا تسمّى هذه؟ سألني كاتب العدل مشيراً إلى الطاولة الصغيرة.

- لا.

- التايلانديّون يسمّونها طبل المطر.

بقي عمّي أليكس منهاراً في كرسيّه. أخذ مطر صيفيّ غزير يتساقط، مطر استوائيّ، مطر رياح موسميّة.

- ما إن نتكلّم عن المطر حتّى يهطل، قال كاتب العدل ممازحاً.

Twitter: @ketab_n

قدم أناميّ[1] شابّ صوبنا من الطرف المقابل من الشرفة، حاملاً طبقاً. بدا في سترته البيضاء أشبه بخدّام المستعمرات المحليّين. اشتدّ المطر أكثر، وكان الجوّ ثقيلاً جدّاً. أخذ عمّي أليكس يمسح جبينه. ظهر أبوت، مرتدياً قميصاً كاكيّ اللّون مفتوحاً على صدره، وهو يمسّد لحيته.

- تفضّل، قال لعمّي أليكس. جلبت لك بعض الكينين، من يدري؟

وضع الخادم الآسيويّ طبق المرطّبات، ووجّه له أبوت أمراً بلغة بلاده. أشعل الفتى فانوساً صينيّاً كان يتأرجح فوق رؤوسنا. في تلك اللحظة، أخذَت كلّ مشاعر الكآبة والإحباط التي كنت أستشفّها لدى عمّي أليكس تخالجني أنا أيضاً. ظلّ طوال رحلتنا يحلم بطاحونة حجريّة قديمة، ونهر ينساب بين الأعشاب، وسط الريف الفرنسيّ. عبرنا مقاطعات واز وأورن وأور وغيرها. لنصل أخيراً إلى تلك القرية. لكن ما الذي جنيته يا عمّي من كلّ تلك الجهود؟

(1) نسبة إلى محميّة أنام، وهي منطقة في وسط فيتنام الحاليّة وضعت لفترة تحت ادارة فرنسية غير مباشرة.

Twitter: @ketab_n

12

كان فوكري يتكلّم خافضاً صوته مع أحدهم أمام النافذة. وكانت امرأة شقراء جالسة على الكنبة، قطعة الأثاث الوحيدة في القاعة. كانت تدخّن. التفت فوكري عند وصولي. ثمّ توجّه صوبي وقال لي، مشيراً إلى المرأة الشابّة:

– أقدّم لك دونيز دريسّيل.

صافحتها ورمقتني بنظرة ساهمة. واصل فوكري مداولاته همساً. جلستُ عند طرف الكنبة من غير أن تعيرني هي أيّ اهتمام.

كنت أردّد لنفسي اسم «دريسّيل» الذي سمعته للتوّ، واقترن على الفور في ذهني باسم آخر: هاري. لكن من عساه يكون هاري دريسّيل؟ رحت أسعى جاهداً لإعطاء

Twitter: @ketab_n

وجه لهذين الاسمين اللذين بد لي اقترانهما أمراً بديهيّاً. أغمضت عينيّ حتّى أركّز تركيزاً أفضل. هل كلّمني أحدهم يوماً عن شخص يدعى هاري دريسّيل؟ أم أنّني قرأت هذا الاسم في مكان ما؟ هل التقيت بذلك الرجل في حياة سابقة؟ سمعتُني أسأل بصوت كتيم:

- هل أنت ابنة هاري دريسّيل؟

حدّقت فيّ محملقة، ثمّ قامت بحركة مباغتة وسقطت سيجارتها من بين شفتيها.

- كيف عرفت ذلك؟

بحثت عن جواب على هذا السؤال. لكن عبثاً. تلك الجملة خرجت من فمي تلقائيّاً، ووددت لو أقرّ لها بذلك، لكنّني قرأت على وجهها تأثّراً شديداً جعلني لا أجد ما أقوله.

- هل تعرف هاري دريسّيل؟

قالت «هاري دريسّيل» بصوت أقرب إلى الهمس، وكأنّ ذلك الاسم يلذع شفتيها.

- قليلاً، أجل.

- غير معقول.

Twitter: @ketab_n

- سمعت عنه مراراً، قلت وأنا أترصّد أيّ إشارة مبهمة قد تصدر عنها، تسمح لي بتبيان من يكون بالضبط هاري دريسّيل ذاك.

- هل كلّمك أحدهم عن والدي؟ سألت قلقة.

- كلّمني عنه الكثيرون.

- لماذا؟ هل تعمل في مجال الاستعراضات؟

تراءى لي مسرح سيرك، سمعت قرع الطبل المتواصل إلى ما لا نهاية، فيما تتأهّب بهلوانة في الأعلى لأداء قفزة الموت، وأنا أصلّي من أجلها، محدّقاً في طرف حذائي.

- كان فنّاناً ممتازاً، قلت لها.

كانت تنظر إليّ، والامتنان على وجهها. حتّى أنّها أمسكت بيدي.

- هل تعتقد أنّهم ما زالوا يذكرونه؟

بالتأكيد.

- كان سيفرح كثيراً لو سمع كلامك، قالت.

في تلك الليلة، رافقتها إلى منزلها. قطعنا المسافة مشياً. كانت تريد أن تريني صورة لوالدها، الصورة الوحيدة لديها. كنت أراقبها ونحن نمشي. كم كان عمرها؟

Twitter: @ketab_n

ثلاثة وعشرون عاماً. وأنا أُقارب السابعة عشرة. كانت متوسّطة القامة، شقراء، عيناها فاتحتان مشقوقتان، وأنفها دقيق وشفتاها قرمزيّتان. كانت تبدو مغوليّة، بوجنتيها العاليتين والغرّة على جبينها ومعطفها من فرو الثعلب الأبيض.

كانت تقطن في مجمّع من الأبنية في جادّة مالاكوف. عبرنا بهواً ودخلنا غرفتها. كانت غرفة فسيحة جدّاً. بابان زجاجيّان يطلّان على الخارج وثريّا. كان جلد نمر يغطّي السرير الشاسع بحجم لم أرَ مثله من قبل. في الطرف الآخر من الغرفة، قرب إحدى النوافذ، منضدة زينة منجّدة بقماش من الساتان الأزرق السماويّ. وعلى الجدار في عمق الغرفة، صورتان كبيرتان معلّقتان جنباً إلى جنب، بارزتان في إطارين ذهبيّين متشابهين. توجّهَت إليهما على الفور، فأزالتهما عن الجدار ووضعتهما على السرير.

التقطت الصورتان للوجهين جانبيّاً ويبدوان محنيَين قليلاً. عند أسفل صورة الرجل، كتب اسمه بأحرف بيضاء: هاري دريسّيل.

كان يبدو قد قارب الثلاثين، بشعره الأشقر المموّج

Twitter: @ketab_n

ونظرته المتّقدة وابتسامته. يرتدي قميصاً مفتوح الياقة، يظهر منها شال منقّط معقود عقدة رخوة. أكثر من عشرين عاماً انقضت حتماً بين صورته وصورة ابنته، ورغم ذلك يبدو ذاك الأب وتلك الابنة أقرب ما يكونان إلى شقيق وشقيقة. وجدت مؤثّراً أن تحرص على التقاط صورة لها في الوقفة ذاتها مثل والدها، وتحت الإضاءة ذاتها.

- أشبهه، أليس كذلك؟ أنا حقّاً ابنة عائلة دريسّيل.

قالت «دريسّيل» كما لو أنّها تقول «هابسبورغ» أو «لوسينيان»[1].

- لو أردتُ، لأمكنني أنا أيضاً العمل في مجال الاستعراضات، لكنّه ما كان سيرضى عن ذلك.

ومن بعده هو، كان ذلك سيبدو صعباً.

- كان حتماً والداً طيّباً، قلت لها.

نظرت إليّ بدهشة وبهجة. فهي أخيراً لقيت شخصاً يدرك أنّها ليست ابنة أيّ كان، بل ابنة هاري دريسّيل. لاحقاً، حين انتقلت للعيش معها نهائيّاً، حدست أنّني

(1) عائلتا هابسبورغ ولوسينيان من العائلات الأوروبيّة العريقة تتحدّران من أسرتين مالكتين.

Twitter: @ketab_n

سوف ألعب دوراً هامّاً في حياتها. كنت أوّل شخص استطاعت أن تكلّمه عن والدها. وكان هذا الموضوع الوحيد الذي يهمّها. قلت لها إنّ والدها كان يثير فضولي أنا أيضاً إلى أقصى حدّ، وأنّني منذ التقيت بها، تراودني باستمرار تساؤلات حول ذلك الرجل. أخبرتها عن مشروعي: كتابة سيرة حياة هاري دريسّيل. كنت على استعداد للقيام بأيّ شيء على الإطلاق من أجلها.

هي لم تره منذ 1951، حين كانت لا تزال طفلة. ففي تلك السنة، تلقّى عرضاً للذهاب إلى مصر لإحياء سهرات في ملهىً ليليّ، قرب نزل الأهرامات. ثمّ في يناير 1952، حصل حريق القاهرة، وتزامن للأسف مع اختفاء هاري دريسّيل. كان ينزل في ذلك الحين في فندق احترق بالكامل. تلك كانت على الأقلّ الرواية التي شاعت، لكنّها لم تكن تصدّقها.

كانت من جهتها على قناعة بأنّ والدها لا يزال على قيد الحياة، وأنّه يختبئ لأسباب خاصّة به، غير أنّه سيظهر من جديد في أحد الأيّام. كنت أقسم لها بأنّني مقتنع بذلك أنا أيضاً. فتاة غريبة الأطوار حقّاً. تقضي معظم أوقات العصر

Twitter: @ketab_n

ممدّدة على السرير الشاسع، ملتفّة ببرانس حمّام حمراء قانية، تدخّن سجائر تبعث رائحة أفيون. وكانت تستمع دوماً إلى الأسطوانات ذاتها، فتطلب منّي أن أعاود تشغيلها عشر مرّات أو عشرين مرّة على التوالي. مقطوعة «شهرزاد» لريمسكي كورساكوف، وأسطوانة 78 لفّة سجّلت عليها افتتاحيّة أوبريت بعنوان «أزهار بقرشين»[1].

لم أكن أفهم في بادئ الأمر كيف كانت تملك هذا القدر من المال. رأيتها تشتري دفعة واحدة في عصر أحد الأيّام معطفاً من جلد الفهد ومجوهرات. عرضَتْ عليّ برفقٍ أن تبتاع لي طقوماً من صنع خيّاط مرّ عليه بين زبائنه دوقا سبوليت وأوست، لكنّني لم أجرؤ على عبور عتبة ذلك المعبد. اعترفتُ لها في نهاية المطاف بأنّ الملابس لا تهمّني، وبما أنّها أصرّت على معرفة ما الذي «يهمّني» حقّاً، قلت لها: الكتب. ما زلت حتّى الآن أحتفظ بالكتب التي تلطّفت وأهدتني إيّاها: قاموس لاروس القرن العشرين بستّة أجزاء، قاموس ليتريه، «التاريخ الطبيعيّ» لبوفّون[2]

(1) أوبريت *Deux sous de fleurs*.

(2) *L'Histoire naturelle* موسوعة ضمّنها كاتبها بوفّون Buffon (1707–1788) كلّ المعلومات المتوافرة في زمنه في مجال العلوم الطبيعيّة.

Twitter: @ketab_n

في طبعة مصوّرة قديمة جدّاً وفي غاية الروعة، وأخيراً «مذكّرات» بولوف[1] بغلاف جلديّ أخضر فاتح. تألّمت حين أخبرتني بعد فترة أنّها تتلقّى مصروفها من أرجنتينيّ يزور فرنسا كلّ سنة في مايو لحضور مباريات بطولة البولو التي كان ابن شقيقه يلعب فيها. أجل، حسدْتُ السنيور روبرتو لورين ذاك الذي عرضت لي صورة له: رجل قصير القامة جسيم، شعره أسود داكن لمّاع.

أمّا أنا، فكنت مستعدّاً لمباشرة الكتاب الذي سيروي حياة والدها، والانكباب عليه بكلّ ما أمكنني من شغف. كانت متلهّفة لرؤيتي أكتب الصفحات الأولى. كانت حريصة على أن أعمل في ديكور يليق بمثل هذا المشروع، والطاولة التي سأؤلّف عليها عملي كانت تتسبّب لها بكثير من الهمّ والغمّ.

حسمت أمرها أخيراً ووقع خيارها على مكتب من طراز الحقبة الإمبراطوريّة، مترف بالزخارف البرونزيّة. الكرسيّ الذي كان يفترض بي الجلوس عليه كان له

(1) *Mémoires*, Bernhard von Bulow (1849–1929) مذكّرات برنهارد فون بولوف، وهو رجل دولة ألماني كان رابع مستشار للإمبراطوريّة الألمانيّة بين 1900 و1909.

Twitter: @ketab_n

مسندان منجّدان بالمخمل الأحمر القاني المزيّن عند أطرافه بمسامير ذهبيّة، وظهر ضخم عالٍ. واستكمالاً لكلّ ذلك، كنت شرحت لها أنّه يصعب عليّ البقاء جالساً لفترة طويلة، فاقتنت منضدة لتلاوة الإنجيل في الكاتدرائيّات كلّفتها ثروة. كنت أشعر بأنّها تكنّ لي الكثير من المودّة في تلك اللحظات.

وها أنا جالس في أوّل مساء خلف مكتبي. وعلى سطحه أقلام رصاص برت بنفسها رؤوسها. واثنان أو ثلاثة من أقلام الحبر الضخمة تلك الأميركيّة الصنع ملأت خزّاناتها. وزجاجات حبر من كلّ الألوان. ومماحٍ. وورقٌ نشّاف باللّونين الورديّ والأخضر. وكرّاسة من ورق الرسائل الكبير الحجم مفتوحة على صفحة بيضاء. خططتُ بأحرف كبيرة: «حياة هاري دريسّيل»، ودوّنت في الزاوية اليمنى من الصفحة التالية الرقم «1». كان يتعيّن أن أباشر بالبداية، وأن أسألها عمّا احتفظت به من ذكريات عن والدها، وكلّ ما تعرفه عن طفولته وشبابه.

ولد هاري دريسّيل في أمستردام. فقد والديه في سنّ مبكرة جدّاً وغادر هولندا لينتقل إلى باريس. لم يكن

Twitter: @ketab_n

بوسعها أن تحدّد لي أيّ نشاطات زاولها قبل أن نصادفه من جديد عام 1937 على خشبة كازينو باريس، بين راقصي فرقة ميستينغيت[1].

في السنة التالية، توظّف في مطعم «بغداد» في شارع بول سيزان لإداء وصلة منوّعات صغيرة. هناك باغتته الحرب. لم يصبح فيما بعد نجماً، بل استعراضيّاً مميّزاً. في «فول دو نوي» أوّلاً حتّى عام 1943، ثمّ في «سينك آنوف» حتّى عام 1951، تاريخ رحيله إلى مصر حيث اختفى أثره. تلك كانت الخطوط العريضة لمساره المهنيّ.

والدة دونيز كانت من خيّالات الملهى الليليّ «تابارين» اللواتي يمكن رؤيتهنّ جالسات على دوّامة الأحصنة الخشبيّة. تدور الدوّامة، تدور متباطئة أكثر فاكثر، فتشبّ الأحصنة وتستلقي الخيّالات إلى الخلف، بصدورهنّ العارية وشعورهن المحلولة. وتُعزف مقطوعة «دعوة إلى الفالس» لفيبير[2]. عاش دريسّيل ثلاث سنوات مع تلك

(1) Mistinguett (1875–1956) مغنّية وممثّلة فرنسيّة من أهمّ نجوم الاستعراضات في زمنها في فرنسا.

(2) عنوان المقطوعة بالألمانية: *Aufforderung zum Tanz*، وقد أعاد الموسيقيّ الفرنسيّ هكتور برليوز توزيعها أوركستراليّاً تحت العنوان الفرنسيّ: *Invitation à la valse*.

Twitter: @ketab_n

الفتاة قبل ان تهرب إلى أميركا. عندها، ربّى دونيز وحده.

في عصر يوم أحد، اصطحبتني إلى الدائرة الثامنة عشرة، في ساحة كاربو حيث سكنت في الماضي مع والدها. كانت نوافذ شقّتهما الصغيرة في الطابق الأرضيّ تطلّ على حديقة السّاحة الصغيرة، فكان بوسع والدها مراقبتها وهي تلعب قرب تلّة الرمل. في يوم الأحد ذاك، كانت نوافذ الشقّة مفتوحة. سمعنا أصوات أشخاص يتكلّمون، لكنّنا لم نجرؤ على إلقاء نظرة إلى الداخل. تلّة الرمل لم تتغيّر، على ما قالت لي. من أمسيات أيّام الأحد التي عاشتها هناك، كانت تسترجع لوناً ورائحة أقرب إلى الغبار. ذات يوم خميس، يوم عيد ميلادها، دعاها والدها إلى المطعم. لم تنسَ الطريق إلى هناك. تتبع شارع كولينكور، تحت أشجار الأكاسيا. مونمارتر طفولتنا. سوف تلاحظ مطعماً إلى اليسار، عند زاوية شارع فرانكور. ذلك كان المطعم. وفي نهاية الوجبة، تناولَتْ بوظة بالفستق والفراولة. دوّنْتُ كلّ تلك التفاصيل.

كان والدها يستيقظ في ساعة متأخّرة. شرح لها أنّه يعمل في الليل. وحين لم يكن موجوداً، كانت سيّدة

Twitter: @ketab_n

فلامنديّة تعتني بها. ثمّ بدأ يحدّثها عن رحيله إلى مصر. كان من المقرّر أن تنضمّ إليه هناك بعد بضعة أشهر، بصحبة السيّدة الفلامنديّة.

على الرغم من رؤوس الأقلام التي كنت أجمعها، لم يكن بوسعي سدّ الثغرات في تلك الحياة. فما الذي فعله هاري دريسّيل مثلاً حتّى عام 1937؟

كنت عازماً على التوجّه إلى أمستردام لمواصلة تحقيقي، وبعثْتُ إعلاناً إلى صحيفتين هولنديّتين لنشره في ركن «المفقودات»، مرفقاً بصورة دريسّيل: «إلى كلّ من يملك تفاصيل عن نشاطات المغنّي وفنّان المنوّعات هاري دريسّيل حتّى عام 1937، الرجاء الاتّصال بالسيّد ب. موديانو، عبر دريسّيل، رقم 123 مكرّر، جادّة مالاكوف، باريس». صمت مطبق. نشرت نداء آخر في إعلانات صحيفة باريسيّة كبرى: «إلى كلّ من يملك معلومات مفصّلة عن النشاط المهنيّ أو غيره للمغنّي وفنّان المنوّعات هاري دريسّيل أثناء مكوثه في مصر، بين يوليو 1951 ويناير 1952، وبصورة عامّة تفاصيل عن حياته، الرجاء الاتّصال بصورة عاجلة بالسيّد ب. موديانو، مالاكوف 10-28».

Twitter: @ketab_n

اتّصل شخص هذه المرّة، رجل يدعى جورج جانسين، كان مدير أعمال دريسّيل في «السنوات الأخيرة»، على ما قال لي عبر الهاتف. كان يتكلّم بصوت عصبيّ، وحدّدت له موعداً. كان مرتاباً. سألني «إن لم يكن الأمر فخّاً». فضّل أن نلتقي في مكان عامّ، واقترح عليّ بنفسه مقهى في ساحة فيكتور هوغو. قبلت بشروطه. فالكتاب يأتي قبل أيّ اعتبارات أخرى.

قلت له إنّه سيعرفني حتماً، لأنّ قامتي تقارب مترين. لمحت رجلاً يلوّح لي بذراعه من آخر رصيف مقهى «سكوسّا». جلست إلى طاولته. ملامحه توحي بأنّه كان في ما مضى أشقر للغاية ومجعّد الشعر، لكن مع الزمن بهتت العينان والشعر وبشرة الفتى الأشقر تلك. أصبح الرجل يكاد يكون شفّافاً. رمقني بنظرة شاحبة، نظرة أمهق.

– هكذا إذن، أنت مهتمّ بهاري دريسّيل؟ ما الذي تودّ معرفته تحديداً؟

صوته لا يكاد يسمع. خطر لي أنّ ذلك الصوت عبر سنوات وسنوات قبل أن يصل إليّ، وإنّه صوت شخص لم يعد من هذا العالم.

Twitter: @ketab_n

- أعرف ابنته، قلت له.

- ابنته؟ دريسّيل لم يكن لديه أيّ ابنة على الإطلاق.

كان يبتسم ابتسامة واهنة.

- يُسعدني أن أرى فتىً في سنّك يهتمّ بدريسّيل... أنا نفسي...

انحنيت صوبه من شدّة ما كان صوته ضعيفاً. مجرّد نفَس.

- أنا نفسي نسيته منذ فترة طويلة... لكن حين قرأت اسمه في إعلانك... شعرت بغصّة في قلبي...

وضع يده على ذراعي، يد ذات بشرة بيضاء ناصعة ورقيقة للغاية، تتراءى لي عبرها شبكة الشرايين والعظام بالكامل.

- أوّل مرّة التقيتُ فيها بدريسّيل...

- أوّل مرّة التقيتَ فيها بدريسّيل، ردّدت بنهم.

- كان ذلك عام 1942، في «ليغلون»... كان متّكئاً إلى البار... ملاك...

- حقّاً؟

- وما همّك أنت؟

Twitter: @ketab_n

- هل تحتفظ بذكريات أخرى عنه؟

عبر على وجهه ظلّ ابتسامة أضاء ملامحه.

- حين كان هاري يذهب إلى المقهى، كان يجلس دائماً على رصيفه من جهة الشمس حتّى تلوّح بشرته...

- حقّاً؟

- كان أيضاً يدهن شعره بمسحوق خاصّ ليزيده شقرة.

قطّب جانسين.

- يا للحماقة... لم أعد أذكر اسم المسحوق...

بدا فجأة خائر القوى. صمتَ. إن لزم الصمت، فمن غيره سيكلّمني عن هاري دريسّيل؟ كم من الأشخاص في باريس يمكنهم أن يجزموا بأنّ رجلاً يدعى هاري دريسّيل مرّ على هذا العالم؟ كم هو عددهم؟ أنا وهو. ودونيز.

- بودّي لو تكلّمني عنه، قلت له.

- كلّ هذا بات بعيداً جدّاً... آه... تذكّرت اسم المسحوق الذي كان هاري يدهن به شعره دائماً... مسحقوق كلير إيكلا... أجل. كان مسحوق كلير إيكلا...

Twitter: @ketab_n

حولنا، كان العديد من روّاد المقهى يغتنمون ذلك العصر المشمس من شهر أبريل. ومعظمهم من الشبّان. كانوا يرتدون ملابس خفيفة في غاية الأناقة. تلك الملابس كانت ستبدو اليوم بدورها بالية، لكن بالمقارنة معها في ذلك العصر، فإن ملابس جانسين -معطف طويل جدّاً ذو كتفين محشوتين وطقم قطنيّ رثّ- هي التي كانت تعطي انطباعاً بأنّها من حقبة ماضية. خطر لي أنّه لو جلس هاري دريسّيل إلى طاولتنا، لبدا ربّما هو أيضاً أشبه ما يكون بشبح، تماماً مثل جانسين.

- لعبْتُ دور مدير أعماله في النهاية، همس جانسين... عند رحيله إلى مصر...

لم يكن يجيب على جميع أسئلتي، لكن برأيه، لن نتمكّن يوماً من تبيان ما حصل فعلاً في مصر. كان لديه فكرة واضحة جليّة عن المسألة، وأمام إلحاحي وإصراري، ألمح لي بكلام مبطّن أنّ دريسّيل قضى هناك قتلاً. وبعد هذا الاعتراف الخجول، لم يعد بوسعي انتزاع أيّ معلومات منه. نصحني دون كثير حزم باستجواب شخص يدعى إدمون جهلان كان من أوساط الملك فاروق في فترة وجود

Twitter: @ketab_n

دريسّيل في مصر. بحثت فيما بعد عن إدمون جهلان ذاك، لن بدون نتيجة. أين عساك تكون يا جهلان؟ ابعث لي بإشارة.

طلب شراب النعناع وجلس يحدّق في الفراغ أمامه.

- أيّ نوع من العروض كان يقدّمها هاري دريسّيل؟

- كان يغنّي سيّدي. وكان يرقص الكلاكيت أيضاً.

- وأيّ أغنيات كان يغنّي؟

عقد حاجبيه، وكأنّه يحاول استذكار الأغنيات الرائجة في حينه.

- كانت أغنيات ألمانيّة. وكان له أغنية مفضّلة: كابريو-لين... كابريو-لين... كابريولين...

- كان يحاول استعادة اللّحن، وكان صوته يتكسّر. صوت بعيد. قصيّ.

- كان يسكن في ساحة كاربو، أليس كذلك؟ سألته.

هزّ كتفيه قائلاً بنبرة مستاءة.

- لا سيّدي، بل على جادّة لاتور موبور.

- هل كنت على علم بأنّ له ابنة؟

- لا، قطعاً لا... هذه ثاني مرّة تقول لي ذلك سيّدي...

Twitter: @ketab_n

أنت تحبّ المزاح، أليس كذلك؟...

غضّن عينيه ونظر إليّ، لاوياً طرف شفتيه في تكشيرة.

- كان يهوى الرجال أكثر من أن ينجب طفلة.

أفزعني صوته.

- أعتقد أنّ بإمكاننا أن نفترق... لم يعد لديّ ما أقوله لك...

نهض، ونهضت بدوري. مشينا جنباً إلى جنب على رصيف ساحة فيكتور هوغو.

- لماذا تريد أن تحرّك أشباح الماضي؟

كان واقفاً أمامي، يكاد يكون مخيفاً، بوجهه المنهك، ومعطفه المهلهل، وشعره الشاحب ونظرته نظرة الأمهق.

- ألا يمكنك أن تدعنا وشأننا وتنسى المسألة؟ ألا يمكنك ذلك؟

تركني هناك وابتعد. بقيت مسمّراً، أتأمّله يمشي نحو جادّة بوجو. لم يلتفت. خيال بشريّ مبهم، سديم سوف يتبدّد بين لحظة وأخرى. كابريولين.

*

Twitter: @ketab_n

كان ذلك عملاً يتطلّب نفسَاً طويلاً. هذا ما كنت أشرحه لدونيز في المساء، حين تأتي إلى «حجرة عملي». كان يتحتّم بدءاً جمع الأدلّة الماديّة التي تثبت أنّ هاري دريسّيل مرّ فعلاً في هذا العالم. وذلك سيستغرق وقتاً. عثرت أثناء تصفّحي رزمة ضخمة من الصحف القديمة، على إعلان للملهى الليليّ «فول دو نْوي» في شارع كولونيل رونار، يرد فيه اسمه. وفي صحيفة أخرى، في أسفل ركن «فنون وعروض»، إعلان من جديد، ولكن بأحرف صغيرة جدّاً: «يقدّم المغنّي هاري دريسّيل حاليّاً عرضاً في «سينك آ نوف» شارع بونتيو. شاي –مشروب الساعة 17,00– العشاء – العرض الساعة 20,30. مفتوح طوال الليل». قصصت هاتين الوثيقتين وألصقتهما على دفتر رسم كبير. دقّقت فيهما بالعدسة المكبّرة طوال ساعات من شدّة ما صرت أشكّ في وجود هاري دريسّيل. وضعت كذلك لوائح طويلة بأسماء أشخاص يمكن أن يحدّثوني عنه، إن كانوا لا يزالون على قيد الحياة. وذلك أيضاً كان يتطلّب الحصول على أدلّة هاتف قديمة من كلّ الأصناف الممكنة. غير أنّ أرقام الهاتف لم تعد تعمل، والرسائل كانت تعود

Twitter: @ketab_n

لي وعليها عبارة «عنوان غير معروف».

كان لدريسّيل كلب. لا تزال دونيز تذكر ذلك اللّابرادور الذي كان اسمه «مكتوب». ذات ليلة، حين انطلقت صفّارات الدفاع المدنيّ، نزلوا إلى القبو، السيّدة الفلامنديّة، ودونيز، والكلب. وفي الساعة ذاتها، في ملهى «سينك آ نوف» الليليّ في شارع بونتيو، كان دريسّيل يبدأ عرضه الغنائيّ. انطفأ الضوء في القبو، وتردّد دويّ القنابل التي كانت تقترب أكثر فأكثر. كانت تلك حتماً عمليّة قصف محطّة «لا شابيل». كانت دونيز مستكنّة لصق الكلب، وهو يلعق خدّها. ذلك اللسان الخشن كان يهدّئ خوفها، خوف فتاة صغيرة.

لا تزال تذكر ذلك العصر، حين اشتريا هي ووالدها اللابرادور من مأوى للكلاب في أوتوي، في شارع إيفيت. عدت إلى هناك. كان مدير مأوى الكلاب، وهو رجل حسّاس، يحتفظ منذ أربعين عاماً بنسخ عن شهادات سلالات جميع الكلاب التي باعها، وصور هويّة صغيرة لها جميعها. اصطحبني في جولة على محفوظاته التي كانت تحتلّ قاعة واسعة، فعثر على سلالة اللابرادور وعلى

Twitter: @ketab_n

صورته. ولد ذلك اللابرادور في مزرعة للكلاب في سان لو عام 1938، وكانت أسماء والديه وجدوده الأربعة مذكورة. سلّمني مدير مأوى الكلاب صورة طبق الأصل لشهادة سلالته ونسخة عن صورته. وكان لنا حديث مطوّل. كان الرجل يحلم بإنشاء مركز بيانات تسجّل فيه جميع الكلاب منذ ولادتها.

كان بودّه أيضاً جمع كلّ الوثائق، من صور وأفلام طويلة أو أفلام هواة وشهادات خطّيّة أو شفهيّة، كلّ ما يمتّ بصلة إلى كلاب مفقودة. كان يشعر باللّوعة حين يفكّر بكلّ تلك الكلاب التي قضت بالآلاف، مجهولة تماماً، ومن غير أن تترك أدنى أثر. ألصقت شهادة سلالة اللّابرادور وصورته في دفتر الرسم، بين الوثائق الأخرى المتعلّقة بهاري دريسّيل. كنت أبدأ شيئاً فشيئاً بتأليف كتابي، في شذرات متفرّقة. كنت قرّرت العنوان بصورة نهائيّة: «حيَوات هاري دريسّيل». فما روى لي جانسين كان يحملني على الاعتقاد بأنّ دريسّيل عاش عدّة حيَوات متوازية. لم أكن أملك الدليل على ذلك، بل كانت حجّتي واهية جدّاً، لكنّني كنت أنوي إطلاق

Twitter: @ketab_n

العنان لمخيّلتي. فهي ستساعدني على العثور على دريسّيل الحقيقيّ. يكفي أن أسترسل في الأحلام انطلاقاً من العنصرين أو الثلاثة عناصر التي بحوزتي، مثل عالِم آثار أمام تمثال بُترت ثلاثة أرباعه، يعيد ترميمه بالكامَل في رأسه. كنت أعمل في الليل. وخلال النهار، كانت دونيز تبقى بجانبي. كنّا ننهض قرابة السابعة مساءً. تحت برنس الحمّام الأحمر، كانت تعبق بعطر أشتمّه أحياناً عند عبور إحداهنّ، فأسترجع الغرفة الغارقة في نور المساء الرماديّ، والصخب البليل المطوّل المنبعث من السيّارات في الأيام الماطرة، وعينيها اللتين تلتمع فيهما انعكاسات بنفسجيّة، وفمها، وسحر مؤخّرتها الشقراء. حين كنّا ننهض في وقت أبكر، كنّا نذهب في نزهة إلى حديقة بولونيا، من جهة البحيرات أو إلى مطعم بريه كاتلان. كنّا نتحدّث عن المستقبل. سوف نشتري كلباً. وربّما نذهب في رحلة. هل أودّ أن تقصّ شعرها؟ سوف تتبع حمْية غذائيّة اعتباراً من اليوم، لأنّها سمنت بمقدار كيلو. هل أقرأ لها لاحقاً مقطعاً ممّا كتبت؟ كنّا نذهب لتناول العشاء في مطعم على جادّة مالاكوف، صالة فسيحة جدرانها مكسوّة بتلبيسة خشبيّة

Twitter: @ketab_n

كان يجدر إعادة طلائها، على غرار الأعمدة الأربعة من الطراز الكورنثيّ المنتصبة في أطراف القاعة، والتي كانت تتفتّت. الصمت. ضوء عذب ذهبيّ. كنت أحرص دائماً على اختيار طاولة لثلاثة أشخاص، علّ هاري دريسّيل يفتح الباب...

قرابة منتصف الليل، أجلس خلف مكتبي، أمام كرّاسة ورق الرسائل. كان إحساس بالتعب يجتاحني لحظة إزالة غطاء قلم الحبر. عزيزي دريسّيل، كم عانيت من أجلك... لكنّني لست ناقماً عليك. بل أنا المذنب. إنّني واثق من أنّ شكوكاً ساورتك بشأن حياتك، لذلك لم أعثر منها على شيء يذكر. فألفيتُني مضطرّاً إلى التكهّن، حتّى أمنح والداً لابنتك التي كنت أحبّها. مستلقيةً في الغرفة الملاصقة، كانت تسألني: «هل تحرز تقدّماً؟» وتضع أسطوانة لريمسكي كورساكوف على الفونوغراف، ظنّاً منها أنّ الموسيقى تساعد على الكتابة بشكل أسهل.

في بداية شهر مايو، وصل مُعيلها، السنيور روبرتو لورّين، من الأرجنتين برفقة ابن شقيقه وفريقه للبولو. قالت لي إنّنا لن نعود نلتقي بالقدر ذاته. سوف أواصل

Twitter: @ketab_n

السكن في شقّتها، وسوف توافيني من حين لآخر لأقرأ لها المقاطع التالية التي سأكتبها عن والدها. في غيابها، وجدت عزاء في العمل طوال النهار. كتبت نحو خمسين صفحة عن سنوات دريسّيل الأولى، وهي فترة من حياته لا أعرف عنها شيئاً. جعلت منه شخصيّة أشبه بديفيد كوبرفيلد، ودسست بمهارة في سردي مقاطع من ديكنز[1]. كانت سنوات المراهقة في أمستردام غارقة في «أجواء» مستوحاة إلى حدّ بعيد من المرحوم فرانسيس كاركو[2]. لكن انطلاقاً من اللحظة التي باشر فيها دريسّيل حياته الفنيّة في كازينو باريس والتقى بوالدة دونيز، وهي نفسها خيّالة في دوّارة الخيول الخشبيّة في تاباران، وجدت نبرة شخصيّة أكثر.

كان رحيله إلى مصر عام 1951 وإقامته هناك مصدر إلهام خاصّ لي وراحت ريشتي تجري على الورقة جرياً. بين القاهرة والإسكندريّة، كنت في عالمي الأليف. النّادي

---

(1) Charles Dickens (1812–1870) روائيّ بريطاني يعدّ أعظم كتاب الحقبة الفكتوريّة خلق بعضاً من أكثر الشخصيّات الأدبيّة شهرة ومن بينها ديفيد كوبرفيلد شخصيّة الرواية التي تحمل الاسم ذاته.

(2) Francis Carco (1886–1958) شاعر وكاتب فرنسيّ.

Twitter: @ketab_n

الليليّ الأزرق والذهبيّ الذي كان دريسّيل يحيي سهراته، قرب نزل الأهرامات، كان اسمه «لو سكارابيه»[1]، وكانت «الفنّانة» آنّي بيرييه تغنّي فيه. كان الملك فاروق نفسه يأتي ليستمع إلى غنائها، ويكلّف سكرتيره الإيطالي بإحضار مجوهرات ثمينة لآنّي، لكنّ السكرتير كان يوصي على نسخ عنها ويحتفظ بالمجوهرات الأصليّة لنفسه. كان أفراد آخرون يسكنون ذلك المكان، أشخاص نجوا من كارثة ما. وهاري دريسّيل، متى كانت المرّة الأخيرة التي شوهد فيها؟ في يناير، قبل أيّام قليلة من الحريق، حين أقامت السيّدة سازلي بيه حفلة لتدشين فيلّاها الجديدة في ضواحي القاهرة، فيلّا كانت نسخة طبق الأصل عن «تارا»[2] في فيلم «ذهب مع الريح»، بالممرّ المحفوف بأشجار الأرز المؤدّي إليها...

كنت أقرأ الفصول لدونيز. لم يعد بوسعها النوم بجانبي في جادّة مالاكوف. قال لها السنيور روبرتو لورّين إنّه يودّ الزواج منها. كان يكبرها بثلاثين عاماً، وكانت تراه سميناً

(1) *Le Scarabée* أي «الخنفساء».

(2) تارا اسم مزرعة قطن تملكها عائلة سكارليت أوهارا، بطلة فيلم «ذهب مع الريح».

Twitter: @ketab_n

بعض الشيء، وهي لا تحبّ الرجال الذين يستخدمون مستحضرات تجميل... لكنّه كان يُعَدّ على ما يبدو بين أكبر ثلاثة أثرياء في الأرجنتين. كنت يائساً لكنّني كنت أخفي ذلك عليها.

كانت تزورني أحياناً زيارة خاطفة قرابة الثانية صباحاً. أفلحتْ في الخروج خلسةً من «الفيل الأبيض» حيث كان السنيور روبرتو لورين وابن شقيقه ينتظران الفجر. كنت أُطلعها على آخر صفحات كتبتها، ولم تستغرب يوماً المنحى الذي كانت تتّخذه «حيَوات هاري دريسّيل».

كانت لنا بضع لقاءات أخرى في ساعات العصر التي يلفّها الخمول. كانت تلتفّ بفروة النمر، وأقرأ لها باقي حياة والدها الحافلة بألف مغامرة ومغامرة.

ذات مساء، كنت عائداً على جادّة مالاكوف، حاملاً بين ذراعيّ ثلاث بكرات ضخمة سلبتُها من محفوظات سينمائيّة بتواطؤ أحد الموظّفين. كان ذلك الجزء الأوّل من فيلم صُوِّر عام 1943، فيلم «ذئب عائلة مالفونور»[1] ذاك

(1) *Le Loup des Malveneur* فيلم فرنسيّ من إخراج غيّوم رادو عُرض عام 1943.

Twitter: @ketab_n

الذي شارك فيه دريسّيل في دور «حضور صامت ذكيّ». كنت أعتزم استئجار جهاز عرض ونسْخ المشاهد التي يظهر فيها عن مسافة قريبة بما يكفي لتمييز ملامحه، مشهداً مشهداً.

كانت كلّ الأضواء في الشقّة مشتعلة، لكن لم يكن هناك أحد. وعلى مكتبي من طراز عهد الإمبراطوريّة، رسالة صغيرة خربشتها على عجل: «إنّني راحلة للعيش في الأرجنتين. أرجوك أن تكمل الكتاب عن والدي. قبلات. دونيز.» جلست أمام المكتب. كنت وضعت البكرات الثلاث أرضاً عند قدميّ. انتابني إحساس بالفراغ، إحساس ألفتُه منذ طفولتي، منذ أدركت أنّ الناس والأشياء تفارقنا أو تتوارى في يوم من الأيّام. اشتدّت وطأة ذلك الإحساس وأنا أجول على الغرف. اختفت صورتا دريسّيل وابنته. هل حملتهما معها إلى الأرجنتين؟ السرير، وفروة النمر، ومنضدة الزينة المكسوّة بالساتان الأزرق السماويّ، كلّها سوف تنتقل إلى غرف أخرى، ومدن أخرى، ربّما إلى قبو، وبعد وقت قصير، لن يعود يخطر في بال أحد أنّ هذه الأغراض كانت لفترة

Twitter: @ketab_n

وجيزة في غرفة على جادّة مالاكوف، حيث جمعتها ابنة هاري دريسّيل.

باستثنائي أنا. كنت في السابعة عشرة، ولم يعد أمامي سوى أن أصبح كاتباً فرنسيّاً.

Twitter: @ketab_n

13

في نهاية ذلك الصيف، تزوّجْتُ. قضيتُ الأشهر التي سبقت ذلك الحفل المدهش مع المرأة التي ستصبح لاحقاً زوجتي، في بلادها، في تونس. هناك، لا غسق. يكفي أن يغفو الواحد لحظة على سطيحة سيدي بوسعيد، ويكون هو اللّيل هبط.

كنّا نغادر البيت، وعطر الياسمين الذي يعبق به. كان ذلك هو الوقت الذي تتشكّل عنده في مقهى «لي ناتّ» حلقات لعب الورق حول علولو شريف. كنّا ننحدر على الطريق المؤدّي إلى المرسى والمشرف على البحر الذي يمكن رؤيته في الصباح الباكر، مغلّفاً ببخار فضيّ. ثمّ تتّخذ مياهه شيئاً فشيئاً صبغة ذلك الحبر الذي كنت أحبّه في طفولتي، لأنّه كان يُحظَر علينا استخدامه في المدرسة: الحبر الأزرق

Twitter: @ketab_n

الصافي. منعطف أخير، وشارع أخير محاط بالفيلّات، وإلى اليسار، محطّة القطارات الصغيرة لخطّ تونس-حلق الوادي-المرسى. كانت خيالات تنتظر عبور القطار. وعلى الرصيف، مصباح يلقي نوره الخافت على المحطّة بواجهتها البيضاء وسقيفتها القديمة المحاطة بتخريمات معدنيّة. كان يمكن لتلك المحطّة أن تقع في مونتارجي أو في سان لو، لولا زرقة سقيفتها وبياض واجهتها اللذان كانا سيعطيانها مظهراً مريباً.

في الجهة المقابلة، حيث النسائم عليلة، يحتشد الناس لتناول كوب من الشاي بالصنوبر أو للعب الدومينو. كانت تردنا همهمات الأحاديث التي يحتضنها الليل. وبين الحين والآخر، يومض بياض جلباب. السينما في الجانب الآخر من الشارع تعرض لافتة فيلم «عطلة في روما»[1]، وفي الجزء الأوّل من العرض فيلم عربي من بطولة فريد الأطرش. لديّ صورة قديمة لهذا النجم، نراه فيها مع شقيقته أسمهان. هما يتحدّران من عائلة أمراء من جبل

(1) *Roman Holiday* أو بتسميته الفرنسيّة *Vacances romaines* فيلم من إخراج وليام وايلر عام 1953 وبطولة أودري هيبورن وغريغوري بيك.

Twitter: @ketab_n

الدروز. حصلْتُ على الصورة في تلك السنة من حلّاق عجوز في المرسى، كان محلّه يقع في الشارع الأوّل بعد السينما، إلى اليمين. كانت معروضة في وسط واجهته، وذهلْتُ لمدى الشبه بين زوجتي وأسمهان تلك الغامضة، المغنية والجاسوسة في آن كما يقولون.

كنّا نمشي على طول الكورنيش البحريّ، المحاط بصفّين من أشجار النخيل. كان الكورنيش مظلماً. وبعد تجاوز السفارة الفرنسيّة، نلج حيّ المرسى السكنيّ. نتوقّف عند قمّة شارع ينحدر صوب البحر. ندفع بوّابة حديديّة، فنصل إلى حيّ البرج، حيث تسكن عائلة زوجتي.

نتبع ممرّاً مشرفاً على الحديقة المنحدرة نزولاً، وفي العمق يمتدّ البحر. ثمّة سور خفيض يعلوه سياج صغير، وتغزوه أزهار الجهنّميّة. نجتاز بوّابة ثانية، ونصل إلى ما يشبه فناء داخليّاً.

كانوا جميعهم هناك، جالسين حول طاولات الحديقة، يتحدّثون بأصوات منخفضة أو يلعبون الورق: الدكتور الطاهر زاوش، ويوسف قلّاتي، وفاطمة، ومامية، وشفيقة، وجويدة، وآخرون لا أعرفهم، وجوه شبه غارقة

Twitter: @ketab_n

في العتمة. كنّا نجلس بدورنا ونشارك في الأحاديث. غادروا تونس العاصمة في يونيو، غادروا الشقّة الجميلة التي لها سحر منازل البكوات في نهج الكومسيون، ليقيموا في البرج لفترة الصيف. هناك تتعاقب الأمسيات، كلّها شبيهة بتلك الأمسية، فنجدهم حول الطاولات، يلعبون الورق أو يتحادثون، غارقين في زرقة النّور.

كنّا ننزل أدراج الحديقة برفقة صديقينا العزيزين آسيا والمنصف قلّاتي. في الأسفل، ممرّ يرسم حدود ما كان في الماضي أملاك الرسّام الهولندي ناردوس: منتزه شاسع يمتدّ حتّى الشاطئ. فُرِزت الأرض لاحقاً، وباتت مجموعة من البيوت الصغيرة المحاطة بحدائق ضيّقة تنتشر عوضاً عن الأشجار الظليلة في ذلك المنتزه حيث كانت الشقراء فلو، ابنة ناردوس، تتنزّه عارية قبل زمن طويل... الفيلا من الرخام الورديّ التي يعلوها برج صغير لم تُهدم. وفي ليالي البدر، يتراءى لنا تمثال ناردوس النصفيّ الذي نحته بيده، منتصباً أبيض وحيداً أمام الفيلا. فالملّاكون الجدد لم يمسّوه. وكان يواجهنا، وعينه من الجصّ محدّقه في الشاطئ. لم يبق من المنتزه سوى ضمّة من أشجار

Twitter: @ketab_n

الأوكالبتوس الباسقة التي تنشر عطرها في الليل.

لكنّنا غالباً ما كنّا بعد زيارتنا للبرج، نسلك طريق قمرت[1] المحاذي للبحر. وقبل بلوغ قمرت بقليل، نتوقّف أمام نزل «لوبيرج دو دون».

ثمّة درج. وسطيحة أرضيّتها من الرخام المقطّع مربّعات سوداء وبيضاء. معظم الطاولات كانت تحتمي تحت عرائش متشابكة. كنّا نختار على الدوام الطاولة ذاتها، عند طرف السطيحة، من حيث يمكننا رؤية الشاطئ والبحر.

كنّا نسمع صوت الأمواج تتكسّر على الشاطئ، والريح تحمل إليّ آخر أصداء الإسكندريّة، ومن أبعد من ذلك، أصداء تيسالونيكي ومدن أخرى كثيرة قبل أن تلتهمها النيران.

(1) ضاحية سكنية شمال العاصمة التونسيّة.

Twitter: @ketab_n

14

كنت أتصفّح جريدة حين وقعت عيناي بالصدفة على صفحة الإعلانات العقاريّة وقرأت فيها: «فارغة. شقّة على رصيف كونتي. مطلّة على السين. الطابق الرابع. بدون مصعد. دانتون 62,55».

تأكّد حدسي حين اتّصلت بالرقم. أجل، تلك كانت فعلاً الشقّة التي قضيت فيها طفولتي. ومن غير أن أدري السبب، طلبت أن أزورها.

تقدّمني وسيط الوكالة، أصهب بدين ملمّع الشعر، متسلّقاً الأدراج. في الطابق الرابع، أخرج من جيبه طقماً من حوالى عشرة مفاتيح، اختار منها دون أيّ تردّد المفتاح المناسب. دفع باب المدخل وتنحّى مفسحاً لي: «بعدَك!».

Twitter: @ketab_n

شعرت بغصّة في قلبي. خمسة عشر عاماً مرّت منذ اجتزت آخر مرّة تلك العتبة. كان مصباح يتدلّى من سلك، مضيئاً البهو الذي احتفظت جدرانه بلونها الرمليّ المائل إلى الزهريّ. إلى اليمين، المشاجب التي كان والدي يعلّق عليها معاطفه الكثيرة، والرفّ الكبير الذي كانت تصطفّ عليه –لا أزال أذكر ذلك– بضع حقائب سفر قديمة وقبّعة من القماش للبلاد الحارّة. فتح الأصهب الملمّع الشعر أحد مصراعي باب البهو وانتقلنا إلى المدخل الفسيح الذي كنّا نستخدمه غرفة طعام. كنّا في شهر يونيو، والساعة لم تكد تتخطّى السابعة مساء، فكان نور عذب يغلّف الغرفة، مثل غشاوة ذهبيّة. أمسك بذراعي:

– عذراً...

كانت قطرات عرق تنساب على صدغيه وبدا في غاية التوتّر.

– أنا... أنا نسيت محفظتي عند أحد الزبائن... أقصد... آمل أن تكون عنده... سوف... سأذهب إليه حالاً... المسألة تستغرق ربع ساعة...

كان يقلّب النظر يميناً وشمالاً مذعوراً. ما الذي تحويه

Twitter: @ketab_n

تلك المحفظة حتّى تدفع به إلى مثل هذه الحالة؟ ما الذي يخشاه؟

- هل لديك مانع أن تنتظرني هنا؟

- لا، إطلاقاً.

- يمكنك الشروع في زيارة الشقّة؟

- بالتأكيد.

توجّه مسرعاً إلى البهو.

- أراك بعد قليل... إلى اللقاء... يمكنك إلقاء نظرة أولى.

صفق الباب خلفه.

بقيت وحيداً، في ذلك الموقع من القاعة حيث كانت في ما مضى الطاولة التي نتناول وجباتنا حولها. كانت الشمس ترسم خطوطاً برتقاليّة على الأرض. لا صوت يخدش الصمت. الكوّة الدائريّة التي نخمّن من خلالها غرفة لا تزال في مكانها. أذكر موقع قطع الأثاث: الكرتان الأرضيّتان الكبيرتان من طرفي الكوّة. وتحتها، المكتبة المزجّجة، وعليها مجسّم سفينة شراعيّة. وعند أسفل المكتبة، النموذج المصغّر لأحد تلك المدافع التي

Twitter: @ketab_n

استخدمت في معركة فونتونوا[1]. ثمّ الدّميتان الخشبيّتان بدرعيهما وقميصيهما من زرد الحديد، كلّ خلف إحدى الكرتين الأرضيّتين. وأمام مجسّم السفينة الشراعيّة، السيف الذي كان في ما مضى ملكاً لدوق غلوستر. وفي الجهة المقابلة، في تجويفٍ داخل الجدار، أريكة محاطة من الجانبين برفوف من الكتب، بحيث أنّني حين كنت أجلس هناك قبل العشاء وأطالع أحد المجلّدات المغلّفة بقماش أحمر، إخالني جالساً في مقصورة قطار.

بدت لي تلك القاعة أصغر وهي فارغة. أم أنّ نظرتي وأنا بالغ هي التي كانت تعيدها إلى حجمها الحقيقيّ؟ انتقلت إلى «غرفة الطعام الصيفيّة»، وهي أشبه برواق عريض ذي بلاط أسود وأبيض، وله واجهة زجاجيّة تطلّ على سطوح مبنى «لا مونيه»[2] وحديقة المنزل المجاور. تراءت لي كأنّها عبر غشاء شفّاف الطاولة المربّعة بسطحها من الرخام الزائف. والمقعد من الجلد البرتقاليّ الذي

(1) معركة فونتونوا جرت عام 1745 قرب فونتونوا في هولندا النمساوية (بلجيكا حالياً) في سياق حرب استيراث عرش النمسا وانتهت بانتصار فرنسا.

(2) La Monnaie المؤسسة النقديّة الوطنيّة الفرنسيّة المسؤولة عن إصدار العملة الفرنسيّة.

Twitter: @ketab_n

بهت لونه في الشمس. وورق الجدران، وعليه مشهد من كتاب «بول وفرجيني». عبرت المدخل من جديد في اتّجاه الغرفتين المطلّتين على رصيف النهر. أحدهم انتزع مرآة الرواق. دخلت إلى ما كان مكتب والدي، وهناك سيطر عليّ شعور جارف بالوحشة. فلا الكنبة هناك، ولا الستارة المتناسقة المعرّقة بنقوش حمراء عقيقيّة. ولا صورة بيتهوفن على الجدار إلى اليسار، قرب الباب. ولا التمثال النصفيّ لبوفّون في وسط الموقد. ولا تلك الرائحة، التي هي مزيج من نبتات عطريّة وتبغ إنكليزيّ.

لم يعد من أثر لكلّ ذلك.

صعدت الأدراج الداخليّة الصغيرة حتّى الطابق الخامس ودخلت الغرفة إلى اليمين التي حوّلها والدي إلى حمّام. البلاط الأسود، الموقد، المغطس من الرخام الفاتح اللون، كلّها لا تزال في مكانها، لكن في الغرفة من جهة نهر السين، اختفت التلبيسات الخشبيّة باللون الأزرق السماويّ، وتأمّلت الجدار العاري. كان لا يزال يحمل هنا وهناك رقعاً ممزّقة من قماش تلبيس منقّش، من مخلّفات المستأجرين الذين سبقوا والديّ. خطر لي أنّني إن انتزعت خرق قماش التلبيس تلك، فسوف أكتشف قطعاً صغيرة

Twitter: @ketab_n

جدّاً من قماش أقدم.

كانت الساعة شارفت على الثامنة مساء، وتساءلت إن لم يكن الأصهب الملمّع الشعر من الوكالة نسيني. كان نور شمس المغيب ذاك يغمر الغرفة، راسماً على الجدار في العمق مربّعات ذهبيّة صغيرة، هي ذاتها كما قبل عشرين عاماً. كانت إحدى النوافذ مفتوحة قليلاً، فاتّكأت إلى المسند. حركة السير خفيفة جدّاً. وعند أقصى الجزيرة، بعض صيّادي السمك المتأخّرين، تحت أغصان الأشجار الكثّة في حديقة فير غالان الصغيرة. كان بائع كتب قديمة عرفته من خياله الطويل ومن شملته، إذ كان هناك منذ أيام طفولتي، يثني كرسيّه المحمول من القماش ويبتعد بمشية بطيئة نحو جسر «بون ديزار».

حين كنت أستيقظ في تلك الغرفة، وأنا في الخامسة عشرة، كنت أفتح الستائر، فأطمئنّ لرؤية الشمس، ومتسكّعي يوم السبت، وباعة الكتب القديمة الذين يفتحون خزائنهم، وحافلة بطابقين تعبر. يوم كسائر الأيّام. ولم تقع الكارثة التي كنت أخشاها من غير أن أدري بوضوح ما هي. كنت أنزل إلى مكتب والدي،

Twitter: @ketab_n

وأقرأ فيه صحف الصباح. أمّا هو، فكان يُجري اتّصالات هاتفيّة لا نهاية لها، مرتدياً مبذله الأزرق. كان يطلب منّي أن آتي لاصطحابه في المساء من بهو فندق ما، كان يحدّد فيه مواعيده. فنتناول العشاء في البيت. وبعد ذلك، نذهب لمشاهدة فيلم قديم أو لتناول مثلّجات في ليالي الصيف، على رصيف مقهى روك أونيفير. أحياناً كنّا نبقى معاً في مكتبه، نستمع إلى أسطوانات أو نلعب الشطرنج، وكان يحكّ أعلى رأسه بسبابته قبل أن يحرّك حجراً. ثمّ يرافقني إلى غرفتي، فيدخّن سيجارة أخيرة وهو يعرض عليّ «مشاريعه».

ومثل الطبقات المتعاقبة من الورق والقماش المنقّش التي تكسو الجدران، كانت تلك الشقّة تحرّك فيّ ذكريات أبعد في الزمن، ذكريات من تلك السنوات القليلة التي كان لها وطأة شديدة عليّ، رغم أنّها سبقت ولادتي. في نهاية يوم من يونيو 1942، في غسق عذب كغسق اليوم، توقّفَت درّاجة أجرة في الأسفل، على رصيف كونتي، عند الفجوة التي تفصل بين مبنى لا مونيه والمعهد. نزلت منها فتاة. تلك كانت والدتي. وصلَت للتوّ إلى باريس قادمة في قطار بلجيكا.

Twitter: @ketab_n

تذكّرت أنّه كان هناك بين النافذتين، على مقربة من رفوف الكتب، مكتب كنت أنقّب في أدراجه حين كنت أنام في هذه الغرفة. بين الولّاعات القديمة، والعقود البخسة، والمفاتيح التي لم تعد تفتح أيّ أبواب -ومن يدري أيّ أبواب تراها كانت تفتح؟- عثرت على مفكّرات صغيرة من سنوات 1942 و1943 و1944، كانت لوالدتي، غير أنّني فقدتها في ما بعد. من كثرة ما تصفّحتها، حفظت عن ظهر قلب كلّ الملاحظات المقتضبة التي دوّنتها فيها. ففي أحد أيّام خريف 1942، كتبت: «عند تودي فيرنر. شارع شيفر».

هناك التقت بوالدي لأوّل مرّة. يومها دفعتها إحدى صديقاتها للذهاب إلى تلك الشقّة في شارع شيفر التي كانت تسكنها امرأتان شابّتان: تودي فيرنر، وهي يهوديّة ألمانية تقيم هناك بهويّة زائفة، وصديقتها، فتاة ألمانيّة تدعى ليزولوت، متزوّجة من بريطانيّ تسعى لإطلاق سراحه من معتقل سان دوني. في ذلك المساء، كان هناك جماعة من حوالى عشرة أشخاص في شارع شيفر. كانوا يدردشون ويستمعون إلى أسطوانات، وكانت الستائر المغلقة التزاماً

Twitter: @ketab_n

بتعليمات الدفاع المدنيّ تزيد الأجواء حميميّة. كان والداي يتبادلان الحديث، وجميع من كانوا هناك معهما، وكان يمكن أن يشهدوا على لقائهما الأوّل في تلك الأمسية، تواروا منذ ذلك الحين.

عند مغادرة شارع شيفر، أراد والدي وجيزا بيلمون زيارة كورومنديه، في شارع لا بومب. دعوا والدتي لمرافقتهما. صعد الثلاثة في سيّارة بيلمون الفورد. كان بيلمون مواطناً سويسريّاً، وقد حصل على إذن مرور. غالباً ما ردّد لي والدي أنّه حين كان يجلس على مقعد سيّارة بيلمون الفورد، كان ينتابه انطباع واهم بأنّه خارج قبضة الغيستابو ومفتّشي شارع غريفّول، لأنّ تلك السيّارة كانت بصورةٍ ما قطعة من الأراضي السويسريّة. غير أنّ عناصر الميليشيا صادروها بعد قليل، وفي تلك الفورد تحديداً قاموا بتصفية جورج ماندیل[1].

عند كورومنديه، مرّت ساعة حظر التجوّل من غير أن

(1) Georges Mandel (1885–1944) أحد أهم سياسيّي فترة ما بين الحربين في فرنسا ومقاوم فرنسيّ. عند الاجتياح النازيّ لفرنسا، قبض عليه الجيش الألماني قبل نقله إلى فرنسا، حيث تمّ تسليمه إلى الميليشا التي أعدمته في 4 يوليو 1944.

Twitter: @ketab_n

يأبهوا، فبقوا هناك، مسترسلين في أحاديثهم حتّى الفجر. في الأسابيع التالية، تعارف والدي ووالدتي بشكل أعمق. كانا يتواعدان أحياناً كثيرة في مطعم روسيّ صغير في شارع فوستان إيلي. لم يجرؤ في بادئ الأمر على الإفصاح لوالدتي عن أنّه يهوديّ. كانت تعمل منذ وصولها إلى باريس في قسم «مُزامَنة الصوت والصورة» في شركة كونتيننتال، وهي شركة ألمانيّة للسينما، مقرّها في الشانزيليزيه. أمّا هو، فكان يختبئ في مضمار لتعليم الفروسيّة في غابة بولونيا، كان المسؤول عنه من أصدقاء طفولته.

أمس، كنّا أنا وابنتي نتنزّه في «حديقة التأقلم»، ووصلنا بالصدفة إلى جوار ذلك المضمار. ثلاثة وثلاثون عاماً مرّت. مرابض الخيول المشيّدة بالآجرّ الأحمر التي كان والدي يحتمي فيها لم تتغيّر حتماً منذ ذلك الحين، ولا الحواجز والأسيجة البيضاء والرمل الأسود الذي يكسو الميدان. ما الذي جعلني أشتمّ هنا أكثر من أيّ مكان آخر رائحة الاحتلال السامّة، تلك التربة التي انبثقتُ منها؟

زمن مضطرب. لقاءات غير متوقّعة. ترى بأيّ صدفة قضى والداي سهرة رأس السنة في 1942 في مطعم بوليو

Twitter: @ketab_n

برفقة الممثّل سيسيو هاياكاوا[1] وزوجته فلو ناردوس؟ كان هناك صورة منسيّة في قعر أحد أدراج المكتب، يظهر فيها الأربعة جالسين حول طاولة، سيسيو هاياكاوا بوجهه الكتيم العديم التعبير كما في «ماكاو، جحيم القمار»، وفلو ناردوس بشعرها الأشقر إلى حدّ يبدو معه شائباً، ووالدتي ووالدي، أشبه بشابّين خجولين... في ذلك المساء، كان مطعم بوليو يقدّم لوسيان بواييه[2] نجمة أمسيته، وقبل إعلان حلول السنة الجديدة مباشرة، أدّت أغنية محظورة كان أحد كتّابها يهوديّاً:

«كلّمني في الحبّ
حدّثني
قل لي كلاماً معسولاً..».

---

(1) Sessue Hayakawa (1889–1973) ممثّل ياباني شارك في أفلام أميركيّة وفرنسيّة وألمانيّة وبريطانيّة وكان أوّل ممثّل آسيويّ يحقّق النجوميّة في الولايات المتّحدة وأوروبا. ومن الأفلام التي مثّلها Macao, l'enfer du Jeu («ماكاو، جحيم المقامرة») للمخرج الفرنسي جان دولانوا عام 1950.

(2) Lucienne Boyer (1901–1983) مغنيّة فرنسيّة شهيرة في فترة ما بين الحربين، ومن أشهر أغانيها *Parlez-moi d'amour* (كلّمني في الحبّ).

Twitter: @ketab_n

مضى الزمن منذ ذلك الحين، ورحل سيسيو هاياكاوا. ما الذي كان يفعله ذلك النجم الياباني القديم من نجوم هوليوود في باريس أيّام الاحتلال؟ كان يسكن مع فلو ناردوس منزلاً صغيراً في عمق فناء، في الرقم 14 شارع شالغران، حيث كان والداي يزورانهما أحياناً كثيرة. وعلى مقربة، في شارع لو سوار، الشارع الأوّل إلى اليمين، كان الدكتور بيتيو[1] يحرق جثث ضحاياه. كان سيسيو يستقبل والديّ في المحترف الذي أقامه في الطابق الأرضيّ، قاعة ذات أعمدة مفتولة وتلبيسات خشبيّة داكنة ومقاعد خشبيّة كنسيّة عالية الظهر، مرتدياً كيمونو «قتال». كانت شقرة فلو ناردوس تبدو غير حقيقيّة أكثر من العادة في حضور ذلك الساموراي. كانت تعتني بالأزهار والنبتات المعقّدة التي كانت تجتاح المحترف شيئاً فشيئاً. كما كانت تربّي سحلّيات. عاشت طفولتها وحداثتها في تونس، في حيّ المرسى، في فيلّا من الرخام الورديّ كان يملكها والدها، وهو كان رسّاماً هولنديّاً. وفي تونس تحديداً

(1) Marcel Petiot (1897–1946) المعروف بالدكتور بيتيو هو طبيب فرنسي اتّهم غداة الحرب العالميّة الثانية بارتكاب عدة جرائم قتل، إثر اكتشاف بقايا 27 شخصاً في منزله في باريس.

Twitter: @ketab_n

التقيت بها في يوليو 1976. علمت قبل بعض الوقت أنّها استقرّت في هذا البلد، على غرار مَن يعودون دوماً إلى حيث بدأت حياتهم.

اتّصلت بها وأفصحت لها عن اسمي. بعد مضيّ أكثر من ثلاثين عاماً، كانت لا تزال تذكر والديّ. تواعدنا على أن نلتقي يوم الخميس في الثامن من يوليو في الساعة السادسة مساءً في فندق «تونس بالاس»، على جادّة قرطاج.

لا شكّ أنّ ذلك الفندق عرف أمجاداً في زمن الوصاية، غير أنّ ردهته بدت مهملة، بأرائكها القليلة وجدرانها العارية. كان رجل بدين جالساً بقربي، مرتدياً بذلة سوداء صارمة للغاية، وفي يده اليمنى مسبحة من العنبر يكرّ حبوبها. اقترب شخص وحيّاه مخاطباً إيّاه بلقب «الحاجّ».

كنت أفكّر بوالديّ. أيقنت أنّني إن أردت الالتقاء بشهود على شبابهما وأصدقاء لهما من أيّام الصبا، فإنّ ذلك سيحصل دوماً في أماكن شبيهة بذلك المكان: ردهات فنادق مهجورة في بلاد نائية، مفعمة برائحة منفى ويسكنها أشخاص لفظتهم الحياة، لم تكن لهم يوماً ركيزة ولا سجلّ أحوال شخصيّة دقيقاً. وفيما أنا أنتظر فلو

Twitter: @ketab_n

ناردوس، أحسست بحضور والدي ووالدتي إلى جانبي، حضور هادئ خفر. رأيتها تدخل وعلمت على الفور أنّها هي. نهضت وأومأت لها بيدي. كانت تضع على رأسها لفّة ورديّة وترتدي قميصاً من اللون ذاته وسروالاً، وتنتعل حذاءً قطنيّاً بالياً. إلى خصرها ربطت حزاماً مصنوعاً من قطع زجاج برتقاليّة وكِسَر مرايا، مثبّتة بخيوط فضّيّة. كانت هي المرأة في الصورة. جانب وجهها لا يزال يحتفظ بنقاوة كبيرة، وعيناها زرقاوان لازورديّتان.

فاجأتها حين كلّمتها عن الماضي. لم تعد هي نفسها تذكر التفاصيل بشكل جيّد. ثمّ أخذت ذاكرتها تتّضح تدريجيّاً، وخلتُها تعيد إليّ شريطاً قديماً جدّاً كانت نسيته في قعر درج.

كانت تذكر أنّ والدي اختبأ شهراً في الرقم 14 من شارع شالغاران من غير أن يجرؤ مرّةً على الخروج من البيت، لأنّه لم يكن يملك أيّ وثيقة، وكان يخشى المداهمات. سيسيو هاياكاوا أيضاً لم يكن وضعه قانونيّاً. كان الألمان يجهلون أنّ ذلك الياباني يحمل جواز سفر أميركيّاً، وكان اليابانيّون يريدون تجنيده. في المساء، كان

Twitter: @ketab_n

الثلاثة، هي وسيسيو ووالدي، يلعبون الدومينو لينسوا همومهم، أو كان والدي يساعد سيسيو على مراجعة دوره في «الدوريّة البيضاء»[1]، فيلم كان يمثّل فيه بإدارة مخرج يدعى كريستيان شامبوران. كان والدي صديقاً قديماً لهما. وقف شاهداً في زفافهما هي وسيسيو عام 1940 في القنصليّة اليابانيّة. أجل، كانت تذكر تلك الأمسية في بوليو، لكنّهم التقوا قبل ذلك بأسبوع، في الرقم 14 من شارع شالغران، بمناسبة عيد الميلاد، والدي ووالدتي، وتودي فيرنر، وكورومنديه وبيلبون وجميع الآخرين...

لم يعد هناك سوانا في الردهة. كانت جلبة سيّارات وأبواق تردنا من الشارع، فيما نحن جالسان هناك، نتحدّث عن ماضٍ جمعنا، غير أنّه بات نائياً بحيث فقدَ أيّ أثر للواقع.

خرجنا من الفندق وتبعنا جادّة بورقيبة. كان الليل يهبط. وراحت مئات العصافير المختبئة بين أوراق الأشجار المصطفّة على طول الفاصل بوسط الشارع تزقزق

(1) *Patrouille blanche* فيلم فرنسي أخرجه كريستيان شامبوران عام 1939 عُرض بعد الحرب العالميّة الثانية عام 1949.

Twitter: @ketab_n

مثل جوقة تصمّ الآذان. كنت أنحني حتّى أسمع ما كانت تقوله لي. عرِفَت الكثير من المشقّات والصعاب منذ ثلاثين عاماً. أوقِفَت عند التحرير بتهمة أنّها «جاسوسة ألمانيّة»، لكنّها تمكّنت من الفرار من سجن توريل. حتّى قبل ذلك، في زمن الحرب العجيبة تلك، حين كانت تسكن مع هاياكاوا شارع سوسور في حيّ باتينيول، كان أهالي الحيّ يتّهمونها بأنّها من «الطابور الخامس».

عاد سيسيو إلى أميركا. توفّي. ثمّ فقدت والدها. وحُجِزت فيلّا طفولتها في المرسى. كانت تسكن غرفة في مدينة تونس العتيقة، وتعتاش من صنع حيوانات صغيرة من الزجاج: زواحف وأسماك وطيور. عمل دقيق للغاية. كانت تنحت قطع الزجاج وتجمعها وتربطها بعضها ببعض بواسطة خيط معدنيّ. يمكنها أن تريني حيواناتها في أحد الأيّام، إن كنت أرغب بذلك. يجدر بنا الالتقاء في ساعة أبكر، وعندها نذهب مشياً إلى غرفتها، في شارع سيدي زهمول. لكنّ الوقت كان متأخّراً جدّاً ذلك المساء، وقد أضلّ طريقي عند العودة. رافقتها إلى باب فرنسا. انتهجتْ أحد الأزقّة بمشية رشيقة فيها خُمول، وكنت

Twitter: @ketab_n

أحدّق في خيالها بين باعة الأقمشة والعطور والحليّ الذين كانوا يوضّبون بضائعهم المعروضة. لوّحَت لي بإشارة أخيرة بذراعها قبل أن تتوارى وسط حشود الأسواق. ومعها ابتعد بعضٌ من شباب والديّ.

احتفظت بصورة صغيرة الحجم إلى حدّ أنّني أتفحّصها بالعدسة المكبّرة لأميّز تفاصيلها. يظهران جالسين جنباً إلى جنب على أريكة الصالون، والدتي ممسكة بكتاب بيدها اليمنى، ومسندة يدها اليسرى إلى كتف والدي الذي ينحني ليداعب كلباً أسود كبيراً لا يسعني تبيان نوعه. ترتدي والدتي قميصاً عجيباً مخطّطاً طويل الكمّين، وشعرها الأشقر منسدل فوق كتفيها. أمّا والدي، فيرتدي بذلة فاتحة اللون. يشبه في الصورة الطيّار الأميركي هاورد هيوز، بشعره الداكن وشاربيه الرقيقين. من يا ترى التقط لهما تلك الصورة، ذات مساء إبّان الاحتلال؟ لولا تلك الحقبة، واللقاءات المريبة والمتنافرة التي كانت تولّدها، لما كنت أبصرت النور أساساً. تلك المساءات، حين كانت والدتي في غرفة الطابق الخامس، تطالع أو تنظر من النافذة. في الأسفل، كانت بوّابة المدخل تحدث صوتاً

Twitter: @ketab_n

معدنياً حين تنغلق. كان ذلك والدي عائداً من رحلاته الغامضة الحافلة بالمغامرات. كانا يتناولان العشاء معاً في غرفة الطعام الصيفيّة في الطابق الرابع. وبعدها ينتقلان إلى الصالون الذي يستخدمه والدي أيضاً مكتباً. هناك كان يتحتّم عليهما إغلاق الستائر، بسبب تعليمات الدفاع المدنيّ. لا بدّ أنّهما كانا يستمعان إلى الإذاعة، وكانت والدتي تطبع مرتبكة على الآلة الكاتبة ترجمات الأفلام التي يترتّب عليها تسليمها كلّ أسبوع إلى شركة كونتيننتال للإنتاج. كان والدي يقرأ «أجساد وأرواح» أو «مذكّرات» بولوف. كانا يتحدّثان، يعدّان مشاريع. وغالباً ما تصيبهما نوبة ضحك شديدة.

ذات مساء، ذهبا إلى مسرح «ماتوران» لحضور مسرحيّة دراميّة بعنوان «سولنيس البنّاء»، فهربا من الصالة وهما يكبتان ضحكهما. لم يعودا قادرين على ضبط نفسيهما. وواصلا الضحك مقهقهين على الرصيف قرب شارع غريفول حيث كان يربض الشرطيّون الذين يطلبون رأس والدي. أحياناً، بعدما يسدلان ستائر الصالون ويستتبّ الصمت عميقاً إلى حدٍّ يمكن معه سماع عربة

Twitter: @ketab_n

خيل تعبر أو حفيف الأشجار على رصيف النهر، كان قلق غامض يقبض على والدي، على ما أتصوّر. كان الخوف يتملّكه، كما في مساء ذلك اليوم من صيف 1943. كان مطر عاصفة رعديّة ينهمر، وكان تحت قناطر شارع ريفولي. الناس ينتظرون في مجموعات متراصّة حتّى يتوقّف المطر. وكانت عتمة متزايدة تعمّ القناطر. أجواء من الترقّب، من الإشارات المعلّقة، أجواء ما قبل المداهمات. لم يكن يجرؤ على البوح بخوفه. هو ووالدتي كانا كائنين اقتُلعا من جذورهما، بدون أيّ رابط يشدّهما إلى أيّ شيء، مجرّد فراشتين في ليل باريس ذاك إبّان الاحتلال، حيث يسهل الانتقال من الظلمة إلى نور حادّ، ومن النور إلى الظلمة. ذات يوم، عند الفجر، رنّ جرس الهاتف وخاطب صوت مجهول والدي منادياً إيّاه باسمه الحقيقيّ. ثمّ أقفل الخطّ مباشرة. في ذلك اليوم قرّر الفرار من باريس... كنت جالساً بين النافذتين، عند أسفل رفوف الكتب. وكانت الظلمة انتشرت في الغرفة. في ذلك الوقت، كان الهاتف على المكتب، على مقربة. بدا لي بعد ثلاثين عاماً أنّني أسمع تلك الرنّة المرتجفة شبه المكتومة.

Twitter: @ketab_n

ما زلت أسمعها.

اصطفق باب المدخل. ثم وقع خطوات على الأدراج الداخليّة. كان أحدهم يقترب منّي.

- أين أنت؟ أين أنت؟

كان ذلك وسيط الوكالة، الأصهب الملمّع الشعر... عرفت عطر روخا الذي كان يفوح خلفه حين يعبر.

نهضت. مدّ لي يده.

- عذراً، تأخّرت.

بدا منفرج الأسارير. فقد وجد محفظته. انضمّ إليّ أمام إحدى النوافذ.

- هل تمكّنت من زيارة الشقّة؟ لم يعد بالإمكان تمييز شيء. كان يجدر بي أن أجلب معي مصباحاً كهربائيّاً.

في تلك اللحظة، ظهر المركب على نهر السين. كان ينزلق في اتّجاه رأس الجزيرة، وشريط أضوائه مصوّب إلى المنازل على أرصفة النهر. اكتست جدران الغرفة فجأة ببقع ونقاط مضيئة وعرائش أخذت تدور وتتصاعد لتتيه في السقف. في تلك الغرفة ذاتها، قبل عشرين عاماً، كانت الظلال المتلاشية والأليفة ذاتها تسحرنا أنا وشقيقي رودي

Twitter: @ketab_n

حين نطفئ الضوء لدى عبور المركب النهريّ ذاته.

لا بدّ أنّنا كنّا نحتفل في ذلك المساء بمناسبة ما. وكان اللوفر وساحة فير غالان وتمثال هنري الرابع عشر على جسر بون نوف تتلألأ بالأضواء.

– ما رأيك بالمنظر؟ سألني الأصهب الملمّع الشعر بصوت هزيل ملؤه الحماس، كمن يعلن انتصاراً. منظر استثنائيّ، أليس كذلك؟

لم أدرِ ما أجيبه. في عام 1945، في مساء أحد أيّام مايو، كانت أرصفة النهر ومتحف اللوفر تشعّ بالأضواء كما اليوم. وكانت ضفاف السين وحديقة فير غالان تغصّ بالحشود. في الأسفل، عند رصيف كونتي، تجمّع الناس عفويّاً ليرقصوا على وقع الأكورديون.

عزفوا «لا مارسيّيز»[1]، ثمّ «لا فالس برون». كانت والدتي تتأمّل الناس يرقصون، متّكئة إلى الشرفة. كنت سأولد في يوليو. والدي أيضاً كان في مكان ما وسط

(1) *La Marseillaise* النشيد الوطنيّ الفرنسيّ. و«الفالس برون» أو «الفالس السّمراء» *La Valse brune* أغنية فرنسية شاعت منذ بدايات القرن الماضي، وتعاقب على أدائها حتّى فترة قريبة العديد من المغنّين والمغنّيات.

Twitter: @ketab_n

الحشد الذي يحتفل بأوّل مساء من السّلم. في اليوم السابق، كان غادر مستقلّاً القطار مع بيلمون. فقد عُثِرَ على سيّارة الفورد في عمق حظيرة، من ناحية ناربون. وكان المقعد الخلفيّ ملطّخاً بالدم.

Twitter: @ketab_n

15

كانت سيّارة أجرة متوقّفة عند زاوية جادّة غامبيتا وشارع فرانس. تردّدت قبل فتح الباب، لأنّ رجلاً كان جالساً بجانب السائق، لكنّ الأخير أومأ لي برأسه مشيراً إلى أنّ بإمكاني الصعود.

جلسنا أنا وزوجتي وابنتي على المقعد الخلفيّ. كنت أحمل طفلتي بين ذراعيّ، وقد أتمّت للتوّ عامها الأوّل. أمّا أنا، فكان عمري ثلاثين عاماً وأربعة أشهر، فيما زوجتي أوشكت أن تبلغ الخامسة والعشرين.

وضعنا عربة الأطفال الكحليّة اللون بيننا. كان الرجل الجالس على المقعد الأمامي إلى يمين السائق مسمّراً بلا حراك، وقلت في نهاية الأمر:

- إلى سيميه، حديقة آرين.

Twitter: @ketab_n

كان السائق يقود ببطء. كان بعمري، وكذلك جاره.

- مشكلة في نظام ديلكو...

- حتّى في محرّك على الديزل؟

- يجدر بي أن أقصد شقيقك...

- لم يعد يعمل في كاراج غروز.

كانا يتكلّمان بلكنة نيس. شغّل السائق المذياع، مبقياً الصوت خافتاً. كانت زوجتي تحمل الطفلة بين ذراعيها وتشير لها إلى واجهات المنازل المتعاقبة خلف الزجاج.

كان السائق أشقر الشعر له شاربان خفيفان. أمّا صديقه، فأسمر مربوع القامة جسيم، عيناه الغائرتان في محجريهما تجعلان رأسه يبدو أشبه برأس كبش من زمن غابر.

- هل تعلم أنّهم سوف يهدمون كاراج غروز؟...

- لماذا؟

- اسأل غابيزون.

كانت الطفلة تلهو بعقد زوجتي، فتهزّه وترفعه إلى فمها. كنا نتبع جادّة فيكتور هوغو، متقدّمين بين أشجار الدلب. كانت الساعة الثانية عصراً من يوم الاثنين، في

Twitter: @ketab_n

الأوّل من ديسمبر عام ألف وتسعمائة وخمسة وسبعين. وكان الطقس مشمساً.

انعطفنا يساراً في شارع غونو، وعبرنا أمام الفندق الذي يحمل الاسم ذاته، مبنى أبيض كان بابه الدوّار مغلقاً. لمحت أثناء عبورنا حديقة ضيّقة خلف سياج، ربّما تتّسع في نهايتها وتتحوّل إلى منتزه. بدا لي فجأة أنّني ذات مساء صيفيّ، في حياة أخرى، دفعت الباب الدوّار، فيما كانت أنغام موسيقى تتناهى من الحديقة. أجل، سبق أن أقمت في ذلك الفندق، ولم يبق لي من إقامتي فيه سوى ذكرى غامضة، وذاك الانطباع الغريب بأنّه كان لديّ آنذاك زوجة وابنة صغيرة، هما زوجتي وطفلتي اليوم بالذات. كيف السبيل لايجاد آثار تلك الحياة السابقة؟

كان يجدر من أجل لك مراجعة بطاقات فندق غونو القديمة. لكن ما كان اسمي في تلك الفترة؟ ومن أين كنّا قادمين ثلاثتنا؟

- أجل، أجل، إنه غابيزون...

- وهل يفاجئك الأمر؟

- قام بالفعلة ذاتها مع وكالة بورش.

Twitter: @ketab_n

- تماماً...

أشعل الأسمر ذو رأس الكبش سيجاراً راح يمجّ منه بعصبيّة. ثمّ التفت صوبنا.

- عذراً... الطفلة...

كان يشير لنا مبتسماً إلى السّيجار وهو يطفئه في المنفضة.

- الدخان، إنّه مضرّ للأطفال، قال.

دهشت لمثل هذه اللباقة، واستخلصت أنّ لديه هو أيضا طفلاً.

لم أكن أدري لماذا التففنا من تلك الطريق، لكنّنا كنّا نسلك جادّة بارك إمبريال، تاركين الكنيسة الروسيّة خلفنا. لا بدّ أنّ رجلاً عجوزاً كان يغفو في عتمتها، رجل كان في ما مضى من وصفاء الإمبراطورة الروسيّة. وصلنا إلى بداية جادّة سيمييه، وكانت الطفلة تنظر من النافذة. كانت تلك أوّل مرّة تعبر فيها نيس في سيّارة. وكلّ ما تبصره كان جديداً عليها، بقع الأشجار الخضراء، وحركة السير، والمارّة على الأرصفة.

- وماذا عن شقيقك؟

- لا تخف عليه، وجد الوسيلة الملائمة لتدبّر أمره...

Twitter: @ketab_n

- مع سيّارات فاسيل فيغا القديمة؟

- أجل باتريك، بالطبع...

إذن كان الأسمر ذو رأس الكبش يحمل الاسم ذاته مثلي، ذلك الاسم الذي لقي رواجاً كبيراً عام 1945، ربّما بسبب الجنود الأنكلوسكسونيّين وآليّات الجيب وأولى الحانات الأميركيّة التي بدأت تفتح. عام 1945 برمّته كان كامناً في مقطعي اسم «باتريك». نحن أيضاً كنّا أطفالاً حينها.

- لا يقتصر الأمر على سيّارات فاسيل...

- آه حقّاً؟...

- هناك أيضاً حوالى عشر سيّارات ناش مستخدمة حصل عليها.

كيف كانت نيس عام 1945؟ من نوافذ كازينو رول الذي صادره الجيش الأميركي، كانت ترشح موسيقى جاز. شقيقتي كورين المسكينة التي أوقفها الأمن العسكري الفرنسي في أيطاليا، كانت معتقلة على مقربة من هنا، في فيلّا سانت آن، قبل اقتيادها إلى السجن، ثمّ إلى مستشفى باستور... وفي باريس، كان الناجون من معسكرات الاعتقال ينتظرون في برانس نوم مخطّطة تحت

Twitter: @ketab_n

ثريّات فندق لوتيسيا.

أذكر كلّ شيء. أنتزع الملصقات المعلّقة بطبقات متتالية الواحدة فوق الأخرى منذ خمسين عاماً، بحثاً عن الأشلاء الأكثر قدماً. عبرنا أمام مبنى كان في ما مضى فندق وينتر بالاس، ولمحت الشابّات الإنكليزيّات والشابّات الروسيّات، شابّات العام ألفٍ وتسعمائة وعشرة المصابات بالسلّ. أبطأت سيّارة الأجرة وتوقّفت. فقد وصلنا إلى حديقة أرين. ترجّل الأسمر ذو رأس الكبش، ذاك الذي يدعى باتريك، وساعدنا على إخراج عربة الأطفال، وهي كانت من طراز بالغ التعقيد بستّ عجلات، ومقعد قابل للارتفاع والدوران، وغطاء متعدّد الطيّات، وذراع حديديّة متحرّكة يمكن تثبيت مظلّة عليها. لوّحا لنا بيديهما حين أقلعت سيّارة الأجرة.

حملت طفلتي بين ذراعيّ وكانت نائمة، رأسها منقلب على كتفي. لم يكن هناك ما يبلبل نومها.

لم تكن تملك ذاكرة بعد.

Twitter: @ketab_n

نبذة عن المؤلّف:

ولد باتريك موديانو في بلدة بولوني-بيّانكور قرب باريس في 30 يوليو 1945 لأمّ ممثّلة من أصل فلامنديّ، وأب يهوديّ فرنسيّ من أصل إيطاليّ شكّل غموض سيرته أحد أهمّ عناصر كتابات ابنه ومصادر إلهامه. برع موديانو منذ رواياته الأولى في تصوير الأفق الاجتماعيّ والسياسيّ المأزوم في فرنسا في السنوات التالية للحرب العالمية الثانية، وفي تحويل التجربة التاريخيّة إلى مأساة وجوديّة ضاغطة يعيشها أفراد محرومون من الإرث، ويفتقرون إلى أدنى المرتكزات، يحدوهم أملٌ جارفٌ في تأسيس الذّات وتحقيق ما يكفي من الوضوح لإعادة ابتكار الحياة. تُوّج عمله بجوائز عديدة منها جائزة غونكور للرواية في 1978، وجائزة نوبل للآداب في 2014. له أكثر من ثلاثين رواية ومجموعة قصصيّة، وتصدر عن مشروع «كلمة» في أبو ظبي ترجمة ستّ من رواياته إلى العربيّة.

Twitter: @ketab_n

نبذة عن المترجمة:

دانيال صالح شاعرة لبنانية، لها باللغة الفرنسية مجموعتان شعريّتان بعنوان «حجارة الليل».- باريس 1984، و«الخطوات النائمة».- بيروت 1985. ترجمت في الصحف والدوريّات اللبنانيّة والعربيّة عشرات القصص القصيرة والقصائد لجاك بريفير وبول إلوار وجورج شحادة وتشيزاري بافيزي وهنري ميشو ولو كليزيو وغيرهم، وساهمت في ترجمة أشعار لأنسي الحاج إلى الفرنسيّة، وأعدّت وترجمت بالاشتراك مع شارل شهوان أنطولوجيا للقصّة القصيرة بعنوان «ثلاثون قصّة من الكوكب». من ترجماتها إلى العربيّة «منصب شاغر» للبريطانية ج. ك. رولينغ، و«بوتشان» لليباباني ناتسومي سوسيكي، و«فيضان ونصوص أخرى» لإميل زولا، والكتابان الأخيران صدرا عن مشروع «كلمة» للترجمة.

Twitter: @ketab_n

دفتر العائلة

هذه الرّواية مؤلّفة من خمسة عشر فصلاً وجيزاً يمكن قراءتها كما لو كانت قصصاً قصيرة مترابطة. هي خمس عشرة لحظة أو خمسة عشر وجهاً أساسيّاً تشكّل موجز سيرة ذاتيّة كتبها باتريك موديانو مراهناً على الكثافة، وعلى الإيحاء، مثلما فعل في «سلالة»، التي سبق أن تُرجمت في هذه السلسلة. على هذه الوجوه والأحداث والمفارقات ما فتئ الكاتب يلقي بصمات خياله الروائيّ، مموّهاً هنا، ومضيفاً أو مُنقصاً هناك، سعيَ مزيدٍ من الإضاءة. فضيلة هذه الكتابة على التناول التاريخيّ (على أهميّته) تكمن في كونها تقدّم الحدث وآثار الحدث على النفوس، أي أنّها تعنى بتاريخانيّته من جهة وببطانته الشعوريّة من جهة أخرى.

ما يتجلّى هنا هو تاريخ حقبة شكّلت بوتقة تجربة الكاتب الإبداعية أو مصهرها، هو الذي قال عن الحرب العالمية الثانية في إحدى محاوراته: «إنّها هي التّربة أو كومة السّماد التي طلعتُ منها».

السعر 45 درهماً

9 789948 136644

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

كلمة
KALIMA

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والرياضيات / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السير
أطفال و ناشئة